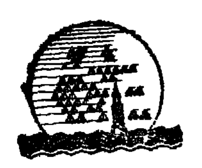
إبداع الشباب وإبداع الشيوخ
في
دنيا الأدب

تاليف

سعد عبد العزيز





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الاخراج الفني : ماجد البنا   تصميم الغلاف : زهور السلام شاكر

الاشراف الفني : راجيـة حسـين

اهـــداء

الى زوجتى الحبيبـة ناهد هانم أحمـــد فؤاد
المرأة التى أمدتنى بالحياة بعد أن كادت تجف
أهدى كتابى ..



مقدمة

قضيت فى تأليف هذا الكتاب ما يربو على ثلاثين عاما ٠٠ فى الستينات كنت أعمل مشرفا على ادارة كتابات جديدة بالدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر التى أتاحت لى فرصة الاطلاع على ابداع الشباب من قصة ورواية ومسرح ومقالة ، كنت قد أتيح لى فرصة النشر للمبدعين الشبان والشيوخ حتى استطعت أن أقدم لمصر جيلا من الأدباء فى المسرح والقصة والدراما قدمت وحيد حامد وجمال الغيطاني ورمسيس لبيب ومجيد طوبيا وعز الدين نجيب ومحمد كمال ٠ فضلا عن ذلك ناقشت كل هؤلاء ـ أمام ميكروفون الاذاعــة وأيضــا ناقشتهم فى كتابهم الأول على صفحات مجــلة الكاتب والثقافة والجديد ٠٠

من أجل ذلك أرانى أقول اننى قضيت مايربو على ثلاثين عاما فى تأليف هذا الكتاب وهو ابداع الشبان وابداع الشيوخ فى دنيــا الأدب فالكتاب ينقسم الى شعبتين : شعبة خاصة بأدب الشبان بادىء ذى بدء ، وشعبــة خاصة بأدب الشيوخ ٠٠ سوف نرى فى أدب الشبان :زهير الشايب وياسين رفاعية وهو أديب سورى وأدب مجيد طوبيا ومحمد كمال محمد أما أدب الشيوخ فسوف نطلع على أدب الدكتور محمد كامل حسين وأدب عباس محمود العقاد وأدب ابراهيم عبد القادر المازنى وأدب الدكتور محمد حسين هيكل وأدب الشيخ مصطفى عبد الرازق وأدب الامام محمد عبده وأدب الصحفى الثائر رشيد رضا وأدب أنور المعداوى والجوانيه عنــد الدكتور عثمان أمين ، ولا أنسى شاعرنا الكبير أمير الشعراء أحمد شوقى ٠ وبعد فأرجو أن يحوز هذا الكتاب رضا القارىء وأن يحقق رسالته فى الحياة ٠

وبعد ، فواضح أن كثافة الخلق والابداع تبدو واضحة للعيان عند الأدباء الشبان أمثال ابراهيم عبد القادر المازنى ـ فى شبابه ، وعز الدين نجيب ، وياسين رفاعية ٠

كما أنها تتخلخل وتميل الى روح البحث والدراسة كما نرى ذلك فى

قصة قرية ظالمة للدكتور محمد كامل حسين وأيضا فى قصة سارة لعباس محمود العقاد التى يغلب عليها طابع التحليل النفسى،صحيح أن قصة زينب رومانسية النزعة وهى تقطر عاطفة وحبا ودموعا ٠٠ لكن كانت لها الريادة فى عالم القصة المصرية٠٠خلاصة القول أن رؤية الابداع تشيخ عند الأدباء الشيوخ كما أنها تصبح غضة يانعة عند الأدباء الشبان واضرب مثلا بالأديب ابراهيم عبد القادر المازنى حين كان شابا ففى صدر شبابه كان شاعرا ملهما ، وكان يأخذ من حياته المؤسية ويصوغها فى أشكال جديدة من الحياة والحب والجمال ٠٠ وكان يعيب على الشعراء والأدباء التقليديين نقلهم للقدامى من شعر وكتابة٠٠وذلك لأنه كان يعتقد أن الخلق شىء والمحاكاة شىء آخر وان الأديب الخالق اله صغير ، يبتكر من العلاقات الجديدة ما يركبهـا فى تركيبات جديدة تأتى على نحو فذ فريد على أننا سنرى أن المازنى قد أبدع فى صدر شبابه الشعر ثم بعد حين أبدع قصصه ومسرحياته منها :ابراهيم الكاتب ، وابراهيم الثانى ومسرحيته عن زوجته ٠

أما العقاد فكانت عبقريته عبقرية ارتقائية بمعنى هو الذى أبدع الشعر ذاته ودون تقليد أحد الشعراء ، وهو الذى أبدع النثر والكتابة الأدبية فى أسلوب النثر دون تقليد أحد من الأدباء بل كان يعيب على مصطفى صادق الرافعى اغراقه فى تقليد السابقين واتهامه بأنه عدوا لحافظ وشوقى ، فلا غرابة أن يأتى بقصة سارة وهى أصدق دليل على الزمن السيكلوجى ٠

أما موقف الدكتور محمد كامل حسين فتراه هنا يبتكر ابتكـارات جديدة٠٠رأيناه فى الأدب يبدع روايته قرية ظالمة٠٠ورأيناه يفسر التاريخ تفسيرا جديدا وهو التفسير البيولوجى للتاريخ أضف الى أنه كان بحاثا مبتكرا فى الطب مبدعا فى النقد والفن والأدب ٠

وبعد ، ما نلمسه فى ثنايا هذا الكتاب

وأخيرا بقى لى أن أشكر الهيئة المصرية العامة للكتاب التى هيأت لى فرصة تقديم الكتاب فى الصورة التى يبدو عليها الآن ٠

كما لا يسعنى الا أن أدين بالشكر والامتنان لكل شخص أسهم بجهده فى اخراج كتاب ابداع الشبان وابداع الشيوخ فى دنيا الأدب ٠

عبقرية محمد عبده

العبقرية هنا يمكن أن نتمثلها فى تغلبنا على جميع المشكلات التى تعترض طريقنا وانتصارنا على العقبات التى نلاقيها فى حياتنا وكيف نجتاز حصيلة الصعاب ونتغلب عليها بما نبذله من جهد وعناء وصبر واحتمال .

وهكذا كانت حياة محمد عبده ـ فبادىء ذى بدء كان يواجه فى تعليمه منهجا عقيما متحجرا أقعده عن مواصلة تعليمه ، لولا انقاذه عن طريق أحد أخوال أبيه وهو الشيخ (درويش) الذى استطاع أن يخرج الفتى من أزمته النفسية و (يخرج من أيام سجن الجهل الى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد) (١) وبذلك أمكن لمحمد عبده أن يحقق مآربه ويحظى بما كان يتمناه فى حياته وهو أن يكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس ، وأمكن أن يحقق ذاته ويؤكدها طوال عمره .

مولده :

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ فى قرية مصرية هى (محلة نصر) من أبوين مصريين . وما أن بلغ العاشرة من عمره حتى أتم حفظ القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية لكن الصبى سرعان ما تعثر أمام جمود منهج التعليم الذى كان سائدا آنذاك فى الجامع (الأحمدى) ... وكاد أن ينصرف عن العلم ، وأن يشتغل بالزراعة لولا لقائه بأحد أخوال أبيه الشيخ درويش ، وهو رجل صوفى استطاع فى خمسة عشر يوما أن يخرج الفتى من أزمته النفسية ، وأن يوجهه الى المعانى القدسية ومن ثم يقول محمد عبده فى هذا الصدد :

(وتفرقت عنى جميع الهموم ولم يبق الا هم واحد وهو أن أكون كامل

(١) انظر رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الامام) جـ ١ صفحة ٢٣ .

المعرفة ، كامل أدب النفس ولم أجد اماما يرشدني الا ذلك الشيخ ·· الشيخ
درويش ··)

وفي عام ١٨٦٦ التحق محمد عبده بالجامع الأزهر ، أهم مركز للثقافة
الاسلامية وكان ذلك بالنسبة اليه يعتبر حادث جللا في حياته ، ولكن سرعان
ما اصطدم بأسلوب التعليم المتحجر العقيم الذى كان مفروضا على طلاب
العلم ، فكانت تحتشد ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية
المتشابكة والتدقيقات اللفظية التى تزهق الفكر وتعوقه عن النمو ·

انصرف محمد عبده عن العلوم الأزهرية ، متطلعا الى علوم جديدة
لكنه تعرض ـ في ذلك الحين ـ لأزمة نفسية راح على أثرها يعتزل العالم
وينفر من الناس لكنه اجتاز هذه الأزمة بفضل الشيخ درويش أيضا (١)

لقاؤه بجمال الدين الأفغاني

كان رجلا ثائرا ·· وكان رائدا للحرية الدينية والسياسة في نظ
الشعوب الاسلامية ولقد التقي محمد عبده بأستاذه (جمال الدين الأفغاني
فكان يلهمه ويوجهه الى ما فيه الخير لشخصه ولأمته ·· وكان ذلك في عص
الخديوى اسماعيل الذى ساده الظلام والاضطهاد ازاء الحياة الأخلاقيـة
العقلية ، لكن تعليم جمـال الدين الأفغاني انبثق كبريق يأخذ الأبصار
وسرعان ما انجذب اليه ذاك الشاب المجاهد واحتك بأفكاره فرأيناه ينشو
المقالات للصحف في موضوعات ثقافية عامة ·

كان محمد عبده يتمنى أن ينير الطريق وأن يضيئه بالخير والعدل فرا
يبث الوعى ويدعو الى تنوير العقول عن طريق كتاباته في الصحف وق
بتأليف كتابه الأول كتحيـة لأستاذه وهو باسـم : (رسالة الواردات
التى ظهرت عام ١٨٧٤ بالقاهرة ·

شهـادة العالميـة

في عام ١٨٧٧ تقدم (محمد عبده) لامتحان العالميـة في الأزهر
وحامت الشكوك حوله ، وتوجس به رجال الأزهر لاتصاله بجمال الد
الأفغاني ولدعوته الى نبذ التقليد والأخذ بالجديد في المعرفة الدينية والدنيو
وترجيح العقل في أفعالنا وسلوكنا ·

---

(١) أنظر رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الامام) جـ ٢ ·

ومهما يكن من أمر ، فقد نال محمد عبده شهادة العالمية ٠٠ وأمكن له القاء دروس فى المنطق والكلام والأخلاق ٠

وقد جمع حوله عددا عظيما من الطلاب فكـان بمثابة المفكر النابه النجيب ٠ وفى عام ١٨٧٩ أصبح محمد عبده أستاذا للتاريخ فى مدرسة دار العلوم وأستاذا للأدب فى مدرسة الألسن وظل يشغل هاتين الوظيفتين الى جانب مواصلته لدروسه فى الأزهر ٠

الصحافة

وكم كان يروقه أن يقضى وقته فى النشاط الصحفى فتلك رغبة طالما حببه فيها أستاذه جمال الدين الأفغانى حيث كانت لمصر فى ذلك الوقت ، دور الريادة للصحافة فى العالم العربى ٠

حتى اذا حكم « توفيق » ، نجد (رياض باشا) يختاره محررا للجريدة الرسمية وما هى الا بضعة سنين حتى صار ذلك الأزهرى الطموح رئيسا لتحرير « الجريدة » حيث ارتفع بها محمد عبده الى النضج والاكتمال وعن طريقها استطاع أن يذيع نزعة الاصلاح الدينى الأخلاقى ورفع مستوى الأمة والنهوض بها لنهضة اجتماعية واعية ٠

وما أن جاء عام ١٨٧٩ حتى حدث انقلاب أدى الى سقوط وزارة نوبار والوزراء الأوربيين الآخرين ٠

الحركة الوطنية

اخذت (الحركة الوطنية) تنمو شيئا فشيئا فكان من ثمارها حكومة نوبار من ناحية وتاليب الجيش المصرى بقيادة عرابى على الضباط الأتراك والشراكسة ـ وسرعان ما تحولت حركة عرابى الى ثورة عارمة لكن استطاعت القوات البريطانية اخمادها واحتلال الأراضى المصرية عام ١٨٨٢ ٠

محمد عبده ينفى خارج الديار المصرية

بعد فشـــل عرابى ، سيق « محمد عبده » الى السجن حيث أتهم بالتآمر مع رجال الثورة وحكموا عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج البلاد ٠

اختار محمد عبده (سوريا) لكى تكون موطنا للعيش فيها ٠٠ لكن لم يمض شهور حتى دعاه (الأفغانى) ليلحق به فى باريس ٠٠ حيث كان

(الأفغانى) فى زيارة للهند ، وزار محمد عبده باريس عام ١٨٨٤ ، وفى باريس التقى بأستاذه وهناك عملا معا على تأســيس جمعية وصــحيفة أســبوعية باسم (العروة الوثقى) كانت تدعو الى الجامعة الشرقية والى تصحيح بعض المفاهيم التى استغلت استغلالا سيئا مثل مفهوم الكرامة ومفهوم الشرف على سبيل المثال يقول محمد عبده فى احدى مقالاته التى جاءت فى العروة الوثقى ما يلى :

(الشرف كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس الا أن أكثرهم عن معناها غافلون :

فئة ترى الشرف تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ، وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات مع ان هذه الأشــياء سريعة الزوال فهى لا تمس الا الظــاهر ولا تمس بواطن القــلوب) ٠

كانت صحيفة (العروة الوثقى) أول صحيفة عربية ظهرت فى أوربا٠

الصحفى الثائر : يعقوب صنوع

كان محمد عبده يعمل بهمة لا تعرف الكلل فى تحرير المجلة ٠٠ وكان مكتبه هنــاك أشبه بنــدوة لجميع الشرقيين المقيمين أو الزائرين من هنود ومصريين وسوريين وأفغانيين وأحيانا كنت ترى الصحفى الثــائر يعقوب صنوع بين هذا الجمع من الزوار ٠

وشد محمد عبده ترحاله الى انجلترا فزارها عام ١٨٨٤ وهناك استقبل (ولفرد بلنت) الكاتب الانجليزى مؤلف كتاب : (التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر) وقد ساعد (بلنت) صديقه فى ابلاغ صوته الى الرأى العام الانجليزى والاهتمام بالقضية المصرية ، كذلك هيأ له عدة مقابلات مع بعض رجال الساسة من الانجليز وأعضاء البرلمان الانجليزى ومنهم (راندولف تشرشل) والد رئيس الوزارة البريطانية السابق ٠

وما أن عاد محمد عبده الى باريس ليستأنف عمله بالمجلة حتى فوجىء بالسياسة الانجليزية تحول دون وصول العروة الوثقى الى البلاد الاسلامية٠

عاد (محمد عبده) الى مصر عام ١٨٨٨ فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف ٠

كان يتوخى العفو وايقاظ ضميره ، واصلاح ذات البين بين العائلات٠

فلما عين عضوا فى (مجلس ادارة الأزهر) دأب على السعى الى رفع مستوى تلك الجامعة العريقة ثقافيا وماديا وأخلاقيا ٠

وفى عام ١٨٨٩ عين محمد عبده مفتيا للديار المصرية ثم عين عضوا فى مجلس شورى القوانين فى ٢٥ يونية من عام ١٨٨٩ فكان يسعى للتوفيق بين وجهتى نظر الحكومة والمجلس ، وكان يدعو الى تربية الرأى العام فى مصر ، والنظر فى الأمور العامة والمصالح الوطنية الكبرى ٠

انشاء الجامعة المصرية :

لقد رأينا (الأستاذ الامام) يبذل جهودا كثيرة حتى أقنع أحمد المنشاوى باشا بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى احدى ضواحى القاهرة لولا أن اختاره الله فوقف المشروع ٠

محمد عبده والمنطق :

فى سنة ١٨٧٧ ـ وكان محمد عبده لا يزال طالبا بالأزهر ـ كتب مقالا دافع فيه دفاعا حارا عن المنطق والكلام محاولا أن يبعد عنهما الشوائب والشبهات المستقرة فى أذهان الأزهريين فقال :

(ان العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الأفكار غثها من السمين ،وتبين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب وأى مقدمة يصح أن تؤخذ ٠٠ وايهـا يجب أن يطرح فهذا علم حقيق بأن يتخذ سلمالجميع العلوم) ٠

وفى عام ١٨٨٦ وكان محمد عبده منفيا فى سوريا ، اهتدى الى كتاب: (البصائر النصيرية) الذى نشرها بمصر عام ١٨٩٨ ويلاحظ أن التعليقات والايضاحات التى نشرها مع النص تكشف عن معرفة عميقة بمذاهب المنطق عند الفلاسفة الاسلاميين ومنطق ابن سينا على الخصوص ٠

واتخذ محمد عبده نشر هذا الكتاب العظيم الكى يحث الأزهريين على أن يعنوا أعظم عناية بدراسة المنطق ٠٠ فعنده أن المنطق هو العلم الذى يكفل للنفس البشرية الوسيلة لبلوغ الحق واليقين ٠

وهو يتفق مع (الفارابى) أن قوانين المنطق هى قوانين كلية وأنه لا يمكن أن ينتفع الانسان بالمنطق ولا بغيره من العلوم الا اذا عمل بها وراعى احكامها بما ينبغى أن تكون ٠

ويرى (أستاذنا) أن التطبيق والاختبار هما وسيلة للاحتفاظ بالمعرفة

المكتسبة ولجعلها بالتالى أكثر واقعية واذن فالمنطق عنـده انما هو فى آن واحد : علم وفن •

محمد عبـده الفيلسوف :

منذ تلقى محمد عبده العلم فى الأزهر وتأثر بأستاذه جمال الدين الأفغانى انصرف الى دراسة الفلسفة-العقلية-وفلسفة - المشائين الاسلاميين، والى دراسة اللاهوت التقليدى الاسلامى أى علم الكلام •

ومعروف أنه قد عانى كثيرا من أهل التصوف وقتذاك ، وقد وجدنا كتاب : (الاشارات) للشيخ الرئيس منسوخا بقلم الشاب الأزهرى وعليه حواشى مقتبسة من مصادر فلسفية مختلفة •

وجدير بالذكر ، انه درس الفلسفة الصوفية الاسلاميــة •• ولعل مصنفه الأول : (رسالة الواردات) تعبيرا رائعـا عن بحوثه الميتافيزيقية والصوفية •

موقف محمد عبده من التصوف :

ليس بدعا أن محمد عبده وقد نهض معارضا أصحاب الطرق الصوفية الذين انتشروا فى العصور الأخيرة فى بلاد الشرق الاسلامى •

فمعروف انه قد عانى كثيرا من أهل التصوف اذ كان فى صدر شبابه صوفيا ثم كان على دراية بحال أهل عصره •• فلم يرتض أن يساير المسلم أهل التصوف ، فيهمل الواجبات الملحة المفروضة فى المجتمع وأبى أن يذهب معهم فى تواكلهم واستهانتهم بالحياة وكأنه يقول لهم : (لم الهرب من الدنيا ؟) وهو يقول ان الله وحده هو سبب كل شىء ولا فعل لغيره فاذا دعونا فيجب أن ندعو الله لا (الأولياء) لأنهم بشر مثلنا ، ولسنا ملزمين بأن نعتقد بكراماتهم المزعومة •

ولم يكن الناس فى القرنين الأول والثانى من التاريخ الاسلامى يعرفون شيئا عن تلك التقاليد والبدع التى سرت الى المسلمين بالتقليد أو العدوى •

فكانت من أهم أسباب التأخر الذى يشاهد اليوم فى العالم الاسلامى•

محمد عبده الناقد :

كان يوقن أن اللغة - مادة البلاغة وجمال النعبير ، وكان أهم ما يشغله انما هو احياء اللغة مادة وعلما ودراسة وكتابة •• فكان ينشر نماذج البلاغة السلفية ويشرحها بقلمه أو ينوه بها فى دروسه وتفسيراته ومن هذا القبيل:

نهج البلاغة ، ومقامات البديع ودلائل الاعجاز واسرار البلاغة · ومذهبه الناقد فى تحصيل مادة اللغة : انها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد ومصطلحات فكان يقول : ان الكلام البليغ سهل على الفطرة ولكنه صعب فى تقليده ·

ورأيه فى الشعر البليغ مع جودة اللغة : (انه لا يكون شعرا الا اذا كانت ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر) والا فهو نظم لا بلاغة فيه ·

وفى ١١ يوليو عام ١٩٠٥ توفى محمد عبده واحتفلت مصر شعبا وحكومة بتشييع وفاته ·

وبعد ، فقد كان محمد عبده من أبرز شخصيات التاريخ الاسلامى الحديث ·· وليس فى مصر من يجهل اسم (الأستاذ الامام) ·· كانت دراسة الفلسفة عنده كشفا حقا ·· وقد عبر هذا الشاب الأزهرى عن نشوة ساذجة صادقة حين فتحت له صحبة الفلاسفة المسلمين لأول مرة آفاقا عريضة ·

ان ذهنه لم يكن جدالا صرفا ولا تامليا محضا ولم يكن حبيس مكتبته ولا صوفيا منعزلا عن العالم ولا خياليا يسبح فى أحلامه بل كان خبيرا بأحوال النـاس وظروف الحياة ·· وكان قادرا على التسـامح والود مع غيره ممن يعارضونه فى أرائه ·

ان أصدق تعبير يمكن أن نقوله عنه :

انه كان يجمع بين الفيلسوف وعالم الدين حيث يتعاونان معا فى شخصه تعاونا لم يتهيأ لنا من قبل مدى قرون عديدة ·

قراءة فى فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق

مفكر وأديب وعالم من كبار علماء الأزهر الشريف فقد كان شيخا للأزهر عام ١٩٤٥ ، وعالما بأصول الدين والفقه ، وكان والده صديقا للأستاذ الامام محمد عبده ، الذى اتصل به الشيخ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الأستاذ على عبد الرازق اتصالا أصبحا معه أقرب تلاميذه اليه وأوفاهم به٠

نشأ مصطفى عبد الرازق نشأة دينية ، فدرس بالأزهر ، وحصل منه على اجازة العالمية عام ١٩٠٩ ، كما درس بالجامعة المصرية القديمة (الأهلية) ثم سافر الى فرنسا حيث درس الفلسفة والاجتماع والآداب وتاريخها فى باريس ثم انتقل الى ليون سنة ١٩١١ وهناك اشتغل مع الأستاذ ادوارد لامبير بدراسة أصول الشريعة الاسلامية ٠

يقول عن تجربته فى حياته الأزهرية : (لم تكن دراستى فى الأزهر على طول مدتها بالتى تشبع رغبتى فى العلم وتحقيق لروحى ما تتطلع اليه من الاطمئنان ولكن الدروس التى كنت أحضرها فى الأزهر على يد الأستاذ محمد عبـــده كانت تنسينى ما أشعر به من مرارة وتصد عن نفسى السأم واليأس اللذين كانا يساورانها الا ذاك فلما انقطع رضوان الله عليه عن التدريس فى الأزهر عاودنى هذا اليأس وذلك السأم واسودت دنيا الدراسة فى الأزهر أمام عينى. فكرهت المضى فيها ، بيد انى رأيت الا أتركها قبل أن أستنير بها برأى الأستاذ الامام) ٠

أعـــد رسالة الدكتوراه موضوعها : « الامام الشافعى أكبر مشرعى الاسلام» وبعد عودته الى مصر عين موظفا بمجلس الأزهر الأعلى ، ثم أمينا عاما للمعاهد الدينية ، ثم مفتشا للمحاكم الشرعية عام ١٩٢٠ ٠ وفى عام ١٩٢٧ عين أستاذا للفلسفة الاسلامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) حتى أختير عام ١٩٣٨ وزيرا للأوقاف فلم يشغله منصب الوزارة عن متابعة دراساته الفلسفية لتلاميذه الذين ظل يؤثرهم بعلمه ويشرف على

رسائلهم العلمية ، ويهيىء لهم من أسباب العلم والعمل ما كان له أطيب الثمرات وفى عام ١٩٤٥ عين شيخا للأزهر ـ كما عرضنا سلفا ـ حتى توفى فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٧ بعد أن خلف تراثا قيما من الدراسات الفلسفية والفقهية والأدبية التى كان لها أثر كبير فى الحياة العقلية والروحية الاسلامية فى العصر الحديث كما أن له جهودا مشكورة فى عالم الأدب خصوصا فى مجال البحث الأدبى فقد كتب بحثا باسم البهاء الزهير وهو شاعر مصرى سوف نعرض له بالتفصيل فيما بعد ·· وكان مترجما حاذقا وله كتاب باسم : الملكات المصريات وهو من تأليف فتاة مصرية تدعى ق· ع· فقام بتعريب الكتاب المذكور وكم كان يحلو للشيخ مصطفى عبد الرازق أن يقدم كتبا قيمة بمقدمات وافية ضافية تحمل فى جوفها كل الصيد ·· ففى كتاب بعنوان موسى بن ميمون حياته ومصنفاته··وهو من تأليف الدكتور اسرائيل ولفنسون أستاذ اللغـات السامية بدار العلوم ·· رأينـا الشيخ مصطفى عبد الرازق يقدم هذا الكتاب بمقدمة رائعة تتضمن تعريفا بفضل اليهود فى دورهم بتعريف المسيحيين بالفلسفة الاسلامية فى القرون الوسطى ·· انظر اليه وهو يقول فى هذا الشأن (لليهود معظم الفضل فى تعريف المسيحيين بالفلسفة الاسلامية فى القرون الوسطى) ·

فقد كان اليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر سفراء بين عرب الأندلس وبين الغربيين بما ترجموا من كتب كثيرة عربية الى لغتهم العبرية التى كان الغربيون أعرف بها ونقلت نفس هذه الكتب الى اللغة اللاتينية فى تراجم أكثرها مشوهة جدا ·

فهناك صلة وثيقة بين فلسفة اليهود فى القرون الوسطى وبين الفلسفة الاسلامية ومن البديهى أن درس هذه الحركة الفلسفية اليهودية ورجالها انما هو لازم للاحاطة بتاريخ الفلسفة الاسلامية) (١)

ثم نراه فى فقرة أخرى من المقدمة يقول : (فى بعض كلام المؤرخين ما يشعر بأن صلة ابن ميمـون بصلاح الدين الأيوبى ووزيره للقاضى الفاضل لم تكن مجرد تقـدير لقيمـة ابن ميمـون فى الطب والفلسـفة بل كان السلطان الأيوبى ووزيره يعرفان أيضا للفيلسوف ابن ميمون مهارته وحذقه فى شئون السياسة ·· فقد كان صلاح الدين ينتفع به بما لديه من لطف التدبير ومن المكانة والقبول عند يهود اليمن فى تهدئة الثورات التى كانت تنزو بها تلك البلاد ··) ويستطرد الشيخ مصطفى عبدالرازق هذا (وابن ميمون من فلاسفة العرب فهو يسمى الفلسفة الاسلامية فلسفة عربية نسبة الى العرب بمعنى اصطلاحى يشمل جميع الساكنين فى تلك الممالك الاسلامية المستخدمين للغة العربية فى أكثر تآليفهم العلمية لتشاركهم فى لغة كتب العـلم ·

وابن ميمون من فلاسفة العرب وهو من فلاسفة الاسلام ‥ ومن عجب أن ابن ميمون لم تنشر كتبه باللغـة العربية ولا درست حياته ، ولا مذاهبه ، ولانزال نلمس أخباره وآثاره فى لغة غير لغتنا ‥) ٠

وفى كتابه : تاريخ الملكات المصريات الذى قام بتعريبه عن الفرنسية نراه يقول عن شجرة الدر فى صفحة ١٣ (٠٠٠ اختبرت بالاجماع ملكة لمصر ، وبويعت باسم (الملكة عصمت الدين) فى قصرها بجزيرة الروضة على شاطىء النيل ، ومنذ ذلك العهد أصبحت حياتها تفيض بالعظائم . لكن بعد زمن رأت أن تسكن القلعة دار آبائها الأيوبيين (صلاح الدين) الشهير ‥ وشجرة الدر هى التى أبدعت حفلة المحمل المصرى الذى كان يرسل الى مكة كل عام وهى أول امرأة فى العهد الاسلامى للبلاد المصرية ضربت باسمها نقود ، بل هى فى ذلك تعتبر فذة فريدة لا ثانية لها ٠

كان يحبها السادة من رعيتها والفرسان بل كان يحبها كل شعبها وكانت مصر تجل مليكتها حتى وجدت نفسها مضطرة للزواج بوزير الحرب الذى كان أكبر أهل مصر نفوذا لتدفع العوادى عن عرشها ٠ على انها ظلت تسوس البلاد من طريق خفى ‥

الكن سرعان ما قتلت شجرة الدر قتلها خصومها السياسيون والقوا جسدها وراء القلعة ‥ فعرفها أهلها بجلبابها الفاخر المحلى باللآلىء فأسرعوا بدفنها فى مسجد صغير كانت قد بنته لنفسها وثوت هنالك فى قبر حقير، ملكة مصر ذات العز والاجلال ٠

وللشيخ مصطفى عبد الرازق نظرات فى الشعر العربى ونحن هنا نعرض لبحثه الشيق عن الشاعر المصرى البهاء زهير حيث يعرض لحياته ولشعره وحركـة التجديد التى قام بهـا أيام كان الأدب العربى غارقا فى التزاويق اللفظية والمحسنات البديعية فى أواخر العصر العباسى ٠

البهاء الزهير

عرف الشيخ مصطفى عبد الرازق شعر البهاء زهير منذ صباه حيث كان يقرأ على والده من كتب الأدب فى بعض الليالى وقد دفعه هذا الى حب شعر البهاء زهير منذ أن عرفه ٠

أنظر الى «أديبنا» وهو يقول فى مقدمة بحثه : (كان يتأتى لعقلى الناشىء أن يستشف من ثنايا ألفاظه اللطيفة وتراكيبه على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون المعانى كثيفا فى الشعر أحيانا وفى النثر ‥ وكان موقع وزنه الموسيقى ونغمه يستثير فى نفس أريحية وطربا ، حتى لتأثر

بذلك ذوقي ، فهو يهفو في البيان الى نوع من الأنغام والوزن وكان البهاءزهير يمتاز بقوة شخصيته وعزة نفسه وآبائه يقول شيخنا الأديب في هـذا الشأن :

(البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم يجمع بين حب الخير وفضيلة العفو وقوة الشخصية وشرف النفس وعزة الآباء ٠٠وتلك صفات لاتجتمع الا لأهل الفطر الفائقة ، خصوصا في عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان في منصبه) ٠

ولم يكن البهاء زهير عظيما في خلقه فحسب وانما كان عظيما بمقامه في الأدب العربي فقد أحدث ثورة في الأساليب الأدبية التي كانت سائدة في عصره فتصدى لدعاة التزاويق اللفظية وأصحاب المحسنات البديعية وطالب بأن تنسلخ اللغة عن هذه التوابل التي تفسد الأذواق وتطمس روح الابداع يقول أستاذنا في هذا الصدد :

(عاش البهاء زهير في القسم الأخير من العصر العباسي ، وكان الأدب العربي في هذا الدور قد جاوز المدى في التنميق والعناية بالمحسنات البديعية والسجع والاعراب اللفظي واشتهر أئمة الانشاء في ذلك العصر رجلان : أحدهما الفاضي الفاضل محيي الدين وثانيهما العمـاد الكـاتب بن حامد الأصفهاني ويلقب القاضي الفاضل بشيخ البلاغة ويلقب العماد الكاتب بعمدة المنشئين ٠٠ فأراد البهاء زهير أن يفك قيود اللغـة ويخلصها من التكلف ويجعل أساليبها النثرية تجرى على الفطرة والعفوية) ٠

ثم نجد الشيخ مصطفى عبد الرازق يلقى الضوء ، بعد ذلك ، عـلى مميزات وخصائص كل من القـاضي الفاضل والعماد الكاتب في أساليب الكتابة الأدبية فيقول :

(وقد أدخل العماد أساليب الترسل بما فيهـا من سجع وجناس واقتباس واستعارات وكنايات ، في المؤلفات العلمية ، فكتب في التاريخ كتبا على هذا الطراز مثل مؤلفه المعروف (بالفيح القسي في الفتح القدسي) ٠

أما القاضي الفاضل فله في كتابه الانشاء طريقـة تعرف بالطريقـة الفاضلية . وسار على نهجها أهل عصره ومن جاء بعد عصره ، وفشت في الأدب العربي وقد سن سننا فيما تصدر الرسائل والتواقيع وما تختم ، وفي أساليب الدعاء وغير الدعاء ٠

وتمتاز الطريقة الفاضليـة بالاطنـاب وكثرة الاقتبـاس والتضمين والمطابقة والتورية ٠

المجاز مع الاسراف فى الجناس وماإليه من المحسنات اللفظية ، مع الميل الى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة ·

ثم تجد الشيخ مصطفى عبد الرازق يستأنف حديثه عن البهاء زهير فيقول : (عين البهاء زهير رئيسا لديوان الانشاء فى الدولة الأيوبية ، فحل محل القاضى الفاضل ، وقد تولاه بعده تليمذان من أتباع مذهبه ·· لقد ابتدع البهاء زهير فى الشعر نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات وفى الأساليب : فهو موجز لا يحب الاطناب وهو مقتصد فى زينة اللفظ وهو نزاع الى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجـاز والكناية وهو عدو للجمود الذى يقتل مواهب الابداع والتفنن ثم هو لا يريد أن يستبدل الناس لكلامهم العادى كلام الجاهلية الأولى اذا نظموا الشعر أو كتبوا النثر ، وانما يريد أن يصحح الشعراء والكتاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية ، حتى لا تنقطع الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها) ·

لم تلق حركة التجديد التى بشربها (شاعرنا المصرى) ترحيبا أو تشجيعا وأبى الصمود لعنف الحركات التقليدية السائدة آنذاك وذلك لسماحته وخلقه الوديع ··

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى هذا الصدد :

لم يرق الكثير من الأذواق التى أفسدها التقليد هذا المذهب الذى يفك عنها قيودها ويخلصها من التكلف الى مسايرة الفطرة) ·

وأخيرا يشير الشيخ مصطفى عبد الرازق الى ما كان ينطبع به شاعرنا المصرى من رقة وسماحة وعفوية وروح مصرية خالصة يقول : (ولست أعرف شاعرا نفخت فيه مصر من روحها ما نفخت فى البهاء زهير ، فهو مصرى فى عواطفه ، وفى ذوقه وفى لهجته الى الغاية القصوى وان كان مولده فى بلاد الحجاز باجماع من ترجموا له ·

ومعروف أنه توفى فى الرابع من ذى القعدة عام ٦٥٦هـ ـ ٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨ م وذلك من أثر وباء حدث بمصر آنذاك ، ودفن غير بعيـد من قبة الامام الشافعى ·

لقد نشأ (البهاء زهير) فى مدينة قوص بالصعيد فى مصر كما ذكر ذلك السوطى فى كتابه (حسن المحـاضرة) ولم يذكر (ابن خلكان) فى ترجمته الطويلة نسبته الى « قوص » ولكنه ذكر فى ترجمته لجمال الدين

بن مطروح انه كان بين الاثنين صحبة قديمة من زمن الصبا وان اقامتهما ببلاد الصعيد حتى كانا كالأخوين ، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح . وقوص يومئذ كانت أكبر مدن الصعيد ، وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن والحجاز وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة ، والحمامات والمدارس والبساتين . ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين،فهناك يتجمعون ويذهبون الى جدة .. وقوص من قديم الزمان منبع العلم والعلماء ويقول صاحب كتاب: (الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، وهو « كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الادفوى المتوفى ٧٤٨هـ (١٣٤٧م): ان بقوص ستة عشر مهنا للتدريس ولم يرد ذكر للبهاء زهير فى كتاب الادفوى الا عرضا وانتقال والد البهاء زهير من مكة الى قوص فى تاريخ غير معروف، الا أن كلام المؤرخين كابن خلكان يفيد أن البهاء زهير أقضى زمن صباه فى الصعيد .. وربما يقال أن البهاء زهير كان طفلا حين هاجرت أسرته الى وادى النيل .

وتوجه البهاء زهير فى خدمة الملك الصالح بدمشق فأقام هناك الى أن خانه عسكره فاعتقل بقلعة الكرك .

وفى رواية أخرى أن (بهاء زهير) كاتب ديوان الانشاء فى عهد الدولة الأيوبية وفى عهد الملك الصالح قال هيار فى كتابه الأدب العربى :

(أن شعر بهاء زهير كاتب السر فى الدولة المصرية يجعلنا ندرك بلغة لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التى صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين) .

نماذج من شعره

يمتاز شعر بهاء زهير بأنه مصرى الروح ، مصرى العاطفة فهو يقول :

فرعى الله عهد مصر وحيا
ما مضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه
مصعدات بنا ومنحدرات

هات زدنى من الحديث عن النيـ
ـل ودعنى من دجلة والفرات

وليـــــالى بالجـزيرة والجيـ
ـزة فيما اشتهيت من لذات

بين روض حكى ظهور الطوراه
من وجوحكى بطـون البـذاة

حيث مجـرى الخليج كالحيـــة الرفط
طـاء بين الرياض والجنـــات

وهو القائل

أأرحـل عن مصر وطيب نعيمهـا
وأى مكان بعدها شـائق

وأتـرك أوطانا ثراها لناشـق
هو الطيب لا ما ضمنته المفــارق

بلادى تروق العين والقلب بهجـة
وتجمع ما يهوى تقى وفاسق

ويقول أيضا :

فيا سـاكنى مصر تراكم علمتم
بانى مالى عنـكم الدهـر سلوان

وما فى فؤادى موضـع لسـواكم
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن

عسى الله يطوى شقة البعد بيننا
فتهدأ أحشـاء وترقا أجفـان

وقد عالج الشيخ مصطفى عبد الرازق فى جمال الفلسفة الاسلامية ثلاثة موضوعات وهى : الدين والوحى والاسلام ٠

فلا غرابة أن نراه يقوم بتأليف كتابه : الدين والوحى والاسلام ٠٠ أنظر اليه وهو يقول : « وقد عرضنا فى الموضوع الأول لثلاثة مبـاحث أحدهما فى العلاقة بين العلم والدين .

وثانيها فى تحديد الدين وبيان أصله فى نظر الباحثين من الفرنجة (بداية الاهتمام بهذا البحث وصلة ذلك بتكوين علم اللغات ، معانى الكلمة الأوربية الدالة على الدين واصل مادتها اللاتينى ، ومذاهب علماء النفس ومذاهب علماء الاجتماع فى أصل الدين ، مناقشة النعاريف المختلفة للدين، حيرة العلماء فى تعريف الدين ودلالتها) ٠

وثالثها فى الدين فى النظر الاسلامى (أصل مادة الدين ومعانيها اللغوية المختلفة الدين فى لسان القرآن ، المعنى الشرعى الكلمة دين ، الدين عند الفلاسفة الاسلاميين والفرق بين الدين والفلسفة) ٠

وعرضنا فى الموضوع الثانى لمبحثين : أحدهما فى المعانى المختلفة لكلمة (الوحى) فى اللغة والقرآن والسنة ٠

وثانيهما أهم النظريات فى تفسير ظاهرة الوحى (مذاهب المتكلمين ، مذهب الفلسفة الاسلامية،رأى الصوفية،مذهب ابن خلدون،آراء المسلمين فى العصور الحالية) ٠ واما الموضوع الثالث فقد عرضنا فى قسمه الأول للنظريات المختلفة فى العلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى لكلمة (اسلام) وبسطنا فى قسمه الثانى رأينا فى هذا الموضوع على انه يمكن القاء الضوء على الفصل الثانى وهو الرأى الراجح فى العلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى لكلمة اسلام ٠

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى صفحة ٥٩٦ من الكتاب :

(ان القرآن يقرر أن الدين واحد على لسان جميع الأنبياء وهو الايمان بما يجب الايمان به وانما تختلف الشرائع أى الأحكام العملية :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه،كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) ٠

ودين الله الواحد الذى لا يدخله النسخ ولا يختلف باختلاف الأنبياء هو فى عرف القرآن المسمى اسلاما ، (ان الدين عند الله الاسلام) ٠

ويمكن القول بأنه قد أوحى بالقرآن الكريم فى مكة المكرمة ، وأكمل الاسلام دينا فى المدينة المنورة ٠ وقام العرب المسلمون بعد وفاة الرسول الكريم بحركة فتح امتدت قرنا وبعض القرن وكانت متعددة فقد كانت فتحا عسكريا امتد الى الهند والصين شرقا وبحر الظلمات غربا ٠٠ وكانت فتحا عنصريا بمعنى أن الجنس العربى تغلب على الأجناس الأخرى وتمثلها فى بعض الأقطار دون الأخرى ٠٠ وكانت فتحا لغويا فقد انتشرت اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة انتشارا سريعا ٠

واننا هنا ندين بالفضل الى كل من عبد الملك بن مروان والمأمون٠٠ فالأول عرب الادارة فجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية والثانى نقل العلوم الى العربية فعرب الحركة الفكرية والعقلية » ٠

وقد رافق هذه الفتوحات انتشار الاسلام ، فازداد عدد الذين قبلوه

وارتضوا به ٠ وجدير بالذكر ان الاسلام لم ينتشر فى فراغ ٠٠ فالبلاد التى قبله أهلها دينا لهم ، كانت قد عرفت حضارات متنوعة واختبارات روحية ومادية متعددة ومن ثم ، فقد اتصل الاسلام بهذه كلها واتصلت به ، فعرف حضارة الهند وايران وفلسفة اليونان وشريعة الرومان وحكمة النصرانية، ومذاهب التصوف ونتجه من ذلك كله اختلاط اجتماعى سياسى فنى اقتصادى تكونت منه الحضارة الاسلامية التى كانت بدورها قد تمثلت كل هـذا الذى لقيته واتصلت به ، فقبلت منه ماقبلت ولفظت منه مالفظت وخلطت منه ما خلطت بنفسها ٠

فالدين انما هو كل شيء لجميع الناس ٠

وبعد فهذه عجالة سريعة استطعنا أن نلقفها من مجرى الحياة الروحية والأدبية للشيخ مصطفى عبد الرازق ٠٠ فأرجو أن يكون القارىء قد استمتع بها واستروح نسماته من عبيقها ٠

وبعد : فهذه عجالة سريعة وقبس من شخصية العالم الجليل مصطفى عبد الرازق عالم الأزهر الشريف والمترجم والفيلسوف الذى علم تلاميذه أصول الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية الأديب الباحث الذى سجل بحثا شائقا عن الشاعر المصرى البهاء زهير ٠٠ المؤرخ الذى كتب عن سير الملكات المصريات عبر التاريخ ٠

أقول هذه عجالة موجزة سريعة سجلناها لكى تكون تبيانا عما ندين به من أفضال ومآثر ولكى تكون تحية اجلال لهذا الأستاذ الجليل ٠

رشيد رضا الصحفى الاسلامى الثائر

عاش (رشيد رضا) فى عصر التقى فيه بطش الاستبداد العثمانى بنيران الاستعمار الأوربى ، أى فى الفترة التى كانت تنحصر فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين ٠٠ اذ تعتبر من أشد سنوات الأمة العربية قساوة وقتامة والما على مواطنى هذه البلاد ٠

لكن (رشيد رضا) استطاع ــ بزمرة المصلحين النابهين ، أن يحمل رسالته التى تتضمن حركة التنوير والاصلاح واستطاع أن يبشر بها فى أنحاء الأمة العربية والعالم الاسلامى ٠٠ كان لا يفوته المشاكل العويصة التى كانت سائدة آنذاك ٠٠٠٠ والأمانى التى كانت حلما بعيد المنال ومن ثم ، راح يسعى حثيثا الى ابراز العوائق التى كانت تعترض طريقنا ، وينادى باصلاح نفوسنا وعقولنا ، كانت الوسيلة التى توسل بها لتحقيق أهدافه انما هى الكلمات التى كان يسطرها فى عالم الصحـافة وعالم المناظرات المنطقية ضد أعداء العقيدة وضد العثمانيين والانجليز حتى أنه يمكن القول بأنه أعطى لتحقيق هذه القضية كل جهاده وعمره ٠

مولده ومراحل تكوينه : كانت شخصية (رشيد رضا) تمتاز بمزايا فطرية ومزايا مكتسبة ٠ فكان يتصف بكمال خلقه واعتدال مزاجه ، وكانت حصيلته من (الوالدين) تمتاز بحسن وراثة ٠٠ وكان يضرب به المثل فيما اكتسبه من خلق ، وتربية قومية وتوعية وتعليم ، وحسبنا أن نقول انه كان تلميذا نجيبا للامام الشيخ محمد عبده أثناء وجوده بلبنان منفيا زهاء خمس سنوات ٠

ولد (رشيد رضا) فى ٢٧ جماد الأول عام ١٢٨٢هـ ــ ١٨٦٥م ، فى قرية تسمى (القلمون) على شاطىء البحر المتوسط من جبل لبنان ، تبعد عن مدينة طرابلس زهاء ثلاثة أميال ٠

وشب فى جو من الكرم ، والخلق القويم والهيبة والسماحة ٠٠ يقول فى مذكراته : (اننى منـذ دخلت ـ سن التمييز أرى فى دارنا وجهـاء النصارى من طرابلس ولبنـان ، كمـا أرى وجهـاء المسلمين والقسوس والرهبان . فكان (والدى) يرحب بهم جميعا ايما ترحاب) ٠

المدارس التى التحق بها : التحق (رشيد رضا) بكتاب قرية القلمون، وتعلم فيه القرآن وفهم آياته البينات ، كما تعلم قواعد الحساب ، ومبادىء الجغرافيا وتعلم العقائد والعبادات٠لكنه سرعان ما انتقل الى المدرسة الوطنية الاسلامية بطرابلس عام ١٨٨٢ ، وكان اذ ذاك فى الثامنة عشر من عمره حيث كانت هذه المدرسة أرقى علما وأعظم تقدما بالنسبة لهذا الشاب الطموح الذى كان يحدوه الأمل فى مستقبل زاهر ناجح ٠٠ كانت مواد هذه المدرسة تدرس باللغة العربية وقد اهتمت بالعلوم العربيـة والشرعيـة والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية والاسلامية ٠

ولا غرابة اذا قلنا أن عوامل رقى هذه المدرسة وتقدمها انما يرجع الى مؤسسها ومنشئها الشيخ (حسين الجسر) وهو أحد كبار علماء الشام، الذى تلقى تعليمه بالأزهر الشريف والذى تتلمذ على يد أديبنا الشهير الشيخ (حسين المرصفى) ٠

كان (حسين الجسر) بمثابة الأستاذ الأول (لرشيد رضا) ، وكان رائده الذى قام بتوجيهه الى كثير من المعارف والعلوم ٠

ظل (رشيد رضا) موضع تقدير أستاذه الشيخ (حسين الجسر) الذى تولاه بالرعاية وفتح عينيه على مشاكل الشرق ٠ وما يعانيه من أزمات ومتاعب بسبب استبداد الحكم العثمانى ونهبه وسلبه لخيرات الأمةالاسلامية، وفرضه التخلف والقهر والظلم على شعوبها ومن ثم ، تربى هذا « الشاب اليافع » على كره هؤلاء المعتدين ٠٠ وكأنه أقسم على أن يحاربهم بقلمه مادام حيا ٠٠ فلما استوى عوده ووقف على قدميه ، أتاح له استاذه أن يتعرف على رجال الصحافة فى بلده الذين أفسحوا له المجال فى الكتابة فى صحف طرابلس ٠

لم يقنع (رشيد رضا) بصحافة طرابلس لكى تكون سلاحا فتاكا ضد السلطان عبد الحميد ٠٠ وكان يحزن كثيرا لحال الأمة العربية والاسلامية وما أصابها من انحلال وجهل وتخلف حتى هبطت الى أسفل الدرك ٠

نفى محمد عبده فى بيروت

كان رشيد رضا ٠٠ حينئذ ٠٠ يطلب العلم فى طرابلس وتواترت اليه الأخبار التى عرف منها بأن الخديو توفيق قد قرر نفى الداعية المصرى

محمد عبده فى بيروت مدة بلغت خمس سنوات · قضاها هناك فى متابعة الاصلاح العقلى والدينى ، فاشتغل بالتأليف والتعليم ، وشرح نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان ·· متخذا رسالة المعلم الواسع الثقافة والأفق ·· وكان ان التقى هذا الشاب الطموح بالأستاذ الامام الذى تولاه بالتوعية والتعليم وقد هداه الى كتاب : احياء علوم الدين للغزالى لينهل منه ما يعمق ادراكه وعقله وكان الأستاذ الامام يكره الانجليز واذنابهم ، فلم يتورع من مهاجمتهم جهارا·· فانظر اليه وهو يتهجم على الخديو توفيق امام أحد محررى الصحف البريطانية فيقول :

(ان توفيق باشا أساء الينا أكبر اساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام)·

حركة اصلاحية فى مصر

انطلقت فى مصر حركة اصلاحية كبرى وترامت أبناء هذه الحركة الى رشيد رضا وكان من الطبيعى أن يلتقى بها وبرجالها وينهل من موردها ·· ثم يسعى بدوره فيها حتى وصل الى مراكز القيادة بها وشارك فى شعلتها·· ومما يجدر ذكره أن اثنين تولا زعامة هذه الحركة وهما: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده فأديا الرسالة على أكمل وجه ·

معهد الدراسات العليا

لقد جاء نزول جمال الدين الأفغانى أرض مصر فاتحة عهد عظيم فى يقظة الشرق ، فلقى تشجيعا وترحيبا بفكرة اقامته لمعهد الدراسات العليا لتخريج القادة وزعماء الاصلاح فى شتى الميادين ·

والحق أن تربة مصر كانت صالحة للاخصاب والحصاد ، بسبب ما بذله أبناء تلك البلاد منذ القرن التاسع عشر ، أى قبل مجىء جمال الدين الأفغانى الى مصر ، من مجهود وعناء فى تحصيلهم من مدنية أوربا وعلمها وثقافتها·· أخذ أبناء مصر ينقلون الى مواطنيهم ثمار تعارف الغرب عن طريق ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية فى شتى الفنون والمعارف ·· وخلقوا بالتالى، يقظة رائعة فى ميدان الثقافة العربية فحين دخل جمال الدين الأفغانى مصر، وجه عزيمته الى اكمال الرسالة التى بدأها قادة الطليعة فى تلك البلاد ·

عرف (رشيد رضا) كل ما كان يجرى فى مصر ، وهو مازال أديبا وصحفيا اسلاميا يعيش على مقالاته التى كان ينشرها فى الصحافة العربية فى لبنان ·· لهذا رأيناه يفرح ويهشى بجريدة العروة الوثقى التى أصدرها من باريس جمال الدين الأفغانى فى ١٣ مارس عام ١٨٨٤ كما عرف أسباب

اصدار هذه الجريدة ، وكيف كانت رسالتها من أجل النهوض بالعالمين العربى والاسلامى ، والعمل على القاهما من براثن الاستعمار وخاصة دخول الانجليز مصر بمساعدة الخديو توفيق ، وفشل الثورة العرابية ٠٠ الأمر الذى جعل عددها الأول يتصدر بذلك العرض الرائع الذى أغاظ الانجليز وأثار غضبهم ٠٠ يقول فى هذا العرض :

(ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق (أى احتلال انجلترا لمصر) ٠ جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاديين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة — أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف) ٠

لقد فطن من متابعة قراءة لسائر اعداد العروة الوثقى ، السبب الذى حمل رئيس تحرير تلك الجريدة على أن يخبئها ، ويضرب عليها طابع السرية التامة خشية أن تقع فى أيدى الاستعمار البريطانى الذى ظل يتربص بها ويقف لها بالمرصاد ومن ثم ، فقد فتحت هذه الجريدة أمام رشيد رضا آفاقا واسعة لم يكن يعرف عنها شيئا ٠٠ حتى يمكن القول أن الاعداد التى حصل عليها من العروة الوثقى كانت أشبه بالمعلم الذى علمه ما لم يكن يعلم والذى كان أشبه أيضا بعصى سحرية نقلته من الأفق الضيق فى قريته بالقلمون بلبنان الى الوطن الشاسع الأرجاء ٠٠ وطن العروبة والاسلام ٠

السفر الى مصر

ذهب (أديبنا الاسلامى) الى صديقه شكيب أرسلان وكان مقيما اذ ذاك فى بيروت ، وذلك ليخبره بما عزم عليه من السفر والهجرة الى مصر ، باعتباره من مريدى الشيخ محمد عبده ، وزعيما من زعماء الاصلاح فى الشام آنذاك ٠٠ قال الأمير شكيب أرسلان فى مذكراته :

(كنت نازلا فى فندق كوكب الشرق ، فى بيروت ، فتناول معى السيد رشيد رضا طعام الغداء وأسر الى قضية سفره الى مصر ، وأوصانى بكتمان الخبر لأنه يجوز ان الحكومة فى حالة معرفتها بالخبر أن تمنع الشيخ رشيد رضا من السفر ، فقد كنا فى عصر السلطان عبد الحميد لا نقدر على السياحة الى الخارج الا باذن ، وان كان الاذن متعذرا جدا أيضا ولما قارب ميعاد السفر بالغ رشيد رضا فى اخفاء نواياه فأعطى صندوق ثيابه الخاصة للشيخ (أبى النهى القاوقجى) حتى لا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر السفر ٠٠) ٠

ووصف رشيد رضا فى مذكراته ساعة مغادرته بيروت ، ساعة الخلاص من أسر السلطان عبد الحميد والانطلاق الى وطن الحرية قائلا :

(ولما حضرت الباخرة التى نزل فيها رفيقى من ميناء طرابلس الى بيروت ، نزالت اليها فى زورق مع الأستاذ الشيخ (صالح الرافعى) ناظر مدرسة النفوس وليس معنا شىء يدل على ارادتى على السفر ٠٠ وقد تساءل رجال الشحنة (البوليس) الذين يفتشون المسافرين عنى ، فقيل لهم هذا الضيف طرابلسى عند ناظر مدرسة النفوس يريد أن يتنزه فى البحر ولما استقرت قدمى فى الباخرة تنفست الصعداء ، وحمدت الله تعالى أن من على بالخروج من تلك البلاد وأنجانى من ذالك الوباء) ٠

ولا يفوتنا أن نذكر أن (رشيد رضا) كان يصحب فى رحلته السيد/ عبد الرحمن الكواكبى الذى شاركه الهجرة الى مصر كما تعاونا سويا فى مجال حركة الوعى والتعقيل التى كان ينشرها فى مجلة : المنار ٠

الرعيل الأول من الزعماء المصريين

ولئن كان (شيخنا) قد التقى فى مصر بنفر من أحرار وطنه ، فانه لاحظ أيضا ما تموج به البلاد من حركة وطنية ذات مظاهر سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ٠ وقد نهض بهذه الحركة أبناء مصر ، الذين أفاقوا سريعا من صدمة فشل الثورة العرابية وما تلاها من احتلال بريطانيا ٠٠ فقد استانف المصريون الجهاد فى عنف بالغ وكان على رأس هؤلاء الامام محمد عبده الذى نظر اليه الجميع نظرة الأستاذ الأكبر خليفة جمال الدين الأفغانى٠

ثم كان مصطفى كامل وخليفته محمد فريد ٠٠ ثم سعد زغلول ومكرم عبيد ٠

لقد حملوا جميعا راية الجهاد وجعلوا مصر ، نارا محرقة على الاستعمار وأعوانه فى البلاد ٠٠ فكان كفاحهم مشهودا فى التاريخ ٠

وصوله ميناء الأسكندرية :

رست الباخرة فى الأسكندرية مساء الجمعة ٣ يناير ١٨٩٨م ، وأقام الشيخ رشيد بضعة أيام فى المدينة ثم خرج فى رحلة استطلاعية الى الوجه البحرى فزار طنطا ، والمنصورة ، ودمياط حيث أقام فى كل منها بضعة أيام٠

وفى يوم السبت ٢٣ يناير سافر من طنطا الى القاهرة لكنه الم يطل به المقام فى القاهرة ، فذهب الى الأستاذ الامام فى داره بالناصرية ومعه صديقه الشيخ اسماعيل الحافظ ، ورفيقه الشيخ أبو النهى القاوقجى ٠

أن أهم ما نركز عليه الآن انما هو وقوف محمد عبده على مدى تحصيل تلميذه الشيخ رشيد رضا ، وما أفاده من قراءاته الواسعة فى شتى صنوف المعرفة خصوصا قراءاته لأحيـاء علوم الدين للغزالى حيث عرض فيه عن التفرقة بين علماء الدنيا الذين لقبهم بعلماء السوء ، والعلمـاء الآخرين ، كذلك حاول أن يستوضح منه ما أفاده من دراسته لجريدة العروة الوثقى، وأيضا الأسباب التى جعلت الاسلام يهبط ولا يواكب تقدم العصر الذى يعيش فيه ٠

لكن الشيخ رشيد رضا كان يكتم فى صدره أمنيته التى طالما تمناها وعاش يحلم بها فهى الحلم الذى أفنى عمره وأضاع جهاده فى سبيل الوصول اليه ٠٠

كان يحدوه الأمل أن يصنع مجلة لكى يكتب فيها كلمته الواعيه لتبصير الناس سواء السبيل ٠

والحق أن الأستاذ الامام أظهر اعجابه بشخصية رشيد رضا ومده بمدد كبير من خبراته ونفوذه فى جميع النواحى الخاصة بالمجلة من كتابة وطبع ونشر وتوزيع ٠

لقد أخذا يتجادلان حول المجلة وأهدافها واسمها حتى انتهيا بهما هذا الجدل الى تسميتها (بالمنار) .. كان هذا هو الاسم الذى قال به الأستاذ الامام ٠٠ الأمر الذى جعل رشيد رضا يوافق عليه فى الحال ٠٠ فقد كانت موافقته عن يقين واقتناع بأن هذا الأسم هو أحسن الأسماء وأنسبها خصوصا وانه ينطبق على مضمون المجلة وأهدافها فى النهاية ٠

صحيفة المنار

بدأ رشيد رضا جهاده فى ميدان الاصلاح عملاقا يبهر الأبصار بقوته الخارقة للعادة لقد صدر العدد الأول من المنار صحيفة أسبوعية ذات ثمانى صفحات ٠٠ وذلك فى ١٧ مارس عام ١٨٩٨م ٠

لقد حددت مقدمة العدد الأول الأغراض التى تسعى اليها هذه الجريده هى نشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، واقامة الحجة على الاسلام باعتباره نظاما دينيا ، لا يتنافر مع الظروف الحاضرة ٠

كذلك أوضح (رشيد رضا) أن الغرض من هذه الجريدة انما هو السير عـلى نهج العروة الوثقى وخاصـة فى سعيها للقضـاء على الخرافات والاعتقادات الدخيلة فى الاسلام٠ ومحور الأفكار الشائعة عن القضاء والقدر،

وما أدخل على العقائد من بدع الاعتقاد فى الأولياء ، وما يأتيه طرق المتصوفة من بدع وضلالات ·

ثم الحض على ترقية التعليم العام ، واصلاح كتب التدريس وطرائق التعليم ودفع الأمم الاسلاميـة الى مبـاراة الأمم الأخرى فى جميع الأمور الضرورية لتقدم الأمم ·

اعجاب محمد عبده بأسلوب رشيد رضا : أظهر الأستاذ الامام اعجابه بأسلوب (رشيد رضا) فى معالجة المقالات وخاصة ما جعله فيها بأسلوب المناظرة ·· لكنه قال له بعض النقد الخفيف الذى تقبله عن طيب خاطر ·· قال محمد عبده ·

(ان المنار) فى موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه الا الخواص ، فيجب أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه الى أفهام جميع القارئين حتى العوام) ·· لقد أخذ يقلل ، بعد ذلك ، من غريب اللفظ فى أسلوبه وكتاباته ·

كذلك كان للأستاذ الامام ملحوظة أخرى على جريدة (المنار) انما هى أن يبتعد (المنار) عن الخوض فى سياسة الدولة العثمانية لو قليلا ، وان يقتصر كلية على الاصلاح الدينى والاجتماعى ·

وقد وافق رشيد رضا على جميع توجيهات محمد عبده ·

لكن ما كادت السلطات العثمانية تسمع بصدور (المنار) حتى بادرت الى منع تداوله فى الأراضى التابعة لها ·· فأصدر (رشيد بك) والى بيروت أمرا بجمع العدد الثانى من السنة الأولى (للمنار) واحراقه ·

واضح أن (رشيد رضا) كان يسعى منذ الصبا الى تحقيق أمانيه وهى أن يرى الشرق وقد أشرقت عليه شمس الحرية والحضارة والتقدم ·· يراه وقد تحرر من العثمـانيين والانجليز والفرنسيين ·· وذلك عن طريق الصحافة والخطابة والمناظرة ·

ومن أجل هذا كان فرحا بجريدة (المنـار) لأنها كانت تمثل ثمرة شبابه وكفاحه ·· كان يضمنها أفكاره فى الاصلاح الدينى والاجتماعى ·· وايقاظه للنواحى العلمية والسياسية حتى استطاعت هذه الجريدة فى مدة وجيزة أن تصبح (الجريدة) الشرعية الاسلامية الأولى فى العالم الاسلامى·

عبقرية العقاد

العبقرية عندى ، لا تعـدو أن تكون مجهودا موصولا لا يتوقف الا بالموت ٠٠ ولقد كانت حياة « العقاد » جهادا مستمرا لا يتوقف عند حد وانما ظل دائما هكذا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ٠

ولد (عباس محمود العقاد)فى التامن والعشرين من يونيو عام ١٨٨٩٠ من ثم ، كانت والدته تقول : (لقد وضعته قبل نهاية الشهر ما ينتهى بيومين اثنين) فلا غرابة ، اذا كان (العقاد) يحتفل بيوم ميلاده فى الثامن والعشرين من يونيو من كل عام ٠

ولد « أديبنا الكبير»فى مدينة أسوان ٠٠ فى بيت من بيوتها العريقة٠٠ كانت والدته تمتاز بالمثابرة وشدة البأس فى معاملة أهل المنزل ٠٠ وكان « العقاد » شديد العطف عليها ، فكان يرسل اليها راتبا شهريا يوازى ثلث ما يتقاضاه من صحيفته التى كان يعمل بها ٠٠ فكانت تنفق جزءا منه وتدخر الباقى حتى استطاعت أن تشترى بما ادخرته (العقار) الذى حول منزلها الصغير الذى تركه زوجها ٠

فى المدرسة

فى حياة (العقاد) مدرستان : مدرسة التعليم الابتدائى من ناحية، ومدرسة الحياة من ناحية أخرى كان يتلقى التعليم على أيدى أساتذة معينين فى المدرسة الابتدائية قد فرضتهم الحكومة ليتلقى عليهم ٠٠ أما المدرسة الثانية فقد اختار فيها أساتذته بنفسه فلم يفرضوا عليه وانما كانوا جميعا من المؤلفين المشهورين الذى كان يقرأ لهم ما يشاء وانى شاء ، حسب رغبته هو ٠

وجدير بالذكر أن مواهب « أستاذنا الكبير » قد برزت وذاع اسمه

بين التلاميذ والمدرسين • وكان الشيخ (فخر الدين الدشناوى) مدرس اللغة العربية أكثر المدرسين اهتماما به •• وكانت أسوان حينئذ محط أنظار الزوار من عظماء القوم فى مصر وفى العالم •

ومما يذكر أن الزعيم (مصطفى كامل) زار المدرسة شتاء أحد الأعوام، ودخل أحد الفصول وكتب على السبورة هذا البيت من لاميــة الطغرائى الطغرائى :

والمــرء ان لم تفــد نفعاً اقامته
غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يزل

وطلب أستاذ اللغة من العقاد أن يشرح له البيت فقام وأخذ يشرح البيت ويستفيض حتى نال اعجاب الزعيم مصطفى كامل •

فى الوظــائف

اشتغل (العقاد) بوظائف الحكومة،وبالتدريس فى المدارس الأهلية•• ولكن لم يطل به المقام فى أى منهما •• فقد نظر الى وظائف الحكومة على انها قيد وخضوع ووظائف التدريس على انها فوضى وخنوع •

لقد بدأ عمله فى وظائف الحكومة بقلم (القيد) بمديرية الفيوم •• كان يتسلم عمل القيد بدفتر الصادر •• وحدث أن أرسل اليه البريد فى وقت متأخر ـ فلم يستطع قيده وارساله فى المواعيد المقررة للعمل ، كان يرد اليه البريد قبيل انصراف الموظفين ، فيضطر الى البقاء بعد الموظفين بساعة أو بساعتين ، فضلا عن المجهود الذى يحتاجه انجاز العمل فى ذلك الوقت المتأخر •• وقد احتج العقاد كثيرا وشكا كثيرا •• لكن لم يسمع احتجاجه ولم تقبل شكواه فلم يجد بدا من ترك العمل والاستقالة •

ويبدو أن العقاد بتصرفه على هذا النحو ، كان أول موظف يستقيل من الوظائف الحكومية فى هذا الزمن • ثم اشتغل العقاد بعد ذلك ، فى وزارة الأوقاف ، وكان ذلك فى الفترة بين ١٩١٢ ١٩١٤ الكنه سرعان ما استقال من وظيفته •

وقضى العقاد فترة فى أسوان بعد هذه السلسلة من الاستقالات «كانت هذه الفترة على حد تعبيره موسما خصبا حافلا بالثمرات : (فقد انتهيت من كتاب ساعات بين الكتب فى خمسمائة صفحة ، وقمت بتأليف كتاب يضم أهم مذاهب الفكر الحديث أولها:مذهب داروين ومذهب نيتشه فى السوبرمان، كذلك فرغت من كتاب عن المرأة سميته « الانسان الثانى » •

في التدريس

لقد عاد العقاد الى القاهرة ليشتغل بوظائف التدريس ومعه صديقه عبد القادر المازنى ٠ويحكى أن التلاميذ كانا يطلقون على العقاد اسم (حرحور) تشبيها بالكاهن المصرى المعروف فى تاريخ قدماء المصريين ٠٠ وذلك لانفراده وصمته وانصرافه الى عالم الخفايا والأسرار ، كما أطلقوا على ابراهيم عبد القادر المازنى اسم (تيمورلنك) لشدته وعرج فى قدمه قد أصابه ٠

لكن سرعان ما استقال العقاد والمازنى من المدرسة الاعدادية ، وهما لا يملكان ما يقيم أودهما ، الأمر الذى جعل صديقهما عبد الرحمن شكرى يغضب منهما ويثور عليهما :، فكيف يفعلان ذلك وهما فى حال من العسر والفاقة ٠

ولئن كان (القعاد) لم يفلح فى وظيفة موظف حكومة بأحد الدواوين٠ ولم ينجح كمدرس باحدى المدارس ، الا أنه استطاع أن يكون ناظر مدرسة ناجح ٠٠ كان ناظرا لمدرسة المواساة بأسوان وقد أفلح فى قيادتها ٠٠ فكان هو الناظر وصاحب الأمر والنهى فى المدرسة ٠ لكن تصادف أن أقام (العقاد) حفلا كبيرا ، دعا اليه مدير المديرية ، وكان رجلا متعجرفا ، مغرورا فلم يقبل دعوته ولم يعتذر عن الحضور الأمر الذى أثار العقاد وجعله غاضبا لمسلكه القبيح ٠ ولعل هذا ما جعل أحد الوشاة يشى به لدى المدير وكان رد فعل ذلك انما هو صدور أمره العسكرى بأن يلازم العقاد بيته وأن يكون تحت المراقبة ذلك لأن الحادث وقع ابان الحرب العالمية الأولى وكان المدير حاكما عسكريا ٠

العقاد والتجديد

انتقل الشعر فى القرن السابع والثامن من الهجرة الى نوع من الصناعة، ظهر فيه أثر التكلف الذى تسوق اليه الرغبة فى الترصيع والتنميق جريا وراء مقتضيات فن البديع ، فكثير من الشعر ملىء بالسجع والجناس والتورية، وما الى ذلك ٠٠ فكان كل هم الشعراء الذين ظهروا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن يعيدو الى الشعر مكانته الأولى فى عصر الاسلام والعصر العباسى فلجأوا الى أشعار المتقدمين يحومون حولها وينظمون أشعارهم فى ضوئها حتى بلغوا مقصدهم فى هذا السبيل ، فرأينا ديباجة أبى فراس تظهر فى شعر (البارودى) وديباجة البحترى وأبى تمام تظهر فى شعر على الجارم ٠

وقد كتب (العقاد) على قصيدة لحافظ ابراهيم فى صحيفة الدستور عام ١٩٠٩ فقال ما خلاصته (أن الشاعر قد أخذ قطعة من الحرير وقطعة من

الكتان وقطعة من الصوف ، فكل منها صلح لصنع كساء فاخر من نسجه ونونه .. لكنها اذا جمعت على كساء واحد فنلك هى مرقعة الدراويش » .

كان (العقاد) وزميله المازنى على حق حين انبريا يهاجمان شعر المحاكاة ، ومن هنا ظهر فى جو الأدب روح جديدة قوامها ثلاثة شعراء هم عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى .

جماعة الديوان (١)

فى الامكان أن نطلق على شكرى والعقاد والمازنى جماعة الديوان نسبة الى الكتاب النقدى الذى أصدره العقاد والمازنى عام ١٩٢١ .

وليست جماعة الديوان هذه نزعة فردية تبرز فى الحياة الأدبية ثم تتلاشى ولكنها كانت طليعة جيل جديد ، غير جيل شوقى وحافظ ومطران.. جيل ينشد قيما جديدة ويتطلع الى معان جديدة .. والحق أن هذا الجيل كان متسلحا بالثقافة العربيــة واسع الأفق متفتحا للجديد . وقد وصف (العقاد) هذا الجيل وبين تأثره ومنابع ثقافته بقوله : (فالجيل الذى نشأ بعد سوقى لم يتأثر به أقل تأثر لا من حيث اللغة ولا من حيث الروح ، بل كان الأصح أن شوقيا تأثر بمن نشأوا بعده فجنح فى أخريات حياته الى أغراض من النظم تألف أغراضه الأولى التى كان يعيبها عليه الجيل الناشىء فى أوائل القرن العشرين ، فاتجه الى الروايات وأكثر من الاجتمــاعيات والتاريخيات ، وعدل أو كاد عن شعر المناسبات الضيقة الذى كان ينحصر فيه وقلما يتعداه ، أما اللغة فلم يتأثر فيها الجيل الناشىء بشعر شوقى لأن هذا الجيل كان يقرأ دواوين الأقدمين فيدرسها ويعجب بها ... وذلك مثل المتنبى والمعرى وابن الرومى والشريف الرضى أحمد بن يس وابن زيدون .. ان هذا الجيل كان لا يختلف الا فى الأداء والعبارة لأنه متفق فى ادراك معنى الشعر ومعاييره ونقده» .

الشعر العربى والشعر الانجليزى (٢)

انظر اليه وهو يعقد مقارنة بين طبيعة الشعر العربى وطبيعة الشعر الانجليزى فيقول : (شعر العرب منبت مقصور على أمة واحدة وأن شعر الانجليز شعر متفتح الجوانب متصل بحياة الأمم الأخرى) ثم يواصل حديثه

---

(١) كتاب حماعة ابولو للدكتور عبد العزيز الدسوقى .
(٢) ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد ص ٣٤٤ .

فى هذا الصدد فيقول : (ومن الفروق الواضحة بين الشعر العربى والشعر الانجليزى ان أولهما يدور أكثره على الحس وثانيهما يدور أكثره على العطف والخيال ، فالشاعر العربى يصف امرأة لها سمات جسدية من الفرع الى القدم تقاس وتكال ٠٠ أما العاشق الانجليزى فيصف المرأة التى يحبها كأنها روح عاطف له ثوب من الجسد جميل والشاعر العربى يعنى بالصورة الحسية المحسوسة دون الصور الباطنية ٠ ويريك الهلال منجلا والقمر درهمافضيا ولا يحكى لك وقع هذه الأشياء فى النفس ٠٠ ولولا ابن الرومى لخلا الشعر العربى من ملكة التصوير العالية وتشبيهاته الخيالية الرفيعة ٠ ومن الفروق بين الشعرين أن الفردية غالبة على الشعر العربى والاجتماعية ، غالبة على شعر الانجليز٠٠فالعواطف التى فى الشعر العربى هى العواطف البسيطة٠ الساذجة ٠٠ولعل ظهور الروايات التمثيليةوالقصصيا فى الأدبالانجليزى وامتناعها فى الأدب العربى ، ربما جاءت منه أيضا سذاجة المدح العربى التى لاتشبهها سذاجة فى الآداب الأوربية ٠

وتحت عنوان تمثال النهضة (١) يحدثنا « أستاذنا » عن كيف يقاس حجم رقى الأمم بمقياس الكماليات قبل الضروريات ٠٠ « تمثال نهضة مصر أول عنوان يقرأه العابر فى ميادين القاهرة من كتاب نهضتنا الفنية ، وقد كان العابر فى هذه العاصمة لا يقع على رمز واحد لروح مصر الحديثة ٠٠ فاليوم يتصل ما بين مصر الحديثة ومنف القديمة ، ويتقارب ما بين أبى الهول الرابض وأبى الهول الناهض ، وتنطلق صخور مصر مرة أخرى بما أفاضته عليها روح مصر ماضيها العريق وحاضرها المأمول ٠ هذه هى القيمة الكبرى التمثال النهضة الذى أنجزه الأستاذ محمود مختار فهو عنوان مشهور لشىء فى مصر غير المعدة والمحراث » ٠٠ ثم يحدثنا عن البطولة (٢) فهو بادىء ذى بدء يتساءل من هو البطل ؟ ويجيب على هذا السؤال فيقول :

(ان الرجال الذين يخافون على اممهم الذل ويرجون لها العزة ، أو الذين يخافون على العالم قاطبة أن يرين عليه الرجس ويرجون له الخلاص والرفعة ، أو يخافون عليه الظلام ويرجون اله النور والمعرفة ٠ أن هؤلاء الذين يخافون ذلك الخوف ويرجون ذلك الرجاء ثم يثبتون على محنة المطامع والآلام أعواما طوالا ٠٠ ولا ينسون الأمة والعالم فى مأزق الهول ومدارج الغواية ، أولئك هم عظماء الأبطال فى تاريخ بنى الانسان وأولئك هم شرف الآدمية وعزاء الحياة والمعنى الذى تطيب من أجله الأرض وتنظر من صوبه السماء ومن هؤلاء كان سعد زغلول) ٠

---

(١) ساعات بن الكتب لعباس محمود العقاد ص ٣٣٦ ٠

(٢) البطولة مستوحاة من ذكرى سعد ص ٢٠٣ من كتاب ساعات بين الكتب ٠

قصة سارة

وللعقاد (تجربة عاطفية) ، انها تجربة حب ، عاناها (العقاد) فى صدر شبابه واستطاع تكثيفها فى قالب قصصى ٠٠ انها قصة (سارة) وهى قصة الحب التى دارت بين العقاد وسارة ٠ وأعظم تعبير لهذه القصة ٠ انه شعر التعبير عن (الانتظار اللا مجدى) فقد ظل (البطل) ينتظر (البطلة) ويطول انتظاره حتى تمدد الزمن فراح يحسب الدقيقة عنده دهرا وذلك خلال هذا الموقف المتوتر المشدود ٠

وهنا نستطيع أن نفطن الى طبيعة «الزمن السيكولوجى» ٠٠ الزمن الذى يجعلنا نشعر بحجمه ، سواء كان زمنا ممدودا أم قصيرا وذلك وفقا للحالة النفسية التى تكون عليها ٠

وجود الله

فى كتاب : « حياة قلم » لعباس محمود العقاد وفى الفصل الحادى عشر وهو بعنوان : دين وفلسفة يحدثنا (أستاذنا الكبير) عن وجود الله فيقول :

فى رأينا أن مسألة وجود الله مسألة (وعى) قبل كل شيء٠٠ فالانسان له وعى بقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ٠

والوعى والعقل لا يتناقضان ٠٠ ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التى استدل بها الفلاسفة على وجود الله٠٠ولكننا نلتقى هنا بأشيعها واجمعها الى التواتر والقبول وهى : برهان الخلق ، وبرهان الغاية٠وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير » ٠

ومن الموضوعات التى كتب فيها العقاد بروعة فائقة موضوع العبقريات حيث يتناول فيها سير الأنبياء والزعماء والقادة بالتفصيل والقاء الضوء على مغزى كل شخصية ٠ وكيف كانت فى حياتها شخصية فذة فريدة ٠

اننا لا نستطيع أن نعرض لكل شخصية من شخصيات العبقريات وذلك لضيق المقام هنا وحسبنا أن نعرض العبقرية محمد ٠

عبقرية محمد

ليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو مجادلة لخصومه انما الكتاب تقدير (لعبقرية محمد) بالمقدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقيدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس٠٠عظيم لأنه على خلق٠عظيم٠٠ انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله ٠

ولم تكن أصنام كأصنام يونان التى تمتاز بالذوق والجمال ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التى تفسد الأذواق وتفسد العقول فنقلهن محمد الى عبادة الحق الأعلى ٠٠ عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه ٠٠ ونقل العالم كله من ركود الى حركة ، ومن فوضى الى نظـام ، ومن مهانة حيوانية الى كرامة انسانية ٠٠ ان عمله هذا لكاف لتحويله المكان الأسنى بين صفوة الاخيار الخالدين ٠

فاذا رجح بمحمد ميزان العبقرية وميزان العمل وميزان العقيدة فهو نبى عظيم وبطل وانسان عظيم ٠

ويضم كتاب محمد الموضوعات التالية :

١ ـ علامات مولد

٢ ـ عبقرية الراعى

٢ ـ عبقرية محمد العسكرية

٤ ـ عبقرية محمد السياسية

٥ ـ عبقرية محمد الادارية

٦ ـ البليغ

٧ ــ محمد الصديق
٨ ــ محمد الرئيس
٩ ــ الزوج
١٠ ــ الأب
١١ ــ السيد
١٢ ــ العابد
١٣ ــ الرجل
١٤ ــ محمد والتاريخ

١ ــ علامات مولد :

بين هذه الدول المتداعية ٠ أمة ليست بذات دولة ٠ ولكنها تتأهب لاقامة دولة هى أمة العرب ٠٠ وقد تيقظت الوجودها وشعرت بمكانتها ٠٠ فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم فهى تسير فى حراس من العرب ٠٠ واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام فهى فى حراسة الأعراب ٠٠ انهـا أمة رأت هؤلاء المحيطين بهـا يجرون عليها لاخضاعها وابتلاعها ٠٠ انه عالم يتطلع الى نبى ، وأمة تتطلع الى نبى ومدينة تتطلع الى نبى ، ثم ها هــو انسان نبيل عــريق النسب فقير يتيم خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحضر ٠٠ تربى فى الصحراء، وألف المدينة ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والاخلاف ٠٠ انه محمد بن عبد الله عليه السلام ٠٠ قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة وقالت حقائق التاريخ ٠٠ لقد كان محمد هو صاحب هذه الرسالة ٠

٢ ــ عبقرية الراعى :

كانت لمحمد فصاحة اللسان ، واللغة ، وكانت اله القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة وكانت له قوة الايمان بدعونه على نجاحها ٠٠ كان محمد فصيحا وفصاحته فى نطقه ٠٠ فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم٠٠ كان جامعا للمحبة والثقة ، وكان مشهورا بصداقته ، وأمانته ، كاشتهاره بوسامته ٠

٣ ــ عبقرية محمد العسكرية :

لم ينجح الاسلام لأنه دين قتال كما يردد اعداؤه المغرضون ولكنه

نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ·· لم يجتنب محمد الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف ، ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرته الى ضرورة بغيضة يلجأ اليها ولا حيلة له فى اجتنابها ·· لم يكن الاسلام دين قتال ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب ولكنه كان مع هذا نعم القائد البصير ··

٤ ـ عبقرية محمد السياسية :

هكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الأمور اذ دعا المسلمين وغير المسلمين الى مصاحبته فى رحلته ·

فى عهد الحديبية تجلى تدبيره فى سياسة خصومه وسياسة اتباعه ، وفى الاعتماد على المسلم والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة، ولا تصلح العهود ·· ولقد أفسد على قريش ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام بما أدعوا عليه قطعه للأرزاق ، فها هو محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام فاذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون اليه فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه ·· ولا وزر فيما أصاب الارزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين ·

ويواصل (أديبنا الكبير) عرض عبقريات الرسول فلا يفوته أن يعرض لبقية أبعاد شخصية كعبقرية محمد الادارية ، فهو يعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملة شخصية تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين أو مؤديا لغير رسالة من سائر أعمال الانسان ·· أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام وتعرف الاختصاص بالعمل ·

وقد كانت هذه السليقة فى محمد عليه السلام كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل ، وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة وهما :

الكفاءة والحب · وقد كانت أوامر الاسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ولكنه لم يترك أحدا يدعى لنفسه حقا فى اقامة الحدود واكراه الناس على طاعة الأوامر واجتناب غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس ·

ولما أراد أن يصادر الخمر نهج فى ذلك نهجا يقصد به الى التعليم والاستئنان فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين ·· ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغى أن تكون فى يد ولى للمسلمين لا فى يد فرد

يعرف الحلال والحرام . وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل وكلها مسألة ادارة وتنفيذ فى مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والاهواء .

٦ ـ (اللهم هل بلغت) :

كانت حياة الرسول بعملها وقولها وحركتها وسكونها الا حياة سعى وبلاغ .. وواضح أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الابلاغ قبل كل سمة أخرى .

ان أسلوب النبى ـ كتابة أو خطابة ـ أسلوب عصرى .. ذلك لأن الأسلوب الذى يخرج الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور .

٧ ـ محمد الصديق :

اذا كان الرجل محبا للناس ، أهلا لحبهم اياه فقد تمت له الصداقة من طرفيها . وانما تتم الصداقة . بالعاطفة الحية . والذوق السليم والخلق المتين وقد كان محمد فى هذه الخصال مثلا عاليا بين صفوة خلق الله .. كان عطوفا يرام من حوله ويودهم .. كان صبيا فى الثانية عشرة من عمره يوم سافر مع عمه فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فى سفره .. كان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينس أفضالها عليه .. واننا نلمس العطف الانسانى الشامل فى معاملته لأعدائه فما ثأر من أحد أساء اليه فى شخصه ، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو نائم . وما حارب أحدا كان فى وسعه أن يسالمه ويتقى شره .. ومعاملته لعبد الله ابن أبى الذى كان المسلمون يسمونه رأس النفاق دليل على الصفح الحسن والعفو .

ويعلق العقاد على هذه النفس الكبيرة وكيف استهجنها بعض المؤرخين الاوربيين فنراه يقول (هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على السنة بعض المؤرخين الأوربيين) .

٨ ـ محمد الرئيس :

ان محمدا الرئيس الأكبر لمرؤوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان . فهناك الحكم بسلطان الدنيا .

وهناك الحكم بسلطان الآخرة

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة

كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق فى رعاياه .. وكان

له من سلطـان الآخرة كل ما للنبى الـذى يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون وكان له من سلطان الكفاءة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفء وأوقر مهيب ولكنه لم يشأ الا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر بسلطان الحب والرضا والاختيار ·· كان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتبـاعه ·· ويعلق الأستاذ العقاد عـلى ذلك فيقول (واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها فهذا الذى يحسبونه كشفا من كشوف العصر قد جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنا وشرعه لأمته فى أحاديثه حين قال عليه السلام· (ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) ·

لقد كانت الرئاسة عند محمد هى سنة الصداقة والحب ·

٩ ــ الزواج :

كانت المرأة قبل الاسلام تدفن فى مهدها فرارا من عار وجودها ، فأصبحت بذلك انسانا ينال العقاب من ينالها ، بمكروه ·· ماذا صنعت رسالة محمد ؟

لقد طلب من المسلم باحسان معاشرتها ، وأباح لها الدين فى الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) وجعل محمد يعرض على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها فى المنظر الذى يروقها ·

١٠ ــ الأب :

محمد الأب كان أصلح الآباء فقد فجع فى بيته فجيعة لا يدارى فيها ألم انسان الا صبر الأنبياء ·· فقد مات فى هذه الفترة كل أولاده ·· مات « القاسم » و « الطاهر » طفلين ، وماتت « زينب » و « رقية » و « أم كلثوم» ·

١١ ــ السيد :

كان يكره أن تقبل يداه مخافة أن تجرى العادة بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع وقال أبو هريرة رضى الله عنه : (دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويله ، وقال للوزان : زن وأرجح فوثب الوزان الى يد رسول الله يقبلها فجذب يده وقال هذه تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك انمـا أنا رجل منكم ·· ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال : (صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله) ·

١٢ ـ العابد :

طبيعة العبادة وطبيعة التفكير وطبيعة التعبير وطبيعة العمل والحركة كانت طبيعة تهيوء للعبادة فقد نشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه ونعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار والنظر الى ما حوله بعين الناقد المرفع عن الدنايا الجانح الى الطهر واستقامة الضمير ٠

كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين أو عجبا من بدائع الكون فما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت أمام عينيه ٠٠ دهشة لا تعد لها دهشة ٠٠ أن محمدا باعث الايمان الى القلوب ٠٠ لقد كان يجدد ايمانه وكان يدعو الله فيقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) لقد بيره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء ، وجمال الوجوه التى يلمح فيها الحسن فيطلب عندها الخير ومن الواجب أن نذكر أن محمدا نبى وأن النبى يعلم جميع الناس الايمان فهو يفتح للناس أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد حتى لا يضلون فى تيه الشكوك والمتناقضات ٠

١٣ ـ الرجل :

ان محمدا فى المقام الأول بين الرجال : فى المقام الأول بخلقته ٠٠ فى المقام الأول بنيته وفى المقام الأول بعمله ٠٠ لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا خاصا لأحد على كراهتها ٠

١٤ ـ محمد فى التاريخ :

الحق أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وان قوة محمد قوة ايمان لقد جاءه سيد قومه (ابن ربيعة) فقال له ملاطفا : « يا ابن أخى ان كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالا ، وان كنت تريد شرفا آزرناك علينا » ٠ فما كان من النبى الا أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ٠

وبعد ، فهذا قليل من كثير مما أحزرته قريحة الأستاذ (عباس محمود العقاد) فما أشبه شخصيته بالموسوعة الجامعة للمعارف والثقافات ٠

فحسبنا أن نعرض تلك القطرة التى استقطرناها من محيط معرفته وثقافته ٠

محمد كامل حسين الأديب المفكر

● ولد عام ١٩٠١ وهو ينتمى الى أسرة علمية كان شغلها الشاغل تذوق ودراسة اللغة والأدب الأمر الذى جعله يتطبع بمؤثرات بيئته الثقافية٠

● التحق بكلية الطب عام ١٩١٧ وتخرج عام ١٩٢٣ بتقدير ممتاز كطبيب متخصص فى جراحة العظام وحصل على زمالة كلية الجراحين بانجلتراء وماجستير جراحة العظام من ليفربول عام ١٩٣٠ ٠

● عين أستاذا لجراحة العظام بكلية الطب ـ قصر عينى عام ١٩٤٠، كما عين مديرا لجامعة عين شمس عام ١٩٥٠ ويعمل مستشارا لمستشفى الهلال الأحمر منذ عام ١٩٣٧ حتى الآن ٠ أنشأ أول قسم لجراحة العظام فى الجامعات تخرج فيه الكثيرون ٠

● نشر له العديد من البحوث التى تتميز بالدقة والأصالة والابتكار فى مجال الجراحة ، كما ألقى بعضها فى المحافل الدولية منها هيئة الأمم ، وجمعية التفاهم فى أمريكا ، ومؤتمر السلام اليونسكو الذى عقد فى جنيف عام ١٩٧٤ ، وكانت له محاضرات فى كنيسة القديسيين بالقاهرة ٠٠ وأغلب هذه المحاضرات تدور حول بعض المبادىء الكبرى فى الاسلام ومنها التقوى والسلام والرحمة ، ناظرا الى القرآن الكريم ككتاب هداية ، وقيم وأخلاق، مستجليا التفكير الاسلامى بطريقة عصرية ترقى الى مستوى الأذهان فى كل الأمم ٠٠

● تضمنت بحوثه بحثا فى معرفة قدماء المصريين لعملية فتح القصبه الهوائية ، وفى بحث آخر أثبت فيه معرفة القدماء المصريين لرد خلع مفصل الكتف بطريقة (كوخر) ، كما نشرت له مجلة المخطوطات الصادرة عن الجامعة العربية « دراسة تحليلية لطب الرازى » وفيها اثبات لتفوق الرازى فى العلوم الاكلينيكية ، وشرح لأسلوبه فى التدوين والاستنتاج ٠ كما نشرت له مجلة (الجمعية الطبية المصرية) (تاريخ الطب عند العرب) ٠

● نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عن روايته الرائعة : (قرية ظالمة) فى عام ١٩٥٧ · كما نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم عام ١٩٦٥ ، ومعروف أن « قرية ظالمة » ترجمت الى الانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية والأسبانية · وتقتبس الاذاعة البريطانية مقتطفات منها وتذيعها بالانجليزية فى « عيد الفصح » ·

● ومن كتبه القيمة كتاب « وحدة المعرفة » حيث يتضمن نظريته التى تجعل العلوم الطبيعية وقوانينها أساسا وتجعل القوانين البيولوجية امتدادا لقوانين العلوم الطبيعية وتجعل الانسانيات امتدادا للقوانين البيولوجية ، وتجعل الميتافيزيقا امتدادا للانسانيات ·· كما الف كتاب « متنوعات » ويشمل جزئين ·· الجزء الأول يحتوى على أقدم رسالة علمية فى التاريخ وهى عبارة عن دراسات تتعلق كلها ببردية « أودين سميث » ، وقد بين فيها الدكتور محمد كامل حسين الأخطاء التى وقع فيها الشراح المحدثون فى تشخيص عدد الحالات المذكورة فى الرسالة ، كما استنتج أن تكون الرسالة قد كتبت أثناء بناء الاهرام ، لما فيها من خبرة منقطعة النظير باصابات الوقوع من ارتفاع عال ، كما قارن سيادته فى هذا الكتاب بين الرسالة وبين مقالة « أبو قراط » عن الاصابات ، كما نوه بتفوق الطبيب المصرى القديم ، كما شرح ما كان عند قدماء المصريين من علم بالتشريح ، والنبض ، والأمراض والعلاج · أما الجزء الثانى من كتاب « متنوعات » فتناول نظراته فى العلوم اللغوية والآداب والفنون ·

● قام بمراجعة الترجمة الانجليزية لكتاب « ابن سينا » ·

● من مؤلفاته كتاب (الوادى المقدس) ، وكتاب « ذكر الحكيم » وكتاب التحليل البيولوجى للتاريخ » ·

● وهو عضو فى المجمع اللغوى ، ومن رواد حركة التجديد فى اللغة العربية ، وله دراسة عميقة تتضمن خلق نحو جديد ، وقواعد محددة لا تتعدى ستة أسطر ·

● لم يتزوج ·

هو العالم ، المفكر ، الاديب « الدكتور محمد كامل حسين » الذى يمتاز بسعة مداركه ، وبنظرته الشمولية المتكاملة لشتى صنوف المعرفة ، وهو صاحب أنظار فى العلوم وفى الطب وفى الدين ، وفى الفلسفة ، وفى النفس ، وفى الأدب ، وفى اللغة العربية وعلومها ·· ففى كل هذه المجالات كانت نظرته عصرية جديدة ، تواكب روح العصر ، وتكشف عن تراثنا وما يحمله فى جوفه من أصالة وفائدة ، ومدد نحتاج اليه فى حاضرنا ·

كان أول ما صادفه في بحوثه الغزيرة العديدة من مشاكل ، مشكلة الأسلوب ‥ فقد أدرك أن اللغة العربية غير قادرة على ملاحقة أفكار العصر، ووقائعه وأحداثه ، ومن ثم ، راح يضع اللغة العربية تحت مجهر الدرس لكى يستجلى مواطن قوتها ، وأسباب تعويقها وجمودها . لقد اكتشف أن الداء يكمن فى تلك الفرقة التى تفصل بين تفكيرنا ، ولغتنا ، ولقد رأى أن ذلك لم يرجع الى صعوبة اللغة أو عدم مرونتها ، وانما كانت الصعوبة فى رأيه تتمثل فى صعوبة علوم اللغة وليست اللغة ذاتها ‥ فاللغة شيء، وعلوم اللغة شيء آخر ، فكان الدكتور محمد كامل حسين من رواد الداعين الى معالجة اللغة فى ضوء علوم حديثة، بحيث ننأى بعيدا عن علومها القديمة . فبـذلك يمكن أن تستقيم اللغـة وتلين للتعبير عن أفكارنا وأحاسيسنا وتصوراتنا .

ويوضح الدكتور محمد كامل حسين وجهة نظره هذه بأمثلة عديدة ساقها الينا فى كتابه : (متنوعات الجزء الثانى صفحة ١٧٥ فيقول : أن الطب الحديث لم يقم على تبسيط نظريات الطب القديمة ، وانما تقدم الطب حين طرح ذلك كله جانبا ، وبدأ الناس علمهم من جديد . ولم يتقدم علم الفلك بتبسيط نظرية الدوائر ، أو حذف بعضها ، وانما تقدم علم الفلك حين نبذ الناس ليبدأوا علما جديدا .

وكذلك علوم اللغة ، لن تصبح مقبولة عندنا بالحذف أو التبسيط ، وانما يكون بالبحث من جديد فى المادة اللغوية وتحليلها تحليلا جديدا‥ والواقع أن المحدثين يقفن من علوم اللغة أحد مواقف ثلاثة : اما أن يجهلوها تمـاما وهو نقص كبير واما أن يعرفوا منهـا القدر الذى يتنـدرون به ويسخرون منه وهو عيب ، واما أن يعلموها حـق العلم وهو عنـده شر المواقف الثلاثة وأشدها خطرا ‥ أما درسها على انها علوم قديمة فهو ما لا نقره ‥ ذلك أن عقلية العلوم التى نشأت فى القرون الوسطى ، عقلية لها أصل فى طبيعة الناس وخاصة فى شبابهم،ومن الخطر على تفكير الشباب تنشأ فيهم هذه العقلية ، فذلك يحجب عنهم عقلية العلوم الحديثة التى تنكر هذه الأصول القديمة ‥ فالطب القديم ، والفلك والكيمياء فيها علم غزير، ولكن مجموعة هذه العلوم لا تتفق فى كثير أو قليل من العلم الحديث ‥ فمثلا الكيمياء القديمة كانت منطقية تماما وهى مع ذلك ، كلها خطأ ‥ ألم يقولوا أن الفضة باردة يابسة فى الخارج ، حارة رطبة فى الداخل ، وأن الذهب حار رطب فى الخارج ، بارد يابس فى الداخل ، فاذا أبطنت برودة الفضة ، وأخرجت حراراتها ورطوبتها صارت ذهبا ‥ كل العلوم القديمة منطقية ، لكن العيب فيها أو منطقها يقوم على فروض لا أصل لها. كذلك فروض علماء اللغة تجعل اللغة منطقية ولكنها لاتكون غير صحيحة‥ ويرى أستاذنا أن أكبر حدث فى تاريخ اللغة العربية كان نزول القرآن

الكريم . حتى بلغت اللغة العربية أوج مجدها وتمام نموها ، وعرفت أرفع أساليبها . ولعل اللغة العربية تكون هي اللغة الفريدة الوحيدة بين اللغات الكبرى التى تم نموها وازدهارها على هذا النحو ٠٠ ويرى ناقدنا الكبير أن اللغات لا تقاس بعدد ألفاظها ، أو بصعوبة علومها وانما يقاس غناها بما أخرج أهلها من علم وأدب وفى هذا الصدد ، يستشهد الدكتور محمد كامل حسين بقول « فولتير » الذى كان مدحه للغة العربية بما يشبه الذم حيث يقول : (أن اللغة العربية تصويرية (   ) ذلك لأنهم ظلوا آلف سنة يقولون عن عين المرأة كعين الظبى) ولم يفت على أستاذنا الكبير أن يرد على هذا النقد المغرض للغتنا فيقول : (أن الأدب الفرنسى ظل آلف سنة يدور حول امرأة تخون رجلا ، ورجل يخون امرأة)٠ان الدكتور محمد كامل حسين يروعه موقف المحدثين الذين لم يستطيعو أن يفهموا روائع النتاج الأدبى العربى كنتاج الجاحظ والمعرى ٠٠ كذلك يشير هذا « الفقيه الكبير » الى حقيقة هامة فى تاريخ اللغة العربية ، وهى أن اللغة تحولت من الغة وسيلتها الوحيدة السماع ، الى لغة وسيلتها الكبرى القراءة ٠٠ فعنده أنه ينبغى أن يتبع ذلك تغير تام فى طبيعة علومها ٠٠ وهذا ما لم نقم به حتى الآن ٠ « والأستاذ الدكتور » لا يقفو أثر الأقدمين الذين جعلوا دراسة الأدب فى جوهرها دراسة لغوية مدعمة فى ذلك بأمثلة نحوية٠٠ ففى رأية أن اللغة لا تعدو أن تكون أداة تعبير عن آرائنا واحساسنا تعبيرا دقيقا بحيث يظهر الفروق الدقيقة بين معنى وآخر واللغة فوق ذلك ، أداة للتفاهم بين الناس « كذلك نراه لا يأخذ بما يقال من أن الكلمة الفصيحة هى التى ترد فى المعاجم حتى لو كانت كلمة مهجورة تنأى عن الاستعمال أو الاستحسان ٠٠ وانما يرى أنه يجب أن نوجه أقصى العناية الى تركيب الجمل ودلالتها ٠٠ وفى هذا الشأن يطالب بتكوين علم جديد خاص بذلك٠٠ علم يوضح فنيـــة تركيب الجملـــة ، وكيف يؤدى تركيب بعينه الى دلالة بعينها ٠٠ وهو ينظر الى اللغة على انها التعبير عن عقلية الأمة التى تتكلمها، وان المحافظة على اللغة لا تكون الا بتعريضها للتطور الذى يجعلها أداة حية للتعبير ، لا أثرا من آثار المتاحف التى يعجب بها الناس ٠

رأيه فى شعراء العربية القدامى

ينفرد الدكتور محمد كامل حسين برأى خاص فى شعراء العربية القــدامى فقــد تناول شعر المتنبى وأبى نواس وأبى العــلاء بالــدرس والتحليل ٠٠ أما المتنبى فهو يمتاز عنده بموسيقاه الفذة ٠٠ لكن شعره يكاد يخلو من الصور وعلى نقيض ذلك يكون شعر أبى نواس فهو شاعر حاذق فى رسم صوره وكأنه هنا فنان تشكيلى ٠ ومما ينبغى أن نذكره

أن « أديبنا النابه » يستهجن استخدام الألفاظ الأجنبية التى ليس لها أصول عربية والشائعة فى لغتنـا النقدية كالرومانتيكية ، واللاسيكية والنرجسية ومن ثم ، يأخذ على الأستاذ العقاد نعته لأبى نواس بأنه نرجسى وكان أولى به أن يطلق عليه اسم أنانى بدلا من هذا الاسم الغريب على لغتنا . والدكتور محمد كامل حسين ممن يعجبون بشعر أبى العلاء المعرى، فهو عنده أقوى رجال الأدب شخصية ، وأعمقهم تفكيرا ، وأصدقهم عاطفة، وأحدهم ذكاء .. يقول عنه : (فى حياته صراحة ، وفى عقيدته جد ، وفى احساسه دقة وفى آرائه جرأة ، فلا غرابة أن يكون شعره محببا الينا على بعده بعدا سحيقا عن أذواقنا..ويحسب بعض الناس ان الأديب لايستطيع أن يرتقى بفكره الى مراتب الكون والانسان .. وقد يظن البعض أن ذلك من شأن الفلاسفة لا الأدباء .. لكن أبا العلاء استطاع ببصيرته النافذة أن يغوص الى أعمق أعماق الأشياء ، وأن يرتفع بشعره الى أعلى عليين ..) لكن الدكتور محمد كامل حسين لا يقف عند هذه المزايا التى يعددها لهذا الشعر .. فهناك من مزاياه ما يفوق ذلك بكثير وهى المزايا التى تنتزع اعجابه وتقديره له وتعلقه به .. فهو يقول : (ان اعجابنا به يرجع الى صفة يبلغ بها الأدب أرفع مراتبه وهى قوة التعبير والقوة تكون فى الصدق والدقة) ويتسم أبو العلاء بأسلوب ظريف ورشيق فى التهكم ومن أمثلته ما جاء فى رسالة الغفران قوله : (لقد حرم بعض الأدباء أن يتزوجوا من حوريات أصلهن أوز ، حتى لا يقول أهل الجنة عنهم أزواج أوز) .. أن هذا النوع من القول نادر فى أدب أبى العلاء ، ولكنه يدل على قدرته على الأسلوب الهادىء الرقيق الذى يثير الابتسام المتزن لا الضحك المغرق .. كذلك يمتاز أبو العلاء بدلالة قوية صادقة دقيقة تعبر عن نفسه أو بيئته، أو عن النفس الانسانية كلها .. فالمعرى عند (أديبنا الكبير) يدل على نفسه دلالة قوية ولعل ذلك سرحبه له واعجابه به .. فهو من المفكرين الذين عاشوا أدبهم حتى أصبحت حياتهم وأدبهم شيئا واحدا ، وهذا نادر جدا بين أدباء العالم كله .

وهنا يقتبس « أستاذنا » ذلك التشبيه الذى ينادى به أحد النقاد المعاصرين .. فالمفكرون عنده قسمان .. قسم أشبه بالثعالب والآخر أشبه بالقنافذ .. فالثعالب عنده هم الذين يحسنون أمورا كثيرة مختلفة، والقنافذ هم الذين يحسنون شيئا واحدا يعكفون عليه .. فالثعالب أمثال هوميروس ، وأرسطو ، وجوته وشكسبير ، أما القنافذ فهم أمثال أفلاطون ودانتى وبسكال ، وحين نطبق هذا التشبيه على أدباء العربية نجد الثعالب أمثال بشار بن برد والجاحظ والعقاد . أما القنافذ فهم أمثال أبى العلاء المعرى .. وقبل أن نترك تصورات « أديبنا الكبير » فى اللغة ، والأدب والشعر ، لا يفوتنا أن نعرض لبعض آرائه فى قضايا كتابنا المعاصرين ،

فهو يلاحظ أن « الكاتب العربى » فى عصرنا ، انما هو انسان حائر قلق٠٠
هو حائر بين القديم والحديث بين الفصحى والعامية ، بين الأدب الواقعى،
والرمزى والوجودى والمكشوف بين مجد قديم ثابت وبين حركة تجديد
أدبية وفكرية لا يكاد يلحق بها ومن ثم ، يوصى أديبنا العبقرى الكاتب
المعاصر بأن يعنى بأمرين هما الموضوع والأسلوب ٠٠ أما الموضوع فيجب
أن يستمده من حياته وخبرته ٠٠ فعليه اذا أراد أن يكون صادقا الا يصف
وقائع لم يشهد الها شبيها فى تجاربه فى الحياة « ففى رأى » أستاذنا أن
أروع شىء فى الكتابة الأدبية هو صـدق العواطف ودقة تحليلها ٠٠ أما
الأسلوب فله شقان : شق يرجع الى طبيعة الكاتب وشخصيته،وشق يرجع
الى مواءمته للموضوع ٠٠ فعنده أن الأسلوب انما هو صورة من صور
النفس ، فالكاتب العنيف يخفق ان أراد أن يكون أسلوبه هادئا٠٠والتفكير
العميق لا يحسن أن يكون أسلوب أداته رشيقا رقيا ٠٠ وخير وسيلة يكون
بها الأسلوب مهذبا ، أن يروض الكاتب نفسه على أن يكون مهذبا ٠ اما
مواءمة الأسلوب للموضوع فلا يكفى فيه ما يقال عن مطابقة اللفظ للمعنى،
فقد يكون أوفق للفكرة الرائعة أن يكون أسلوبها متواضعا حتى لا يطغى
على جمال الفكرة فيذهب بروائها ٠٠ والمصورون أدرى الناس بمثل هذه
الأمور ٠

وليحذر الكاتب التهاون فيما يكتب صغيرا كان أم كبيرا ٠٠ والمواهب
وحدها لا تكفى ٠٠ وعلى الكاتب الا يكتب حتى تسيطر عليه فكرة غالبة،
وحتى يحس أنه لن يهدأ له بال حتى يخرجها للناس ٠ وعلى هذا ، ينبغى
على الكاتب أن يكون صادق الشعور ، صادق التفكير ، صادق التعبير ٠
ولم يكن الدكتور محمد كامل حسين ناقدا حاذقا ، وفقيها لغويا فحسب،
وانما هو أيضا يعرف الابداع الأدبى ، فقد أبدع روايته الرائعة (قرية
ظالمة) فى بداية الخمسينات،ونال عليها جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٥٧
وقد نفذت الطبعة الأولى والثانية والثالثة وطبعت طبعة رابعة٠٠ولا يسعنا
الا أن نعرض لهذا العمل الروائى الفذ بالتحليل والتقييم ٠

رواية قرية ظالمة

تبدأ الرواية بكشف ما حدث لأهالى أورشليم ، وهم من بنى اسرائيل
وقد طلبوا من حكامهم الرومان ، صلب المسيح ، ليقضوا على دعوته،وكانت
دعوته أن يحتكم الناس الى ضمائرهم فى كل ما يصدر عنهم من أفعال٠٠
فى ذلك اليوم أرادوا أن يقتلوا ضميرهم فكان فى ذلك نكبة الانسانية
الكبرى وخرجت فتاة فقيرة صغيرة ، رثة الثياب ، تسوق قطيعا من الغنم،
ومازالت تسير عـلى غير هدى حتى بلغت جبل « كالفارى » ، أى جبل

الجمجمة ٠٠ وأجهد الفتاة أن تجرى وراء كل شاردة من أغنامها التردها اليها ٠٠ أما أصحاب الرأى فى المدينة فقد أرهقهم ما قضوا فيه ليلتهم من نقاش حول هذا الرجل الذى جاءهم بدين جديد ٠٠ لقد خيف من دعوته على دينهم ونظامهم ٠٠ كانوا قد حكموا عليه بالصلب ، وتواعدوا فى دار ندوبهم يوم الجمعة ليبلغوا حكامهم الرومان ماقر عليهم رأيهم فى شأن النبى الجديد ٠ وكان رجل الاتهام شاب من بنى اسرائيل وكانت امرأته أجمل فتاة فى أورشليم ، وقد أخبرته بأن اليوم عيد مولدها ٠٠ لكنه الآن يخبرها بما يشغله ويعكر عليه صفوه وهو انهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة الناس ومن ثم كان لابد من حسم أمره اليوم ٠٠ وتسأله ما ارتكب من جريرة ؟ فيعترف لها بما ألصق به من تضليل الناس والتمرد على تعاليم التوراه ، فهو يقول ان الله هو الحب وهو يدعو الى حب أعدائنا٠٠

وانتهينا بأننا حكمنا عليه بالصلب ٠٠ وكان فخورا ببلاغته وقوة بيانه وحجته وحرصه على الايمان والوطن وتعاليم التوراة فتسأله زوجته: ألا يزال النجاح معبودكم الأكبر ؟ ٠٠ انه يفترسكم ويقضى على فضائلكم كلها ٠٠ أتقتلون رجلا لأنه يقول ان الله هو الحب ٠٠ وقالت غاضبة : انها كلمة لا يقولها مجرم ٠٠ ان حب المرأة هو الخطوة الأولى الى حب الله ٠٠ وتستطرد قائلة : ان البرود العقلى ليس غاية الكمال ٠٠ كان قلبك يخفق لأشياء ، غير العقل والحكمة ٠٠ أترى ذلك راجعا الى ما وفقت اليه من نجاح ؟ فيجيب على تساؤلها ــ ان قمم الجبال العالية مغطاة دائما بالثلج وترد عليه مؤكدة له بأنها تفضل أسفل الوادى حيث يكون الدفء ، وله أن يرقى وحده الى حيث تكون الثلوج ٠٠ لقد أزعجه أن يدب بينهما شقاق ، وهو على حبها حريص أشد الحرص ٠٠ لكنها عادت تقول انها تقدر واجبه وتعفيه اليوم من التفكير فى عيد مولدها ٠٠ وفرح بكلماتها الأخيرة وأدرك حسن تقديرها٠٠وخرج من بيته ولكنه كان أقل ثقة بنفسه، ولم يعد مطمئنا الى ما كان يراه بالأمس من أنه قام بواجبه ونصر الدين والوطن والأخلاق ٠٠ ولم يعد يؤمن انه كان فى جانب الحق ٠٠ لقد أخذ طريقه الى دار الندوة ، وساوره الشك فى اتهام رجل ضعيف لم يقترف اثما ٠

دكان حداد :

صادف فى طريقه دكان حداد فقير قذر ٠٠ فلم يعبأ بالوقوف عنده، لولا أنه رأى أمام الدكان رجلا من التجار يمطر الحداد وابلا من الشتائم صارخا فى وجهه : أين الحديد وأين المسامير الأربعة الكبار التى أوصيتك أن تصنعها ، وهدده بأنه يعرف حدادا آخر سوف يغدق عليه من المال٠٠

وأراد الحداد أن يستعين عليه برجل ذى لحية طويلة كان قد جلس بباب الدكان وكان يحمل مفتاحا كبيرا وأحس التاجر حين شاهده بأنه من أكبر أتباع النبى الجديد . وأنه هو الذى منع الحداد أن يصنع ما طلبه منه ٠٠ فلم يسع التاجر الا أن يبرد وزره الشنيع قائلا : « ان كان هذا النبى الجديد كاذبا . فموته حلال ، وان كان صادقا وقتله ظلما فاعلموا انى حسبت لذلك حسابا طويلا ، فهب قتله جريمة يعاقب عليها الله ، فنحن فى منجاة من هذا العقاب ٠٠ بل سأرسله الى الرومان مع طفل ساذج » ٠٠ ولكن الشيخ ذو اللحية منعه من ذلك ، الأمر الذى جعل التاجر يبتعد عنهما على الفور ٠ وسمع رجل الاتهام هذه المناقشة ، وتذكر مناقشة زوجته له . فاختلط عليه الخير بالشر ٠٠ كان يريد أن يهتدى الى الصواب ٠ أصلب هذا الرجل اليوم حق أم باطل ؟ وازداد كآبة وحزنا وعرج وهو فى طريقه الى الندوة الى بيت صديق له ٠٠ وأخبره بحيرته فى هذه القضية ٠٠ فنصحه بقوله حاسب ضميرك وحده ، ثم اخلص لهذا الضمير . وليس عليك ان تعلم هل سيرى الناس عملك حقا بعد مئات من السنين ٠٠ ويجب عليه بأنه يود لو يستطيع انقاذ هذا النبى ٠٠ فهو يريد الا يذهب الى دار الندوة اليوم حتى لا يحمل الوزر كله ٠

المفتى :

كان فى أورشليم عالم فقيه تقى ، وكان يتولى افتاء بنى اسرائيل فى امور دينهم ، وهم قوم فى حاجة دائما الى الفتيا ، وكان له ابن من أذكى الناس يصحبه دائما الى الندوات دائما ، يستمع ويتعلم ، وكان يعد نفسه لأن يلى الافتاء من بعد أبيه ويحكى الابن لأبيه كيف استمع بالامس الى حديث رجل الاتهام عن صاحب الدعوة الجديدة ، وكيف أعجب ببلاغته وبيانه ٠ وسأل الأبن والده هذا السؤال : ما سبيل الناس الى الصواب ؟ فأجاب عليه الوالد (المفتى) بأنه يجب أن يكون حكمنا على أية قضية لا يتعدى حدود الضمير ، وليس فينا من يرضى ضميره عن صلب هذا الرجل وشعر المفتى بتأنيب ضميره قائلا : « انى لا اريد أن تبقى فتواى على الزمان سببا فى صلب رجل لا أعلم عنه شرا ٠

لا زار :

كانت معجزة المسيح ، احياء رجل اسمه (لازار) فى أورشليم بعد وفاته . فآمن بالمعجزة قليلون ، وأنكرها كثيرون ٠٠ كانت أخته قد لجأت الى المسيح لكى يبعثه من أجلها ٠٠ اذ لم يكن لها فى الحياة غيره ، وكانت تؤمن بالمسيح فاستجاب لايمانها وعادت الحياة الى أخيها ، الا أنه صار بعد ذلك ، شاحب اللون . غائر العينين ، قليل الكلام ، شارد الفكر،

كان لا يفرح ولا يحزن ، ولا يضحك ولا يبكي ٠٠ وكان شديد الاضطراب دائم الخوف ٠٠ كان أتباع النبى يتخذونه آية من آيات الله ، أما بقية الناس فكانوا يعدونه أتعس أهل أورشليم ٠٠ وبينما لازار يسير مبكرا فى ذلك اليوم اذ رآه بعض الأطفال فأخذوا يرشقونه بالحجارة،ويسخرون منه ، ويؤذونه ، فلاذ بدكان « حداد » فقير قريبا منه ، حيث كان مشغولا بمهمة كلفه بها تاجر أراد أن يوقد النار ، وأن يعمل له أشياء لابد من صنعها اليوم وأغلق عليه العطاء ٠٠ فما أن رأى (لازار) حتى صرخ فى وجهه أن يبتعد عنه فهو مجلب للشؤم ٠٠ ولوح له بمطرقته واضطربت يده فأفلتت المطرقة ووقعت فى الكور فتطايرت قطع من النار أصابت احداها التـاجر فى عينيـه فزاد من شـدة الألم ٠٠ وحينئذ جن جنون الحداد فاندفع صوب التاجر ليرى ما حدث له ، فوقع على الأرض ودخل أحـد المسامير فى يده فخرج من ظهرها وعلا الصياح واشتد الهرج ، فهرب « لازار » وقرر أن يترك المدينة وأن يهاجر الى بلاد نائية . يبشر فيها بالدين الجديد ٠

قيـــافا :

تولى قيافا مقاليد بنى اسرائيل ، وفرح الناس أن سيحكمهم رجل عالم ، عادل ، طيب ، فاطمأنوا لحكمه ، وأحسوا بأن عهدا جديدا فى تاريخ قومهم قد بدأ ٠ كان لا يؤمن بالقوة ، واستطاع أن يقف من الرومان موقفا وسطا بين الشدة واللين ٠٠ ومما أعجبه من النبى الجديد سياسته ازاء الرومان وقوله : « أعطوا ما لقيصر وما لله لله » وكان معجبا بمملكة السماء ذلك أن « قيافا » ظل طول حياته يبحث عن حل حاسم لمشكلة خلقية لم يعثر على حل لها وهى البحث عن جزاء للفضائل السلبية ، والفضائل المستترة ٠٠ ان الفضائل الايجابيـة كالشجاعة ، والكرم ، وعمل الخير ، جزاؤها هو تقدير الناس واحترامهم ، وحبهم ، أما الفضائل المستترة كالصبر والاقلاع عن عمل الشر والعطف على الضعيف والبر على الفقير والأمانة فليس لها جزاء واضح ، والفضائل المستترة كالتواضع واحتمال الأذى ونبذ الشر وهى أقسى على النفس وأصعب احتمالا من الفضائل الايجابية البراقة الرنانة ٠٠ وأخيرا اهتدى الى حل فـرح به ، وهو أن طبيعة الانسان كل لا يتجزأ ، فهى وحدة متماسكة ٠٠ لقد وجد النبى يضع حلا لهذه المشكلة ، ذلك أنه خلق لهم مملكة السماء جزاء على هذه الفضائل السلبية والمستترة ٠٠ لكنه كان يعتقد أن النبى الجديد لن يوفق فى اصلاح حال الناس ٠٠ انه يضع الضمير فوق التدين ، لكن أهل التدين سيقضون عليه قبل أن ينقذه أهل الضمير ٠٠ ويريد أن يضع الانسانية فوق الوطنية والقومية ، لكن أهل الوطنيـة سيقضون

عليه قبل أن تنقذه الانسانية ويشير قيافا الى قول أتباع النبى الجديد عن كونه ليا ٠٠ لكن أليس أخفاقه عجزا ومتى كان العجز من صفات الربوبية ٠٠ لكن اسرائيل تألبت عليه كلها ، وطالبت بدم النبى الجديد ٠ عندئذ رأى « قيافا » أن يقبل ما رأوه بالأمس وهو أن يحكموا عليه بالصلب٠٠ قال قيافا لنفسه : (أنى أن قاومتهم خلصونى ولا يكون انقاذه وان خضعت لاجماعهم نفذوا أمرهم فيه ٠٠ وفى كلتا الحالتين لن أستطيع أن أنقذه أليس هو صاحب معجزات ٠٠ فليحدث ما يحدث ، فان كان الله أراد أن يقتل فما أنا بمنقذه ٠

دار الندوة :

دخل قيافا مكان الندوة حزينا مكتئبا ، وزاد اكتئابه حين سمع الناس يصيحون : أقتلوه ، أصلبوه ، أحرقوه ، انه ساحر خطير ٠ وجال بعينيه فرأى رجل الاتهام فثارت ثائرته وراح يقول : (اذا قام هذا الشـاب ليقول مثل قوله بالأمس ، تصديت اله وحملت عليه وفندت حججه . وسفهت رأيه وليكن ما يكون) ٠٠ لكن هـذا الشـاب شارد الفكر . يتردد فى أن يهم بالكلام كان أول المتكلمين شيخ حطمته السنون، وأخذ يقول بأنه سيلقى الله بعد قليل ولا يحب أن يلقاه كاذبا ٠٠ فهو لا ينكر المثل العليا التى يدعو اليها النبى الجديد ، ولكنه يأخذ عليه أنه جعلها جزءا لا ينجزأ من الدين ، وهو يريد أن يحمل الناس عليها بقوة التنزيل ان دعوته ليست كفرا ٠

ثم وقف المفتى ليصحح خطأ وقع فيه فى تفسير معجزات النبى ، فهو لم يقل بكذبها ، وأردف قائلا : (انظروا الى المعجزات التى قام بها صاحب الدعوة الجديدة ٠٠ فمن معجزاته انه أطعم النـاس وهم آلاف ببضعة أرغفة ، وأنه أحال الماء نبيذا وأنه أحيا ميتا ، وأبرأ مرضى كثيرين ٠٠ كل ما حدث أنه أطعم قوما مؤمنين طعاما قليلا قنعوا به ، وكذلك قصة النبيذ ، فانه سقى الناس ماء فأحسوا منه طعم النبيذ ، وأثره ، فالمعجزة فى هذا الحادث قوة تأثيره فيهم وشدة ايمانهم به ٠ ثم أنه أحيا ميتا ، وليس فى ذلك خرق لسنة الكون ٠٠ فهو لم يدع أحياء « لازار » الى الأبد . ولم يحى الموتى كلهم ٠٠ أما ابراؤه المرضى فبركة ونعمة ، ولا يمكن أن نطعن عليه من أجله ٠٠ أن المعجزة لا تكون كـذبا الا اذا نقضت قانونا طبيعيا ٠٠ أما اذا كانت المعجزة تتعلق بأمور نفسية يؤثر فيها الايمان والعقيدة ، فلا محل للطعن فيها ٠٠ ان معجزات هذا الرجل كلها لخير الانسان ، ولم نعلم عنه أنه آذى بها أحدا من قومنا ٠٠ وما أن توقف « المفتى » عن الكلام حتى علت الأصوات خارج الندوة تنادى بقتل

الرجل وأتباعه ، حتى انهم اقتحموا دار الندوة وهم يصيحون : أقتلوهم، أحرقوهم جميعا ، لابد من قتله وقتلهم معه ٠٠ ثم اندفعت الجماهير الى دار الحاكم الرومانى تطلب بدم هذا الرجل وأتباعه ٠٠ وهكذا تمت أكبر جرائم التاريخ ٠٠ جريمة الحكم على المسيح بالصلب ٠٠ لقد حكم على المسيح بالصلب بدعوى كفره بالله ، فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة فى حكمة الانسان ؟!! ولم ينقص من اثم الانسان شيئا أن رفعة الله اليه ٠

فى ضوء ما سبق ، يتضح لنا كيف أصر غوغاء اسرائيل على قتل المسيح ، رغم تراجع قادتهم وزعمائهم وحكامهم ، فقد رأينا كيف كان ممثل الاتهام يعتصر ألما وحزنا على مشاركته فى هذا التأثيم ، ورأينا كيف قال المفتى لأبنه من انه لا يرضى ضميره عن صلب هذا النبى الجديد، وكيف كان قيافا الحاكم الفيلسوف ساخطا عـلى قومه ، متنبئـا بهذه الحقيقة المؤسية ٠٠ ذلك لأن المسيح وضع الانسانية فوق التدين والوطنية والقومية ٠٠ لكن ضمير عامة الاسرائيليين كان من الشعف ما أحلوا دم المسيح فكانت خطيئتهم الكبرى التى سجلها التاريخ ، وفى كتاب آخر ، يبحث الدكتور محمد كامل حسين عن طبيعة النفس المطمئنة ٠٠ فليس بالمال والبنين ، وليس بالجاه والمجد والنجاح يحيا الانسان سعيدا ٠٠ وليست السعادة فى تحقيق أهدافنا وغاياتنا ٠٠ ان شقاء الانسان انما يعزى الى قلقه وحيرته واضطرابه ومن ثم ، ينبغى أن نستبطن النفس وننظر نظرة داخلية اليها ٠٠ ينبغى أن نتعرف عليها حتى نستطيع أن نتعرف على رؤيتنا للأشياء ، فنحن لا نعرف حقيقة عالمنا الا اذا عرفنا حقيقة أنفسنا ٠٠ ولعل سقراط كان محقا بقوله (اعرف نفسك) فحينئذ يتحقق فهمنا للحياة ٠٠ لكن كيف السبيل الى ذلك ؟

ان كتـاب (الوادى المقـدس) يجيب عن هذا السـؤال فى ثنايا صفحاته ٠

ان كتاب (الوادى المقدس) وهو من تأليف الدكتور محمد كامل حسين انما هو رحلة الى أغوار النفس الانسانية حيث يكشف عن أسرارها ودوافعها وخفاياها ٠٠ فهو يحدثنا عن كل الوسائل التى نتوسل بهـا حين نريد أن نهتدى الى سواء السبيل وحين نريد ان ننسلخ عن الأدران والشهوات الحسية حتى تشف رؤيتنا ونصفو نفوسنا ٠٠ ومن أجل هذا ، نجد « مؤلفنا الكبير » يحدثنا فى كتابه عن التطهر والهدى ، والضلال والأديان ، والحقائق الأبدية والحرمان ، والضباب ٠٠ ويقصد « الدكتور المؤلف » بالوادى المقدس ، ذلك المكان الذى كلم الله فيه الرسول موسى انه بقعة من أرض سيناء حيث شاهد موسى ربه ٠ فامتثل خاشعا ليكلمه تعالى ٠ وموسى رسول الله يخلو قلبه من كل حقد أو غل ، فقد اهتدى

الى الحكمة والتفكير المستقيم ٠٠ كان يمتاز بأن طبيعة جسمه وعقله ونفسه تتوافق توافقا موسيقيا ٠٠ فعنده أن السعادة الانسانية لا تكتمل الا على هذا النحو ٠٠ فهو يؤمن بأمور ثابتة فى النفس أصولها الايمان والخير والحكمة . وميادينها الحب والعلم ٠٠ ولقد كان ينظر الى « الوادى المقدس » على أنه المأوى الذى يقيه عواصف الشر ٠٠ وعنده أن الويل للمرء اذا كانت حياته خلوا من الايمان أو الخير أو الحب أو الحكمة ٠٠ وليس النجاح فى هذه الدنيا مانعا من التطهير وليس التطهير عائقا للنجاح ٠٠ ان الطهر انما هو السبيل الى حياة جميلة طيبة ٠٠ وان الحياة الصادقة تقوم على السلم . والسلم ينبغى - بادىء ذى بدء - ان يكون بينك وبين نفسك ويحققه الايمان . وينبغى ان يكون بينك وبين الآخرين ويحققه الحب . وينبغى ان يكون بينك وبين العالمين ويحققه الخير ٠٠ ينبغى على الانسان الا يؤذى الناس فهذا العدوان أشبه بعمل الدواب منه بعمل الانسان الرهيف الحس ٠

أما التطهير عند « استاذنا » فهو ارتفاع النفس عن الطباع الحيوانية البحتة ٠٠ فلم يعرف الناس فى تاريخهم الطويل شيئا أقوى من الدين ، فى تطهير النفوس ، والدين هو استقطاب النفس للخير المطلق وهو الله ٠٠ ويرى أستاذنا أن البشرية فى أول أمرها تكون غفلا غير ذات لون خاص ، ثم تدب فيها روح الاستهداء ، وبذلك تصبح نفسا حتى اذا اهتدت فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا ومن ثم ، فأكثر الناس طيبون بطبعهم ، يرتاحون الى عمل الخير ، ويستشعرون سرورا عميقا حين يتاح لهم أن يعملوا صالحا ٠٠ ويدل على الخير الكامن فى النفوس ان يندم الناس على ما يعملون من شر ، على انهم يندمون كثيرا على شر ارتكبوه كان لامفر منه ، وقد يفرحون به وقتا قصيراثم يذهب النفع ولا يبقى الا الندم ٠ وتحت عنوان الهدى والضلال يقول « أستاذنا » ان الهدى هو ، أن يظل الانسان فى صراط المستقيم وهو الخط الذى يصل بينه وبين الله رأسا دون اعوجاج ٠٠ أن الهدى أوله النفس التى أهتدت الى الخير . وآخره بلوغ الانسان الى الوادى المقدس ٠٠ أما الضلال فهو حيرة النفس بين أمور شتى . فلا تعرف ما نهتدى اليه وقد يوقعها الى الشرك بالله،وآخر الضلال هو الكفر فى أبشع مظاهره » ٠

أن أنواع النفس عند الدكتور محمد كامل حسين أربعة : فهى اما أن يكون أصل طبعها الهدوء التام ، أو الكبح الهادىء أو الاندفاع المتزن، أو الاندفاع العنيف ٠٠ والذين من طبعهم الهدوء التام لا يضطربون للأحداث الطارئة ٠ وليس من صفاتهم الملل ٠٠ هؤلاء تغلب عليهم الحكمة وسداد الرأى ودماثة الخلق وحسن الجوار ٠٠ والذين من طبعهم الكبح

الهادىء هم الذين يشعرون بالرغبة فى الاندفاع ، لكنهم يخشون من هذا الاندفاع أن يؤدى بهم الى الخطأ . أو الخطيئة .. والذين من طبعهم الاندفاع المتزن هم الذين يحبون أن يعملوا ، وأن تكون حياتهم ملأى بما ينير الرضا فى نفوسهم والاعجاب .

وينتقل الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين الى نقلة أخرى فيحدثنا عن الدين . والجمال والعلم .. فالدين يهدى الانسان الى سواء السبيل والجمال يرضيه . وليس من شأنه أن يهدى الانسان .. أما العلم فهو يعلم الانسان وليس من شأنه أن يهديه ولا يعنيه أن يرضيه . وفى كتاب « الوادى المقدس » موضوع آخر يحدثنا فيه الأستاذ المؤلف وهو الحقائق الأبدية .. فيشير الى حقائق الطبيعة قائلا فلننظر الى تعاقب الليل والنهار .. لقد عرفها الناس منذ الأزل . وهى ثابتة ولا جدال فيها ، باقية أبد الآبدين .. ومازال الناس ينظمون حياتهم على أساس هذا التعاقب .. يتحدثون عن طلوع الشمس وغروبها..وتعلقت وظائف أجسامهم ، بل تعلقت حياة النبات والحيوان بظلام الليل ونور النهار.. وعلم الناس أن الأرض هى التى تدور ، وأن الشمس لا تطلع ولا تغرب، وأن القمر لا نور له وأن النجوم لا تتغير مواقعها .. وظل الناس يطربون لنور القمر علما بأنه جسم مظلم تنعكس عليه أشعة الشمس) . وقديما آمن الناس أن أمور الغيب والدين والأخلاق من الحقائق الأبدية السماوية العليا التى نزلت من السماء .. ومن الحقائق اليقينية أن الله غاية الهدى وأنه تعالى أصل الهدى يقول المسلم فى صلاته « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .. آمين » . والمسلم يعبر فى هذا الدعاء عن انه يؤمن بأن الله ينعم على الناس فيهديهم صراطا مستقيما . يكون لهم فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة .

كذلك يحدثنا الدكتور محمد كامل حسين فى هذا الكتاب عن موضوع قلما تناوله المفكرون بالبحث والدرس .. أنه موضوع الحرمان ويقرر « المؤلف » بأنه لا يقصد بالحرمان معناه المألوف . وانما أراد له مدلولا محددا تحديدا علميا دقيقا .. صحيح أن الأطباء اكتشفوا أمراضا خاصة يصاب بها الانسان ترجع الى حرمان جسمه من عناصر هامة كاليود، والفيتامينات والهرمونات . وقد اتفق الأطباء على تسمية هذه الأمراض بأمراض الحرمان .. والحق أن علماء النفس لم يفطنوا فى تعلل الأمراض النفسية لقوة الحرمان . فقد رأى « فرويد » أن سبب اضطراب النفس انما يرجع الى الكبت الجنسى ، ورأى غيره انها ترجع الى عوامل أخرى ومن المؤرخين من يرجعها الى مكافحة الطبيعة ، والبحث عن المأوى والزاد ، وبعضهم يرجعها الى ضغط العوامل الاقتصادية أما الدكتور محمد كامل

حسين فعنده أن الحرمان انما هو لغة النقص ٠٠ أن النقص العام لا يعد حرمانا بل يجب أن يكون النقص فى مادة من المواد التى تسمى مواد الحرمان ٠٠ فنقص الغذاء عامة لا يعد حرمان ٠٠ وقد يكون الغذاء قليلا ولكنه اذا استكمل عناصره ، لم ينشأ عنه مرض من أمراض الحرمان ٠٠ وفى رأيه أن مواد الحرمان يجب أن تكون نادرة ، وأن أثر الحرمان يجب أن يكون عاما ، فلو أن الانسان فقد سمعه أو قدمه أو أصيب بمرض فى عضو من أعضائه فيفقد عمله فلا يعد ذلك حرمانا ٠٠ وانما الحرمان يكون من مادة لها أثرها فى النشاط الجسمى كله ٠٠ ويلاحظ أن أمراض الحرمان كلها تؤدى الى الضعف وفقد النشاط ٠٠ والناس يعلمون أن السعادة لاتتحقق لهم ببلوغ الغايات التى يسعون اليها فمن الناس من أوتى كل ما تصبو اليه نفسه وهو مع ذلك أبعد الناس عن السعادة ٠٠ ومن الناس من أوتوا أكبر حظ من الثراء دون أن يوفقـوا الى الاطمئنـان النفسى ثم يعرض « الدكتور المؤلف » للعوامل الحرمانية فى الحياة الداخلية للانسان وأول هذه العوامل الحرمانية التى لابد منها للصحة النفسية هو الحب ٠٠ الحب بأوسع معانيه يقول الدكتور محمد كامل حسين فى هذا الصدد : (أن الرجل الذى يحرم هذه العاطفة رجل مريض ٠٠ يصطبغ شخصيته بنوع من التشويه) وفى رأى « أستاذنا » أن خير الحب ما كان مخلصا لهدف واحـد . وان أسرفه أقواه ، لا أكبره . وأن المسرفين فيه ، وكبار المحبين ليسوا أصح نفسا من الذين لم يصيبوا منه الا القدر الكافى ٠ ويشير « الأستاذ الدكتور » الى أن الطبيعة استطاعت أن تربط بين الحب وبين العاطفة الجنسية وهى أقوى الرغبات اطلاقا ٠٠ ومن أكبر الخطأ أن نحسب الحب الجنسى عند الانسان شبيها به عند الحيوان ٠٠ فهو عند الانسان وسيلة لبلوغ شىء هام جدا ، خاص بأرقى مظاهر الانسانية وهو الحب، ومع ذلك ، فالحب الجنسى وحده ، لا يكفى الانسانية التى اكتمل نموها، وأن ما يسمونه (الارتفاع) لا يكون لنقص أصاب العاطفة الجنسية ، وانما هو استكمال لها حين لا تكفى وحدها فى تهيئة القدر الكافى من الحب العاطفى الراقى ٠ فالجنس ليس غاية الغايات عند الانسان ، والذين يستطيعون أن يبلغوا من عاطفة الحب مبلغا يكفيهم لصحة نفوسهم دون حاجة الى الجنس الآخر هم المتصوفون والفلاسفة والفنانون ٠٠ والعامل الحرماني الثانى للصحة النفسية عند « مؤلفنا » هو الشعور الفنى بأوسع معانيه ٠٠ المحرومون منه معذبون ، والرجل الذى لا يوفق فى حياته الى أداء شىء جميل لا يمكن أن يكون سعيدا ٠ فالناس يختلفون فى ذلك فمنهم من تعجبه الموسيقى أو التصوير أو الطبيعة أو الزهور ٠٠ ومن أكبر العوامل الحرمانية هو الايمان ٠٠ فكل انسان طبيعى لابد له أن يؤمن بشىء ، يستوى فى ذلك البدائيون الذين يؤمنون بأسخف الخرافات،

والعلماء الذين يؤمنون بالقوانين الطبيعية ·· ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن حرية الفكر تعد أول عامل حرماني في حياة الأمة ·· والحريه الفكرية هى الأمر الذى اذا حرمه الناس شل نشاطهم ، وتبلد ذهنهم مهما يكن الانتاج المادى أو القوى التى يبلغونها ، ويكفى الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار الذين يتمتعون بحرية كاملة ·· وأخيرا يعرض « أستــاذنا » فى كتــاب (الوادى المقــدس) لموضوع بعنوان (الضباب) وهو الذى يكتنف حياة الانسان من كل جانب ·· صحيح أن له عقل يضىء ما حواله الى مدى مختلف باختلاف توره ، ولكنه نور محدود على أى حال والانسان يمتاز بالذكاء لكن لايعرف بذكائه المستقبل· ان الذكاء عند الدكتور محمد كامل حسين ميدانه العلم وموضوعه العلاقات بين الأشياء مستقلة عن الانسان··ورغم أن الانسان فىمقدوره أن يقيس سرعة الضوء ، ويعرف خواص الذرة ، ويدرس قوانين الوراثة ، الا انه ليس فى مقدوره أن يدلك عـلى ما يصلح لك فى مستقبلك القريب أو البعيد ، لأن فى ذالك كله أمورا مجهولة لا يعرف كيف يكشف عنها ، ولا يعرف كيف يحسبها حسابا صحيحا ·· ولكن هل للناس أن يثقوا بالعقل ؟ ويتساءل الدكتور المؤلف : أليس من واجبهم أن يعرفوا حدوده ومواطن قوته وضعفه ، وأن يتبينوا مصادر أخطائه فيتجنبوها··ويستطرد قائلا « لقد خدع الانسان عن قوة عقله ، فهو لا يرى من الماضى الا أقربه اليه ، ولايتبين من أسبابه الا أبسطها··ليس للانسان أن يقدر المستقبل البعيد أو يبنى أعماله على هذا التقدير ·· وسوف تظل حياة الانسان ، مهما يكن حذرا حكيما عاقلا ، سلسلة من القرارات يتخذها وهو فى حيرة من أمرها ، أصواب هى أم خطأ ؟ « وأخيرا يرى » المفكر الكبير أن الحياة الصحيحة الخالية من الضباب انما هى حياة النفس المشرقة الجميلة التى لا تسبب حيرة ولا ارهاقا ·· انها حياة الوادى المقدس ·

كتاب ذكر الحكيم :

يؤمن المسلمون العرب أن القرآن الكريم انما هو كتاب بلاغة وبيان، وان بلاغته فاقت لسان العرب وفصاحتهم · ومن ثم ، كان القرآن الكريم انما هو معجزة سيدنا محمد رسول الله التى أنزلها تعــالى عــلى الأمة العربية ·· لكن القرآن الكريم لم يكن كتاب بلاغة وبيان عند الدكتور محمد كامل حسين فحسب ، وانما هو أيضا كتاب حكمة وأخلاق ومثل عليا ليهتدى المسلم فى كل مكان فى حياته ، ويهديه الى الرشد ·· ان (الأستاذ المؤلف) يرى أن المسلمين اليوم فى أشد الحاجة الى من يفسر لهم القرآن تفسيرا دينيا خلقيا عصريا ·· فقد أراد أن يقدم للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث ما يقرب القرآن من أفهامهم ، وأراد شرحا جديدا يفهمون به القرآن من حيث هو كتاب منزل غرضه الهداية والوعظ،

ومن حيث هو أصل العقيــدة الاسلاميــة ، وما هى خصــائص النفس المسلمة ٠٠ وعنده أن الأمم الاسلامية اليوم فى حاجة الى ايضاح ما فى دينهم من السمو الخلقى البالغ على النحو الذى يقنع المحدثين ٠٠ ومن المؤكد أن الاسلام فى هذا العصر يحتاج الى أن يعرف العالم عنه الشىء الكثير وذلك بأسلوب المفكرين المعاصرين ٠٠ أن معجزة القرآن تتمثل فيما حققه من نجاح فى اخراج الأمة العربية فى سنوات قليلة من وثنية بدائية الى أسمى الايمان ٠٠ لقد نقلهم من هذه الوثنية الى أرقى مراتب التنزيه . وهو أمر يحتاج الى سمو فى الفكر ، وعلو فى النفس لم يكن للعرب أن يبلغوه من دون القرآن الكريم ٠

ويعرض الأستاذ المؤلف لثلاثــة أســاليب لفهم القرآن الكريم : التأويل ، والتأمل ، والتدبر ٠٠ فالتأويل هو ما جرى عليه المفسرون من شرح الآيات ، وبيان معانيها ، وما يتعلق بذلك من أسباب النزول ٠٠ وأوجه الدقة فى الآيات بيانا واعجازا أما التأمل : فهو بيان مغزى التنزيل وحكمة اختيار الأحداث التى وردت فى آياته مما يكون فيه من مواعظ وعبر واهتداء وميدانه استخلاص ما تحتوى عليه الآيات ، والقصص من هداية المتأملين فيها ٠٠ وهناك التدبر وهو بيان أثر التأمل فى نفس كل انسان ٠٠ ويعرض « الأستاذ المؤلف » لبعض القصص القرانية على نحو الأساليب الثلاثة ٠٠ منها قصة آدم وهى تمثل عاقبــة العصيان ، وما يجره على الناس فيحرمهم الخير ٠٠ وكذلك التوبة وحددها ٠٠ فهى قصة رمزية وفيها شرح لطبيعة الانسان ومصدر شروره ، وما أدى اليه عصيانه ، وكل ما فى الصفات البشرية من مزايا وسوءات قال تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » ٠٠ ان بقية المخلوقات الأخرى كالملائكة والحيوان والنبات والجماد لم تخرج عن أوامر الله لكن الله أراد أن يجعل مخلوقا يختلف عن الآخرين ، فخرج عن اراداته وعصى أن يسجد لآدم ٠٠ لقــد أعطى الله الانســان الارادة والعقل حتى يكون قادرا على الاختيار ، وجعل له الحرية فى اختيار الطاعة أو العصيان ٠٠ هنالك بدأ له الشر جذابا مغريا ٠٠ أغراه بالعصــيان ٠٠ فعصى آدم ربه ٠٠ ولم يكن ذلك الا جزءا من حكمة الله ٠٠ وكان عصيانه واضحا صريحا « فلم يكن هناك مناص من أن يحمله الله مغبة عصيانه بحرمانه نعيم الجنة الى حين ٠٠ ووجد آدم أن عليه عبء اختيــار الخير والشر ، وكان عليه أن ينبين بعقله وهداية الله ما هو صلاح له ، وما هو محرم ٠٠ لقــد جعل الله الانسان ذا ارادة ، وجعل للشر عليه سلطانا ، وجعل للناس عبء مقاومتهم له ٠ أما قصــة قابيل وهابيل فتمثل بلوغ الشر غايته بقتل الأخ أخاه٠٠وفى رأى أستاذنا أن هذه القصة أبلغ تعبير عما يغرى النفس حين يتحكم فيها الحقد والغيرة ٠٠ وتأتى قصة نوح لتكون تبيانا لأمر الرجل

البعيد النظر الذى يدعو قومه أن يعدوا عدتهم لما قد يقع لهم من مكروه، فتأخذهم العزة ، ويعصون أمره ، فيأتيهم العذاب فجأة حيث لا نجاة منه ٠٠ اما ابراهيم ففيه تتمثل غاية الطاعة ، وهو خير مثال لحياة الذين يتعرضون للأذى فى سبيل الدعوة الى الحق ٠ وهناك قصص أخرى للأنبياء أصحاب الشرائع التى تتضمن ما تهتدى به النفس الى سواء السبيل ٠٠ ويحدثنا كتاب ذكر الحكيم عن بنى اسرائيل فيقول (أستاذنا) فى صفحة ٧٤ : (انهم كانوا يتعالون على العرب فى الجاهلية ، يفخرون عليهم أن عندهم كتابا انزله الله عليهم ، يهديهم الى الحق ٠٠ وكان مظهر هذا التعالى انهم كانوا يعتقدون أنهم وحدهم عرفوا الله ، والدين والحق٠٠ وهو مظهر من مظاهر اعتقاد بنى اسرائيل انهم شعب الله المختار ٠٠ وكانوا يقولون لا نؤمن الا بما أنزل الينا ، ونكفر بما وراءه ٠٠ وكأنهم كانوا على يقين أن الجنة لهم من دون الناس ، وهم يقولون أن لهم وحدهم الحظوة عند الله ٠٠ وكان اليهود يعلمون ان نجاح الدعوة الاسلامية يقضى على ما كانوا يستمتعون به من تفوق دينى وعقلى واجتماعى واقتصادى على من حولهم من العرب ٠٠ ولا نزاع أن انكارهم ما جاء فى القرآن ، مرجعه الى الدفاع عن امتيازاتهم هذه) وفى الكتاب موضوع بعنوان معنى الظلم فى القرآن الكريم ٠٠ أن الظلم هنا هو الجور ، ومجاوزة الحد ٠٠ وهذا هو أصل معنى الظلم ٠٠ فهو ضد العدل ٠٠ وآيات الظلم تنقسم الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ثلاث وخمسون آية ، يقع فيها الظلم على الغير كقوله تعالى « وما ربك بظلام للعبيد » وقوله « ولا يظلمون فتيلا » ٠ وقوله « فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » أى لا تظلمون غيركم ، ولا يظلمكم غيركم ٠٠ وفى هذا القسم من الآيات التى يقع فيها الظلم على الغير يكون معنى الظلم والجور ٠٠ أما **القسم الثانى** فيضم تسعا وعشرين آية وفيها جاءت كلمة الظلم ومعناها الجور ٠٠ ويعنى الظلم هنا (ظلم النفس) وهو مذهب خلقى نفسى اختص به الاسلام ٠ ويأتى **القسم الثالث** ويضم مائة وسبعا وتسعين آية ، وفيها جاءت كلمة الظلم ٠٠ وفى رأى الأستاذ الكبير أن الظلم فى هذه الآيات معناه ظلم النفس وهو يدل على أمور مختلفة كالشرك بالله ، والنفاق ، والعصيان ، وتعدى حدود الله ، والقتل ، وارتكاب الفاحشة وما الى ذلك ٠ أن ظلم النفس تعبير اسلامى خالص٠٠فهذا التعبير لم يوجد الا فى القرآن من الكتب المنزلة٠٠ ومن ظلم النفس مخالفة الرسل وعصيان أمرهم وارتكابه ٠٠ فالله يجعل كل من ارتكب اثما أو ضل سبيل الحق ، وكل من حاد عن الطريق القويم ، وكل من تعدى حدود الله انما هو ظالم لنفسه ٠

كتاب وحـدة المعرفة :

يرى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين أن العلم كثرت فروعه ، وتعددت أوجه نشاطه ·· فالعلم عنده سواء كان علما طبيعيا أو علما انسانيا انما يقوم على القوانين التى هى خلاصة مشاهد وخبرات وتجارب ·· وهى القوانين التى تعلل ظواهر العلم ، وتفسر مادته ، ملتزمة فى ذلك بالمناهج العديدة ، المتنوعة · ومن الواضح أن المعطيات العلمية سواء كانت فيزيائية ، أو انسانية انما هى خلاصة النتـائج التى يمكن أن نستقطرها عن طريق المناهج العلميـة التى تقوم أساسا عـلى التحليل والتركيب ·· ومن ثم ، فأشتات المعرفة التى نستخلصها من كل فروع العلم يمكن أن تتبلور جميعا فى مركز واحد : هو التحليل والتركيب · ولما كانت أفكار العلوم كلها يمكن أن نستنتجها فى ضوء محور واحد : هو التحليل والتركيب ، فقد ينبنى على ذلك ، تجميع أوجه فروع العلم ، واستقطابها فى وحدة محكمة متماسكة هى وحدة المعرفة ·

وفى ضوء هذه النظرية التى ينادى بها الأستـاذ الدكتور محمد كامل حسين ، فى كتابه وحدة المعرفة يضع الطبيعة وقوانينها ـ لتأكده من صدقها ويقينها كأساس للمعرفة ، ويجعل القوانين البيولوجية امتدادا لقوانين الطبيعة ، ويجعل قوانين الانسانيات امتدادا للقوانين البيولوجية ، اما الميتافيزيقا ، فهى عنده امتداد للانسانيات · ومن أجل هذا ، يرى الأستاذ المؤلف أن المعرفة الصحيحة انما هى المطابقة بين نظامين ـ قد يختلفان من ناحية المظهر ولكنهما يتطابقان فى جوهرهما الا وهو نظام الكون ، ونظام العقل · فمقياس الصواب من الوجهة العلمية ، انما هو اتساق كل جزء من النظام الكونى مع أجزائه الأخرى ، اتساقا يقوم على نظام ثابت يتفق ونظام العقل ·· أما الحقيقة الجزئية ، فلا تعد حقيقة مالم يطابق نظامها نظام الأجزاء الأخرى ·· وقد أراد الأستاذ المؤلف أن يقوم بترتيب طبيعى للقوانين الكونية ، فهو يبدأ بأبسط القوانين وأعمها ، وأدناها وهى قوانين المادة ، ثم يتلو ذلك قوانين الحياة وهى أكثر تعقيدا ورقيا ·· أما قوانين الانسـان فتعتبر أخص وأرقى وأكثر تعقيدا من قوانين الحياة ويعزو أستاذنا سبب اضطراب المعرفة ، أنها لم تبدأ من البسيط الى المعقد الى الأكثر تعقيدا ·· ولكنها بدأت بالانسانيات ، ثم تبعتها بعلوم الحياة ، ثم الماديات ··ومن أجل هذا ،جاءالخلط والاضطراب ، والتفكك ·· ثم يضرب الدكتور مثلا عن المعرفة بجميع أبعادها،وتاريخها ، ونشأتها ، ونموها ، بثلاثة رجال يقفون على حافـة بحيرة فى وسطها شجرة باسقة يغطيها الماء ، فلا يظهر منها الا أوراقها وثمارها ·· بدأ أولهم بالبحث فى هذه الأوراق ، والثمار ، بحث خصائصها وتغيراتها ، وتبين ما تحدثه فيها من تقلبات الفصول ، وحالة الجو ، وصفات الماء ··

وجمع من ذلك كله علمـا كثيرا وخلص من ذلك كله الى ايجـاد قوانين صادقة فى بعض وجوهها ·· فقد عرف أن الثمار يتم تكوينها فى الربيع، وأن ظهور الطمى يصحبه ازدياد فى خضرة أوراقها ·· علم هذا الرجل يقوم على مشاهدات صادقة ، واستنتاجات صحيحة وعـلاقات بين الأشياء تطابق الواقع ، الا أن ذلك لا يكفى للعلم بطبيعة الشجرة وهيأتها ·· هذا الرجل رمز للعلوم الانسانية من فلسفة واجتماع وأخلاق ·

ثم اهتدى الرجل الثانى الى طريقة الغوص فى الماء · فكشف بذلك عن أغصان الشجرة وجذعها ، ودرس صفاتها وتربتها وعلم من جزاء الغوص فى الماء ، علما كثيرا ، الا أنه لم يتبين علاقة ذلك كله ، بما فوق الماء ، وما تحت الأرض ·· هذا الرجل أقرب الى تصور الشجرة عـلى حقيقتها من الرجل الذى بقى على الشاطىء ·· ان الرجل الغائص فى جوف الماء انما ينتمى الى علماء الحياة أى علم الكائنات الحية الذى يعد أكثر لصوقا لعلماء الانسانيات ·· أما الرجل الثالث،فكان لديه جهاز يستطيع به أن يطرد الماء عن قاع البحيرة ، فاستطاع بذلك ، أن يحفر أرضها ، ويتبين جذور الشجرة ، وهو ما لم ينتبه أحد من صفاته ·· هذا الرجل مثل علماء الطبيعيات ·· بذلك التشبيه للمعرفة يوحد أستاذنا بين فروع المعرفة المختلفة ، فهى عنده أشبه بالشـجرة التى تضم ساقا ، وفروعا وأوراقا وجذورا وثمارا ·

ثم ينتقل الأستاذ المؤلف الى موضوع آخر فى كتابه وحدة المعرفة ، وهو جهاز التفكير ·· وهو فى نظره الأداة التى نستعين بها فى تحقيق ما نصبو اليه من أهداف وغايات · هذه الأداة هى العقل ، وعنده أن العقل لا يطيق الفوضى ، وهو قادر على أن يضفى روح النظام على الأشياء حتى يمكن فهمها · وهو فوق ذلك ، قادر على الابداع والابتكار · ويتلو ذلك حديثه عن مذاهب التفكير ، فهو يرى أن مذاهب التفكير الكبرى يمكن خلاصتها فى نوعين أساسيين : النوع العلمى ، والثانى النوع الفلسفى والدينى ·· الأول موضوعه يتمثل فى ربط الأشيـاء بعضهـا ببعض ، وكشف العلاقات بين الأسباب والمسببات ·· أما النوع الثانى فهو يتصل بالمفاهيم الكلية ، والغايات ، والمثل العليـا ·· فالتفكير الفلسفى والدينى يبـدأ بأواخر الأمور ، وبالنتائج النهائية ·· ويعمل على تفسيرها تفسيرا شاملا كاملا ، وهو يضيق بالتفاصيل ويزعجه البحث الدقيق فيمـا هو واقع فعلا · وعلى هذا ، تكون الفلسفة عنده حائرة معلقة بين العلم والدين ·· ومن الموضوعات التى يعرضها موضوع : ــ خطأ التفكير الثنائى ، فقديما قسم الطبيعيون الأشياء الى حار وبارد ، ورطب ويابس وتحدث الفلاسفة عن الخطـأ والصواب على أنهما نقيضان ، ورجال الدين تحدثوا عن الخير

والشر ٠٠ ولا يكاد يخلو مذهب من أثر التفكير الثنائي الذى يعرض له « مؤلفنا » فعنده أن « العقل » يطمئن الى هذا التقسيم فالشيء اما متحرك أو ساكن ، وأما رطب أو يابس ، وأما حار أو بارد ٠٠ ويعزو ذلك الى موقف الانسان فى العصور الماضية فقد جعل نفسه مركز العالم ثم وضع الأشياء كلها عن يمينه أو يساره ، وأصبح الانسان يعيش الامور بنفسه ويرتبها ترتيبا هو محوره ، فالبارد هو ما يشعر ببرودته وكذا الحار ، والخير والشر ٠٠ وعند الأستـاذ المؤلف أنه ينبغى القضـاء على مثل هذه الثنائية الفكرية ، فان التفكير لن يستقيم حتى نخلص من اعتبار الانسان مقياسا تقـاس به الأمور ٠٠ ولقد ثبت فى العـلوم الطبيعية أن التفكير الثنـائى لا حقيقة له ، فليس لحرارة الانسـان مغزى علمى خاص ٠٠ لقد قضى على هذه الثنائية حين وجدت الأجهزة التى تقاس بها صفات الأشياء مستقلة عن حواس الانسان ٠٠ ويحدثنا الدكتور محمد كامل حسين عن موضـوع القوانين والأشياء فهو يرى أن الحيـاة لا تعدو أن تكون مجموعة قوانين تعمل فى الأشياء ٠٠ ولقد قسم الناس الصفات الى معنوية ومادية كل له قوانينه الخاصة ٠٠ فلو وقفت القوانين المعنوية لأصبح الانسـان حيوانا ولو وقفت القوانين الطبيعية لأنعدمت الأجسام ، وأصبح العالم كله جزئيات ٠٠ ولو وقفت القوانين الكيمائية لأنعدمت الجزئيات وأصبح العالم كله ذرات ، ولو انعدمت القوانين الذرية لأنعدمت الذرات وأصبح العالم كله بروتونات والكترونات وهكذا ٠ فالاشياء لا توجد بغير قوانينها والقوانين لا توجـد الا بأشيائها ٠٠ على أن هنـاك قانونا أعلى من كل القوانين ذلك هو قانون الضمير والارادة ٠٠ أنه لا يعمل الا بعد أن تعمل الارادة والقوة والعلم ، أنه أعلى قانون انسانى ٠٠ ولذلك فان من لم ينته يوما عن عمل يرغب عليه ، يكون قد حكم على نفسه بالحرمان من أرقى الصفات الانسانية ٠

كتاب التحليل البيولوجى للتاريخ :

التاريخ هو الزمن ، والزمن هو الحركة ، والحركـة هى التغير ، والتبدل ، والتحول من حال الى حال ، فاذا طبقنا هذه المقدمة على الكائن الحى ، نجده فى خلال رحلة الزمن يولد وينمو ويتطور ٠٠ أى فى البدء كان وليدا ثم طفلا ، ثم شابا فرجلا ثم شيخا هرما طحنته السنون أنه فى تلك المرحلة يذبل ، ويتقلص وينكمش ثم يتلاشى ٠٠ فالانسان ككائن حى يؤثر فيه الزمن ويطبع هذه الآثار على مظهره الخارجى وحياته الداخلية ومن ثم نجده يسير فى رحلته الزمنية أى التاريخية فى خطين اثنين : خط صـاعد ثم خط هابط ٠٠ فالعوامل البيولوجيـة هى التى تتأثر بمؤثرات الزمن ، وهى التى تدفعه بقواها الديناميكيـة الى الصعود ثم

تحتم عليه أن يتراجع شيئا فشيئا الى الدرك الهابط . فاذا كان التاريخ انما هو القوة الدافعة لنمو الانسان ، فانه حتم عليه أن يكون خاضعا لقوانين بيولوجية خاصة به ومدار هذه القوانين هو أثر الزمن فى حياة الانسان الخارجية والحياة العقلية .

على اننا نستطيع أن نتعمق هذا الموضوع اذا درسنا غرائز الأفراد، والجماعات ، والمدنيات .. فالغرائز تشمل كل ما تتكون منه شخصية الانسان ، وكل ما يتعلق بانفعالاته وشعوره ومزاجه ، وكل ما يتعلق بالنفس من حب وكراهية أو ايمان وكفر .. ونحن لا نعلم شيئا عن الوسائل التى يمكن بها تغيير التركيب الداخلى للكائن الحى .. وفى هذا الشأن يقول الدكتور محمد كامل حسين : (أن الغرائز أهم شىء فى حياة الأفراد .. بها تتحدد غايات الحياة ، وأسلوبها ، والناس لا يعملون بعقولهم أو بارادتهم . انما يعملون وفقا لما جبلوا عليه من طباع .. وليس للزمن أو التاريخ أثر فى هذه الغرائز) .

أما غرائز الجماعات فتختلف فى طبيعتها عن غرائز الأفراد ، فليس للجماعات احساس قوى بالخير والشر . ولا بالايمان والكفر مثلا . لكن شعورها بالظلم والعدل ، وبالحرية والاستعباد ، وبالولاء والتمرد مرهف جدا .. وحين تتشابه الغرائز عند الفرد والجماعات يكون التقدير للغرائز مختلفا .. مثال ذلك الاحساس بالشرف ، والحرية .. الفرد يرى الشرف أكبر من الحرية ، فقد يفقد الرجل حريته ولا يفقد شرفه ، ويكون معقولا أن يفقد حريته ويضحى بها فى سبيل شرفه . أما الجماعات فان احساسها بالحرية يكون أقوى من احساسها بالشرف ، اذ لا يمكن أن يكون للأمة شرف اذا فقدت حريتها لأن فقدانها الحرية يفقدها الشرف أيضا .. ان غرائز الجماعات أصعب من غرائز الأفراد لكن لكل أمة صفات مميزة على مر العصور ، فالأمة الأسبانية مثلا لها صفات ثابتة لم تتغير منذ كانت أكبر أمة فى أوربا ، ولم تفارقها حتى اليوم حين لم يعد لها ذلك المقام.. واليست حياة الجماعة خاضعة للزمن ولا للحياة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ولا تتبع تقلباتها . أما غرائز المدنيات ، فلكل مدنية صفة خاصة تلازمها دواما .. وتتميز المدنيات بما يكون موضوع عناية أهلها وبأسلوب تفكيرها ، فالمدنية الصينية خلقية ، والهندية ميتافيزيقية ، ومدنية الشرق الأوسط دينية ، والمدنبة الاغريقية منطقية جمالية ، والرومانية سياسية اجتماعية ، والغربية طبيعية تجريبية .. وهذه الصفات لا تفارق المدنيات من أول أمرها الى آخره .. وليس للزمن عليها أثر كبير .

ثم يحدثنا الدكتور محمد كامل حسين عن فنون الأفراد وعنده أن

كل عمل يأتيه الانسان يكون فيه عامل الذوق ، والاختيار يعد عملا فنيا، والفنون البحتة ليست الا ابراز شخصية الانسان فى شكل جميل ، وقد تبرز هذه الشخصية فى غير الآثار الفنية ، فكل عمل يقوم به الانسان فى حياته يدل على شخصيته .. أما عن فنون الجماعات فهى عند أستاذنا أكبر مادة للتاريخ ، ذلك لأن الزمن فيها أوضح منه فى حياة الأفراد ، وحياة المدنيات ، وقد أوضح الدكتور محمد كامل حسين أن أهم ما فى حياة الفرد غرائزه ، وأن أهم البحوث البيولوجية المتعلقة به انما هى بيولوجية نفسية خلقية أما المدنيات فأهم ما فيها الحيـاة العقلية وهى تاريخية تسير على نهج بسيط هو النمو المستمر . أما الجماعات فأهم ما فيها حياتها الخارجية وفنونها .. ففى الحياة الخارجية للجماعات نتبين أهم قوانين التاريخ .. ولها من طبيعتها التاريخية ومن تنوع مظاهرها، ووضوح معالمها وطول مدتها ما يجعل البحث فى تاريخها أكثر وضوحا، وأظهر نتائج من البحث فى الأفراد أو المدنيات .

أحمد أمين الأديب وصاحب النظر الاسلامى

انه أديب ومفكر اسـلامى ، وله نظرات فى الحيـاة الاجتماعيـة ولد فى القاهرة عام ١٨٨٧ وتوفى فى الثلاثين من يونيو عام ١٩٥٤ ٠٠٠

درس بالأزهر وتولى مدرسة القضـاء الشرعى فترة من الزمن ثم انتقل للتدريس فى كليـة الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) ثم انتخب عميدا لها وعين عضوا بالمجمع اللغوى ، اتجه الى التأليف فى عالم الفلسفة فكتب (الأخلاق) عام ١٩٢٣ ثم عنى بدراسة الحياة العقلية فى الاسلام فأصدر أهم كتبه : « فجر الاسلام » ، « ضحى الاسلام » وهو ثلاثة أجزاء و « ظهر الاسلام » وهو أربعة أجزاء ٠

وسوف نلقى الضوء على هذه الكتب التى تمثل الحياة العقلية عند المسلمين ونشأتها وتطورها حتى العصور الحديثة ٠

نشر عدة مقالات فى مجلتى (الرسالة) و (الثقافة) التى كان يرأس تحريرها وقد جمع هذه المقالات فى كتاب أسماه : فيض الخاطر ظهر على أجزاء متتابعة قبل وفاته ، كان رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر التى قدمت أمهات الكتب العربية القراء الأمة العربية والاسلامية، كتب سيرته الذاتية فى كتاب باسم (حياتى) وشارك الدكتور زكى نجيب محمود فى تأليف كتاب : (قصة الأدب فى العالم) ٠

وهو ثلاثة أجزاء حول النتاج الأدبى فى العالم من قصـة وشعر ومقالة ٠

وذلك فى عصور مختلفة قديمـة ووسيطة ، وحديثه فى الشرق والغرب مع نماذج من كل أدب ، أسلوبه يمتاز بالوضوح والنصوع والبعد عن الغبش والتوابل والتزاويق اللفظية ٠٠٠٠٠

وجدير بالذكر أن (أحمد أمين) حاول فى كتبه الاسلامية : (فجر

الاسلام . وضحاه . وظهره) أن يقوم بتحليل العقل الاسلامى فى تطوره وارتقائه ، وحاول أن يلتمس العلل البعيدة التى غذت العقلية الاسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها على مر العصور ، واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع الى العوامل الدينية المستمدة من الاسلام ، والى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

انه نظر الى العقل الاسلامى فشرحه فى حرية شديدة ، وانتقل من التحليل الى الأفكار التركيبية التى انتهت اليها العقلية الاسلامية حتى تحققت فى الحياة واستوت فى مظاهر السلوك وبرزت فى الأقوال المسطرة والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

وقد التزم (أحمد أمين) فى بحثه أبوابا ثلاثة كان يفصلها عندما تناول الحضارة الاسلامية وهذه الأبواب الثلاثة هى الناحية الاجتماعية ثم العلمية ثم الدينية ومن ثم ، اذا شئنا أن نعرف العقلية الاسلامية فلابد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين وأدواتها التى تبرز بها وتتحقق وهى العلوم المختلفة، وحياتها بل روحها وهى المراكز الاجتماعية التى تركزت فيها ونمت وترعرعت .. ومن ثم ، فالفكرة فى نظر (أحمد أمين) أشبه بالنهر الجارى المتدفق . الحياة الاجتماعية روافده والحركة العلمية مجراه والدين مصبه وغايته ، ونجد تطبيق هذه الفلسفة واضحة أعظم الوضوح فى كتابه (فجر الاسلام) ، ومفصلة تفصيلا جليا فى كتاب (ضحى الاسلام) وأشد تفصيلا فى كتاب (ظهر الاسلام) .

« الخصائص المميزة لشخصية أحمد أمين »

لعل من أهم الخصال التى أضفت على شخصيته طابع الحكمة والتفكير الموضوعى انما هى حريته والبعد عن الدجماطيقية والترحيب بالنقد ، والجلاء والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ..

وسوف نلقى الضوء على كل خاصية من هذه الخصائص التى كان يتسم بها أستاذنا الكبير فقد كان يؤمن بحرية الفكر الى أبعد الحدود ، فلا يقول الا ما يعتقد ولا يحقق الا بالحق وحده ، لا يهمه مصانعة ذوى السلطان أو تملق الجماهير أو مشايعة الأهواء وتبدو هذه الحرية فى الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها الجماهير ومشاعرهم ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد .. جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة أهل العقل فى الاسلام ونادى بالرجوع اليه مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع، وحكموا على أصحابه بالكفر وحرقوا كتبهم ومنعوا تدريسها فى مدارسهم ،

جاهر برأيه فى الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جزاء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر فجر الاسلام ، كذلك رأيناه لم يبال بالسنة ، كما لم يبال بالشيعة في سبيل اعلان رأية وحرية فكره وذلك أعظم تعبير عن شخصية أديبنا الفيلسوف ٠

وجـدير بالذكر أن هذه الحرية قـد صحبته فى جميع آرائه الأخرى سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، فها هو يزور بغداد عقب انتهائه من كتاب (فجر الاسلام) وكيف تعرض منه للهجوم على الشيعـة وكيف دبرت له الشيعة مؤامرة كادت تودى به لولا خروجه من بغداد خلسة وخيفة من هؤلاء المتآمرين فأنظر اليه وهو يحكى عن تلك الحادثة فى كتاب حياتى صفحة ٢٦٢ (ولما أخرجت كتاب (فجر الاسلام) كان له أثر فى نفوس كثير من الشيعة، كما كنت أقدر ذلك لأنى كنت أظن أن البحث العلمى التاريخى شيء والحياة العملية الحاضرة شيء آخر ولكن شيعة العراق والشام غضبوا وألفوا فى الرد عليه كتبا ومقالات شديدة اللهجة لم أغضب منها ٠٠ ولما لقيت شيخ الشيعة فى العراق الأستاذ (آل كاشف الغطاء) عاتبنى على ماكتبت عن الشيعـة فى فجر الاسلام وقال : انى استندت فيما كتبت على الخصوم ،وكان الواجب أن استنـد الى كتب القوم أنفسهم ، وقد يكون ذلك صحيحـا فى بعض المواقف ، ولكنى استندت على كتبهم فى ضحى الاسلام ونقدت بعض آرائهم نقدا عقليا نزيها مستندا على كتبهم ٠٠٠ والحق أنى لا أحمل تعصبا لسنية ولا شيعة ، والقد نقدت من مذاهب أهل السنة ما لا يقل عن نقدى لمذهب الشيعة ، وأعليت من شأن المعتزلة ، بعد أن وضعهم السنيون فى الدرك الأسفل احقاقا لما اعتقدت أنه الحق ٠

وقد حدث وأنا فى بغداد حادث خطير ، فقد دعينا لنشهد مجلسا من مجالس العزاء يقيمها الشيعة فى ليالى الامام على ، فذهبنا الى (الحسينية) بالكوخ ـ ضاحية من ضواحى بغداد ـ فرأينا دارا واسعة احتشد فيها عدد لايقل عن أربعة آلاف ، وقد سرى فى القوم أن وفد مصر ـ حضر ، فازدحموا على استقباله ، وأخليت لنا ناحية جلسنا فيها ، وخطب بعض الخطباء لتهنئتنا ورد عليهم الأستاذ عبد الوهاب عزام التحية بمثلها ، ثم قام خطيب الليلة الأستاذ كاظم الكاظمى ، وهو خطيب طلق اللسان حسن التأثير فى السامعين فرحب بالوفد وبأحمد أمين ، ولكنه عرج من ذلك على كتاب فجر الاسلام وما فيه من تجن على الشيعة وأكثر الحاضرين من عوام الشيعة الذين تؤلمهم هذه الأقوال أشد الألم ، ولا يمنعهم مانع أن يفتكوا بكل من يعتدى على عقيدتهم ، ولكن الخطيب ماهر ، اذ أحسن هياج الجمهور وتحفزهم اقتبس جملة من فجر الاسلام فيها مدح الشيعة ، وهكذا ظل الرجل يلعب بعواطف الناس بين مد وجزر وتهييج وتهدئة فلما طال هذا وخشى بعض الحاضرين سوء العاقبة

نصحنا ناصح أن ننسل من باب خلفى ففعلنا ونجونا بأنفسنا ٠٠٠٠ على أن الحرية التى كان ينادى بها أحمد أمين ظلت تصحبه فى جميع آرائه ــ سواء كانت آراء سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، تماما كما يتبين لنا هذا من النظر الى مجموعة مقالاته التى جمعها فى كتابه الرائع : (فيض الخاطر)فمن أراد أن يبلور مذهبه الفلسفى فى الحياة فعليه أن يتتبع هذه المقالات ٠

أما العنصر الثانى المكون لتفكيره فهو البعد عن الدجماطيقية والقطيعة، فلم يكن أحمد أمين يقطع بالرأى ، الا بعد البحث والتنقيب وجمع الأدلة والبراهين ، بل كان على استعداد للنزول عن رأيه اذا اتضح له بطلانه، أو نبهه اليه ناقد وهذا يسلمنا الى الخصلة الثالثة وهى النقد والرغبة فى النزعة النقدية فى الاصلاح ــ اصلاح العقول والنفوس ، بمعنى النظر فى العقل البشرى لمعرفة حدوده وتقال فلسفة نقدية أيضا لمن يعدل عن النزعة الدجماطيقية حتى لينقد نفسه بنفسه كما فعل أفلاطون فى المثل فى محاورة بارمنيدس ٠

وكان أحمد أمين نقديا على كلا المعنيين وحسبنا أن نشير الى ذلك الموقف النقدى المثالى الذى ضربه أحمد أمين عقب نشر الطبعة الأولى من كتــاب فجر الاسلام ٠٠ فلعل هذا الموقف يعد حدثا خطيرا فى الحيــاة الأدبيــة والفكرية فى مصر والشرق ، فلم يسبق لكاتب أن فتح صدر مجلته لنشر النقد الذى كان لاذعا كما فعل أحمد أمين فى مجلة الثقافة ٠

أما الخصلة الرابعة فهى الجلاء والوضوح ، وجاء هذا الوضوح من أمرين ، الأول وضوح الرأى فى ذهنه والابتعاد عن التزويق والزركشة فى اللغة ٠٠ كان يستطيع أن يتقعر ويشجع ويجرى على أساليب الجاحظ وغيره لكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ وزنين الفكر على جرى العبارة والتعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى فى الصميم دون برقشــة أو زركشة حتى يفهم الناس العناية بالأفكار والابتعاد عن الصنعة والتقليد الذى قتل الفكر وأثقله ٠

أما الخصلة الخامسة فهى النظرة الكلية الشاملة دون الاغراق فى التفصيــلات وهذه هى الفلسفــة عنــد بعض المشتغلين بهــا يقــول : ولديمررانت فى كتابه (مباهج الفلسفة) :

(سوف نعرف الفلسفة على أنها النظرة الكلية والعقل الذى يبسط الحياة ويحيل الاضطراب الى وحدة) ٠

والحق كان أحمــد أمين فيلسوفا بحق وحقيق من خلال كتــاباته

وخصوصا من خلال الفصل الختامى من ظهر الاسلام ٠٠ وكذا كتابه : (الحياة العقلية فى الاسلام) فقد ارتفع الى النظرة الكلية الشاملة ٠

على انه يبقى لنا بعد عرض موجز لفكر أحمد أمين أن نلقف بعض الصور والمواقف التى عاشها ٠

دخوله الجامعة : فأنظر اليه حين يستجيب للدكتور طه حسين عميد كليـة الآداب آنذاك حين يحدثه فى التحاقه أستاذا للغة العربية ، فلم يسع أحمد أمين الا أن يستجيب لهذه الدعوة يقول فى كتاب : (حياتى) صفحة ٢١٨ :

(دق جرس التليفون يوما بمنزلى فى مصر الجديدة وأنا قاضى بمحكمة الأزبكية عام ١٩٢٦ واذا المتكلم صديقى الدكتور طه حسين يطلب الى مقابلته ، وذهبت لمقابلته فاذا هو يعـرض على أن أكون مدرسا بكليـة الآداب ، فترددت قليلا ثم قبلت ، لنفورى من القضـاء وحبى للتدريس وذهبت الى الكلية حيث قصر الزعفران الآن ، فوجدت شيئا جديدا على ، لا هو كالأزهر ولا كمدرسة القضاء ٠٠ أساتذة كأنهم عصبة أمم ، هذا انجليزى وهذا فرنسى وهذا بلجيكى وهذا ألمـانى وقليل من الأساتذة المصريين ، وليس فيهم معمم الا أنا ، وعميد الكلية بلجيكى ، والطلبـة أحرار ، يحضرون الكلية أو لا يحضرون ، وأقسام الكلية متشعبة قسم للفلسفة ينزعمه الفرنسيون ، وقسم للانجليزية يتزعمه الانجليز ، وقسم للغات القديمة وقسم للجغرافيا وآخر للتاريخ ٠٠ والطلبة موزعون على الأقسام ٠٠ ومن الطلبة عدد كبير يقضى سنة فى كلية الآداب اعدادا لكلية الحقوق ، وقد قضيت زمنـا حتى أفهم كل ذلك ، وأحسست أن الجو مبعثر ، ليس هناك ارتباط وثيق بين الطلبة بعضهم وبعض الأساتذة ، بعضهم وبعض ــ وصدمنى أول أسبوع أنى أحسست حركة تذمر بين العميد البلجيكى والأساتذة لأسباب لا أدريها ٠

أخذت أهيىء نفسى للبيئة الجديدة على مضض حتى فهمت الأوضاع واستقامة الأمور ٠٠ وكان الطلبة كلهم ذكورا ٠ وشاهدت مرة ثلاث بنات فى قسم اللغة الفرنسية علمت أنهن نصف مصريات أبوهن طبيب مصرى وهو المرحوم الدكتور على ابراهيم حسن ، وأمهن ألمانية فساءلت نفسى : هل أعيش حين أرى طالبات مصريات صميمات فى الكلية ، ولكن الزمن كان أسرع مما توقعت ، فامتلأت الكلية بالبنات بعد قليل ٠

ها أنذا أطلق كتب الفقه ، وأعود الى كتب الأدب واللغة والنحو ، ودرست فى أول سنة درسين : درسا أقرأ فيه الكامل للمبرد ، ودرسا أقرأ فيه البلاغة ٠ ومن قديم لم تعجبنى البلاغة العربية ، فبحثت فى

المكتبة الانجليزية عن كتب فى البلاغة فأنا أقرؤها وأقارن بينها وبين ما كتب فى البلاغة العربية وأختار خيرهما وأوفق بين مصطلحاتها ٠

مشكلة العمامة : كان أحمد أمين يصر أن يكون معمما بين الأساتذة ، الأمر الذى جعل الدكتور عبد الرازق السنهورى يتصدى له محاولا اقناعه بعدم ارتداء العمامة لأنه قد صار الآن أستاذا بالجامعة وهذه العمامة ينتمى اليها رجال الدين خصوصا من يعمل بالأزهر الشريف ٠٠ فانظر اليه وهو يتحدث فى هذا الشأن : (وقبل بدء الدراسة فى السنة التالية دارت مناقشة طويلة بينى وبين صديق لى أستاذ فى كلية الحقوق قال لى : لماذا نصر على لبس العمامة والعمامة رمز لرجل الدين ولست الآن رجل دين وانما أنت تعلم اللغة العربية والأدب العربى كما يعلم الفرنسيون اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى وهذه أمور مدنية لا دينية ، ثم ان لبسك العمامة فى وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريبا فى بيئتك٠٠الخ٠ وقد فكرت ، فهذا الذى قاله حق ٠٠ وما زال يلح على حتى استجبت لرغبته ٠٠ ولقد شجعنى على رفض العمامة ما كنت ألاقيه فى لبس العمامة من عناء ، عامة الناس فى مصر يوقرون الطربوش ٠٠ وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العمامة ، ذهبت الى فندق مرة فقال صاحبه ليس لى عنده مكان خال ، واذا بمطربش يأتى بعدى فيخلق له مكان ٠ وأتهيأ مرة لركوب الدرجة الأولى فى الترام فيقول لى الكمسارى : تعالى هنا ٠ مشيرا الى الدرجة الثانية ٠٠ وعدت الى هذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة كنت تلميذا فى مدرسة أم عباس ٠٠ وقد كنت قد نسيت رباط الرقبة كيف يكون ، فكنت ألجأ الى من يربطه لى الى أن تعلمته ، وانتهزت افتتاح الدراسة فى العام الجديد فذهبت مطربشا ، كنت أتعثر فى الشارع وفى الكلية خجلا من الناس ٠٠) ٠

العمامة والزواج : تعثر أحمد أمين فى موضوع الزواج فرغم أنه لم يكن طموحا محبا للزواج من ثرية أو صاحبة جاه ومال الا أنه عانى كثيرا من عمامته فكم تقدم الى بيوت رضوا عن شبابه ٠٠ لكن لم يرضوا عن عمامته ٠٠ فهذه العمامة فى نظرهم لرجل متدين والتدين فى نظرهم يوحى بالتزمت وقلة التمدن والالتصاق بالرجعية والحرص على المال ونحو ذلك من معان منفرة ، والفتاة يسرها الشاب المتمدين اللبق المساير للدنيا ٠٠ انظر اليه وهو يقول فى هذا الشأن : (رضى بى قوم وأحبوا أن يرونى فأحببت أن أريهم أنى متمـدين ، وذهبت اليهم أحمـل كتابا انجليزيا وجلست اليهم وجلسوا الى وتحدثت اليهم حديثا عصريا على آخر طراز وحشرت فى كلامى بعض الكلمات الانجليزية فاستغربوا لذلك ٠ وفهمت انهم أعجبوا بى ورضوا عنى ، ولكن بلغنى أن الفتاة أطلت على من الشباك

وأنا خارج فرأت العمامة والجبة والقفطان فرعبت ورفضت أن تتزوجنى رغم الحاح أهلها ٠٠ وشاء القدر أن تتزوج هذه الفتاة من شاب أنيق كاتبا فى وزارة ولكنه سكير معربد أذاقها المرار فى حياتها الزوجية ثم طلقها ، وما زال يسوء حالها حتى تزوجت بعامل فى التلغراف وجاءت الى وأنا قاضى محكمة الأزبكية تطلب من زوجها النفقة ٠٠) ٠

الجوانية عند عثمان أمين

العبقرية عند الدكتور (عثمان أمين) انما هى الصبر الطويل والجهد الدائب لتذليل العوائق التى تقف فى الطريق ٠

الصبر والاصطبار لبلوغ الهدف ، والحذق والذكاء لتحقيق الأمل ٠

وقد كانت حياة الدكتور (عثمان أمين) سلسلة من المتاعب ، والمعاناة المستمرة التى لم تكن لها حدود ، أو نهاية ٠٠

فما دبت قدمه على الأرض ، الا وتبعتها حصيلة من المشاكل ، والمتاعب التى جعلته ، بقـوة ارادته ـ يطفـو فوق سطحها ويقهرها فائزا ـ فى النهاية ـ بمطالبه وأهدافه ، محققا حريته ، وتفرده ، واستقلاله ٠

مولده : ولد الدكتور (عثمان أمين) فى قرية (مزغونة٠) وهى احدى قرى مديرية الجيزة من أسرة ريفية يعمل أكثر أفرادها فى الزراعة ومن ثم ، نشأ فى بيئة دينية محافظة ، متسامحة وأراد والده أن يحفظ القرآن فأدخله (كتاب القرية) ولم يمكث فى (الكتاب) الا ساعة وبعض ساعة ، ولم يلبث أن تركه الى غير رجعة فرارا من (سيدنا الشيخ) ٠

وأراد الوالد أن يقوم بمهمة تعليمه ، فشرع فى تحفيظه (جزء عم) مستعينا فى ذلك ، بتفسير الأستاذ الامام محمد عبده ٠٠ وأحسب أن طريقة الأستاذ الامام قد استهوته وهو ما يزال طفلا ٠٠ فلعل ما انطبع فى نفسه حينئذ من تفسير الامام لآى الذكر الحكيم فى سور : (الناس) ، و (الفلق) و (أبى لهب) و (الفيل) وغيرها من (جزء عم) قد جعلت الدكتور عثمان أمين يتجه الى اختيار : (محمد عبده ، وآرائه الفلسفية والدينية) موضوعا لرسالة الدكتوراه من جامعة باريس ٠

مدرسة قبطية : وحين أحس والده انه تقدم فى الحفظ مع الفهم ،

رأى أن يدخله فى مدرسة صغيرة قبطية كان قد أنشأها (صراف البلد (سليمان أفندى عطية) الذى كان يشارك المسلمين فى الاحتفال بالعيدين والمولد النبوى واحياء رمضان ٠

وقد كانت المدرسة عبارة عن (فصل واحد) ٠٠ وكان أعضاء هيئة التدريس بها شخصا واحدا اسمه (جورجى أفندى) قدم من الصعيد (الجوانى) ، ليتولى وحده ودون الاستعانة بغيره تعليم جميع المواد لجميع التلاميذ وفى مختلف المستويات فى آن واحد ٠

وكان أول درس عملى جوانى انتفع به فى هذه الفترة من أيام صباه انما هو : التسامح والاخوة ٠٠ أما التسامح فقد تجلى فى الحاقه بمدرسة قبطية المسلمون فيها أقلية ضئيلة و « عثمان أمين » ابن لأحد شيوخ البلد المعممين الحافظين للقرآن ٠٠ واما الأخوة فقد كانت تتجلى فى اقامة صلاة الفجر مع والده فى الدار قبل الخروج ثم وقوف (عثمان أمين) للصلاة والدعاء مع زملائه من الأقباط فى المدرسة قبل أن تبدأ دروس الصباح ٠

ذكريات قاهرية : انتقل (عثمان أمين) من قرية (المزغونة) الى القاهرة فالتحق أولا بمدرسة : (العاصمة الكبرى) وكانت تقع على مقربة من (باب الخلق) ولم يمكث بها الا قليلا ثم انتقل الى مدرسة (الهياتم) وهى تقع ما بين (الناصرية) و (حارة السقائين) ٠

وفى المدرسة السعيدية : التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية وآل على نفسه أن يسهم فى أكثر من وجه من وجوه النشاط الاجتماعى فى المدرسة ، فكان عضوا بجمعيات الخطابة والتمثيل والرحلات والموسيقى والتصوير ٠

دوره فى البحث عن فنان

على مسرح المدرسة اشترك فى تمثيل مسرحيات كثيرة ٠٠ يذكر منها تمثيلية : (البحث عن فنان) حيث قام فيها بدور مستشرق ايطالى يبحث عن شخصية فنية فى بلاد الشرق ، فعثر عليها أخيرا على ضفاف النيل ، على مقهى من المقاهى البلدية ٠٠ وجدير بالذكر أن الأستاذ التابعى كتب نقدا فنيا عن هذه التمثيلية ٠٠ نوه فيها بجهوده فى التمثيل ٠

حياة داخلية نامية متغيرة : كان (الدكتور عثمان أمين) يحس منذ حداثة عمره أن له حياة داخلية نامية متغيرة على الدوام ، زاخرة بالصور والمشاعر والأحلام فقد كانت تمر به فترات صمت طويلة فيمسك عن

الكلام مع غيره ولا يريد أن يعبر لأحد عن مشاعره ٠٠ ويظهر أن حالة الصمت هذه قد بلغت حدا جعل والده يظن انه صبى غبى لا حيلة له فى التعليم ، فلما جاءته آخر العام الدراسى برقية تهنئة من أحد معارفه تنبئه بنجاحه فى الامتحان ونفوقه على أقرانه ، لم يصدق الخبر السار ، فلما تحرى الأمر ، وتأكد من صدق الخبر لم يبد منه أى ارتياح ٠

الى الجامعة المصرية:قبل انمامه للدراسة الثانوية بالمدرسة السعيدية، سرعان ما تلقى نبأ غير سار فقد تزوج والده زوجته الثالثة من القاهرة ٠٠ وكانت امرأة سيئة فقد راحت تكيد له طرف والده واوقعت بينه وبين والده خلافا عائليا عميقا أدى الى توقف عثمان أمين عن الدراسة فترة من الزمان ، ودفعه ذلك الى اشتغاله بالتدريس بمدرسة العياط الابتدائية ، وهى المدرسة التى كان قد أتم فيهـا مرحلة التعليم الابتدائى ٠٠ لكنه سرعان ما انتقل الى الدراسة حتى ظفر بالبكالوريا ٠

ولم تتوقف هذه المرأة عن شنشنتها المعروفة فراحت تكيد له فيما يخص نوعية دراسته فالدكتور عثمان أمين أراد أن يلتحق بكلية الآداب٠٠ أما والده فقد أراد له مدرسة المعلمين العليا ٠٠ وكان سبيل تلك المدرسة ميسرا أمام الطلبة ، اذ تكفلت الدولة بالانفاق عليهم فى التعليم والمعيشة ٠٠ الكنه أصر على الالتحاق بكلية الآداب بالجامعة المصرية ــ وكان قد مضى على انشائها عام واحد ٠٠ واختار من أقسام الكلية قسم الفلسفة على التحديد ٠٠ فى حين كان والده يستنكر اسم الفلسفة ولا يسيغ الاشتغال بها ويراها مرادفة للتعقيد فى الحياة والمروق من الدين ٠

ولما أصر كل من الوالد والدكتور عثمان أمين على موقفه ، صمم (الابن) على أن يستقل بنفسه فعمل على تدبير حياته طوال سنى الدراسة الجامعية ، ودون الاعتماد على أى معونة من والده ٠

وكانت أول خطوة فى سبيل هذا الاستقلال أن طلب مقابلة الأستاذ البلجيكى (جريجوار) وكان عميدا لكلية الآداب ، وراح يوضح له الأمر فوافق فورا على قبوله طالبا فى الكلية بالمجانية الكاملة ٠

أما الخطوة التانيـة التى اتخـذها الدكتور عثمـان أمين فى هذا الشأن ، انه وضع لنفسه نظاما يكفل فيه تحصيل العلم وكسب المعاش فى آن واحـد ومن ثم ، كان ينهض من نومه عنـد الفجر ، ويمضى فى القراءة والدروس حتى يحين موعـد الذهاب الى الجامعـة ٠٠ ويخصص صبيحة كل يوم للاستماع الى المحاضرات ، يخصص وقت العصر للمطالعة فى البيت ، أو مكتبة الجامعة ٠٠ ويخصص وقت المساء لاعطاء الدروس

الخصوصية لبعض تلاميذ المدارس الابتدائية أو للقيام بأعمال الترجمة أو التحرير والتصحيح فى بعض الصحف والمطابع العربية ٠

وجدير بالذكر ، ان الناس أعدوا اصراره على دراسة الفلسفة ـ فى ذلك الوقت ـ جرأة بالغة ٠٠ وقد تيسر الطريق أمام الدكتور عثمان أمين لتحصيل الفلسفة بسبب قيام حركة التجديد التى قادها الامام محمد عبده آنذاك ، فمعروف أن أكثر رجال الدين يحرمون الاشتغال بالفلسفة حتى اذا جاءت الجامعة المصرية الحديثة وقام بتدعيمها كل من محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول ولطفى السيد ٠٠ لم يكن هناك بد من أن تفتح الجامعة قسما للدراسات الفلسفية فى كلية الآداب أقبل عليه الطلاب من كل حدب وصوب ٠

فلسفته

الجوانية فلسفة جديدة اهتدى اليها أستاذنا الدكتور عثمان أمين بعد اطالة النظر فى أمور النفس ، وواقع الحياة والناس ٠٠ وقد نبتت عنده من تأمل روح الدين والأخلاق ومن تأمل آيات القرآن والأحاديث ، ونبعت عنده من خوضه فى أعماق أمتنا وخصائص بيئتنا ودعائم تراثنا الحضارى ٠

والجوانية فلسفة تنظر الى (المخبر) ٠ ولا تقف عند (المظهر) وتلتمس (الباطن) دون أن تقف عند (الظاهر) ٠

وتفحص « الفلسفة الجوانية » عن (الداخل) بعد ملاحظة (الخارج) وتلتفت دائما الى (المعنى) والى (العتمة) والى (الروح) ٠

ان عماد الفلسفة الجوانية أن (الحقيقة) يجب أن تلتمس فيما وراء المظهر الخارجي والوجود العيانى وهذا (الماوراء) وهو المعنى الأول من معانى (الجوانى) من حيث هو مقابل المعنى (البرانى) ٠

واضح أن الدكتور عثمان أمين انما هو صاحب مدرسة فى الفلسفة وله مواقفه فى الفكر الفلسفي وتجاربه مع مختلف الفلسفات ٠

وقد استقرأ (أستاذنا) بعض الشواهد التى تؤكد وجهة نظره فى هذا الصدد ٠٠ فها هو يوضح رؤيته الجوانية فى مجال الفلسفة والأدب فيعرض لنا بعض النماذج الخاصة بالغزالى والخاصة بأدب عباس محمود العقاد ٠

يعرض لنا عن الجوانية الأخلاقية عند الغزالى فيقول :

لقد حمل الغزالى حملة شديدة على الفلاسفة والفقهاء والمتكلمين : ذلك لأن مذاهبهم اتسمت بالبرانيــة ، اذ اصطنعوا الحرفية والشــكلية باستعمالهم ظاهر العقل أو ظاهر الشرع من جهــة وفصلهم العقل عن الشرع من جهة أخرى ٠

والغزالى يؤكد لنا هــذا المعنى فيقول : (ان العقل لن يهتــدى الا بالشرع والشرع لم يتبين الا بالعقل ٠٠ فالعقل كالبصر ٠٠ والشرع كالشعاع ولن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، والن يغنى الشعاع ما لم يكن البصر ٠٠ وأيضا فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذى يمده : فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضىء الزيت) ٠

ونستطيع أن نفهم مخالفــة الغزالى لغلاة الصوفيــة ، وأصحــاب الشطحات ، لعدم الاخلاص فى أحوالهم ، وخروجهم عن حــد الأدب مع الله ٠ وانسلاخهم عن أحكام الشريعة ، ونقده للمدعين التصوف ـ فهذا فى نظر الغزالى ـ تصوف مسرحى برانى لا ينبغى حضور القلب مع الله وخلوص القصد له ٠٠ أما التصوف الذى يريده الغزالى فتصوف ذوقى جوانى ، يهدف الى الكمال الخلقى تطهيرا للقلب وتنقية للنفس ٠

والأخلاق عند الغزالى ليست وصفا لظواهر الأفعال ، بل هى سعى وتحقيق جوهرها الأبدى ، ولا تقاس قيمة العمل الأخلاقى بنتائجه ، بل بمصدره من صفاء القلب وباعثه من استقامة الضمير ٠

ويؤكد الغزالى ـ جوانية الأخلاق الاسلامية ـ مبينا انها قائمة فى صميمها على الايمان واليقين ، أى التصديق بالقلب ٠

والأخلاق الجوانية عند الغزالى هى أخلاق الجد والعمل وليست أخلاق الدعة والتراخى ، أو أخلاق التواكل ٠

وحاصل موقفه من الأخلاق الاسلامية هو التمــاس المعنى الجوانى للأقوال والأفعال ، وربط الأعمال الظاهرة بالبواعث الباطنة ، واشتراط حضور القلب وصدق النية ، وتمام الاخلاص فى العادات أو المعاملات ٠

وبعد هذا ، تعمق فى فهم المثل الأعلى الأخلاقى وربط لحياة الناس بحياة المجتمع الفاضل ٠

ولا يفوت الدكتور عثمان أمين أن يعرض لكتابات العقاد ويستبطن جوفها ويعرض لخصائصها (الجوانية) فواضح أن العقاد جمع بين الوضوح والتركيز ، والائتلاف بين المنطق الصارم والحس المرهف وبين المثال المجرد والحقيقة الواقعة اما فى مجال الأدب ٠٠ فتتجلى منازع العقاد الجوانية فى

الايمان بالروح . والسعى الى الأصالة ، ومحاولة الفهم بالتعاطف والنفاذ الى اللب . والاحتفـال بالتجربة والمعـاناة والتعبير الجميل عن الشعور الصادق ٠

الشعر والفلسفة :

يرى « العقاد » أن بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة،ذلك ان الشعر الجوانى الأصيل هو الذى يبقى بما وراءه من زاد،وهو شعر المعنى والفكرة والعاطفة لا اللفظ والطلاء والشكل ٠

والشعر يعمق صلتنا بالوجود ويفتح أعيننا على ما فى الكون من جمال ، ويرهف أحساسنا بما يصدح من أنغام ٠٠ ولن تكون وسيلة الى ذلك الفاظا ورموزا بل تجربة واعية هى فى صميمها تجربة ميتافيزيقية٠

الجوانية فى القصة : ان قصة (سارة) انما هى القصة الوحيدة التى كتبها العقاد وهى قصة (جوانية) كلها ، لا تشغل الأحداث الخارجية فيها الا أقل قدر ممكن مما يلزم لحبكتها الفنية ٠

الجوانية فى نظر العقاد الى تعاليم المسيح كتب عبقرية المسيح ٠

عبقرية المسيح كتاب (جوانى) من أوله الى آخره يحس القارىء العربى أن مؤلفه المسلم قد فطن الى جوهر العقيدة المسيحية حين قال :

(انها عقيدة قوامها أن الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ٠٠ وان ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش ، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه ، وما يلبسه، وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم ، وعمروا ظاهرهم فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء ، بشارة لا تبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير) ٠

فرسالة المسيح عليه السلام صريحة فى نقض شريعـة الأشكـال والظواهر ، واقامة شريعة الحب ٠ الحب الذى هو عطاء بلا حساب ، أو شريعة الضمير الذى يقوم فى دخيلة الانسان مخترقا حجب الزمان والمكان: (وكل ما هنالك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير،ولا يصبح قصارها وحى القانون وحساب العكوك وأساليب الروغان من السطور والحروف) ٠

وما من شك ، أن الطريق الذى يرسمه السيد المسيح طريق شاق، لأن فيه مجاهدة للنفس وقمعا لشهواتها ٠٠ وما يقوى على هذا السلوك الا الجوانيون المخلصون ٠

أن دعوة السيد المسيح دعوة جوانية ، فقد كان همه الشاغل هو اصلاح النفوس ولن يتم هذا الصلاح بتغيير الأشكال الخارجية وانما يتم بتغيير البواعث النفسية ومن ثم فالحساب هنا حساب جوانى مداره النفس والضمير ٠

وبعد ، فهذه عجالة نكتبها لفقيد الفلسفة أستاذنا الدكتور عثمان أمين وما أحسبنا قد وفينا بما ندين من عرفان وحب واجلال ٠

الرؤية النقدية عند أنور المعداوى

منذ عام أو يزيد فقدت الحياة الأدبية كاتبا نابها له منزلة كبيرة فى نفوسنا .. كان قد ودع الحيـاة بعد أن جاهد المرض وصارعه ومازال يستبد به حتى أسلم روحه فى النهاية .

وهكذا خطف الموت أنور المعداوى وهو لم يزل فى صدر الشباب والم تزل بقية من كلمات تجول فى نفسه .. تريد أن تنطلق من عقالها لتشع بالضوء فى عالمه الأدبى ولتأخذ مكانا فى بناء تفكيره وتصوراته .

لكن يد المنون عاجلته فانتزعته فجأة رغما عنا ، وحملته بعيدا حيث يرقد فى عالم الظلام والصمت الأبدى ..

وبعد هذا الفراق أولى بنا أن نذكر المعداوى وأن نخط السطور تحية لجهاده فى مضمار الأدب .. هذا الجهاد الذى يعبر بحق عن روحه الثائرة التى أبت أن تتعاطف وطابع الصنعة والافتعال والتقليد فى الأدب.

الصديق والزيف :

فقد كان رحمه الله ، ينادى بأن الفن الأصيل انما هو الذى ينبع من صميم صاحبه..فعلى الأديب أن يتحلى بالثوب الذى ينسجه من صميم نفسه حتى يعبر عن طبيعته الخالصة ، وطبيعة التصورات التى امتصها من واقع الحياة .. فلا ينبغى أن يستعير أثواب الآخرين ليتحلى بها حتى لا يتهم بالزور والزيف .

وبمعنى آخر لا ينبغى أن يحاكى غيره فى أساليب التعبير الأدبى وانما على الأديب الخالق أن يستولد ذاته .. أى عليه أن يستبطن هذه الذات فينصت اليها ويرهف السمع الى حديثها الذى يمكن أن يحيله الى نسق من الكلمات النابضة بالحركة والوجدان والخيالات .

لهذا كان المعداوى صاحب نظر باطنى ٠٠ فقد كان ينظر الى الأعماق دائما٠فعلى قدر ما يستطيع أن يطوع الكلمات من أجل التعبير عن التجربة الباطنة على قدر تجويده وبلوغه حد الاصالة والكمال ٠

ويمكن أن نتعرف على طبيعة الأشكال التعبيرية عند المعداوى على أساس ناحيتين ! ٠

الذوق من ناحية والادراك الذهنى من ناحية أخرى ٠٠ فلكى يتم التعارف على عمل أدبى ينبغى على المتلقى أن يذوق هذا العمل بقلبه وأن يعيه بادراكه الذهنى ٠

فنحن لا ندرك من الأشيــاء سوى صورها المجردة وأن أداة هذا الادراك انما هو العقل ٠٠ لكن ليس بالعقل وحده يمكن أن تتحقق الرؤية فى عالم الأدب ٠٠ فهناك الذوق أيضا حيث يمكن أن نلمس الأشياء وهى تسيل فى مجرى شعورنا فتثير فينــا أحاسيس الشجن والأسى والفرح والكآبة والأمل وغيرها من الأحاسيس التى يمكن تكثيفهــا وتشكيلهــا تشكيلا ابداعيا ٠

لهذا كان حتمــا على الأديب أن يكون خلاقا والا يقترب من جانب الصنعة الا بالمقدار الذى يتيح له فرصة تملكه للاداة التعبيرية التى ينبغى أن يسيطر عليها ويوجهها التوجيه الصحيح ٠

ولهذا كان لابد أن يتعلم الكاتب معنى الصدق وبمعنى آخر لابد أن يتعلم كيف يصوغ التجربة التى يعانيها صياغة فنية ملائمة فيكون بذلك واعيا بطبيعة التشكيل الذى يضيفه على مادته حتى تصبح نابضة بالحياة والخيال والجمال ٠ واذا كان سبيل التعرف على عمل أدبى لا يتم للمتلقى الا على أساس شرطين هما التذوق والتفهم فكذلك يمكن أن نشترط على الكاتب المبدع أن يلتزم نوعين من أنواع الصدق :

الصدق الشعورى من ناحية والصدق الفنى من ناحية أخرى ٠٠ بمعنى أن الصدق الشعورى انما هو الذى يعبر عن وجدان الكاتب النابض بالأحاسيس المتباينة التى تملأ جوانحه ٠٠ وبمعنى أن الصــدق الفنى انما هو الادراك الجمــالى الذى نهتدى فى ضوئه الى اسرار العمل الفنى فيمكن بذلك أن يقوم الكاتب بتوحيد العناصر وتأليفها تأليفا ديناميكيا متفاعلا ٠

وحين يتحقق معنى الصدق الشعورى ، والصدق الفنى بين ثنايا العمــل الفنى انمــا يتحقق أيضا معنى الأداء النفسى الذى يعد مقياس الاصالة عند المعداوى ٠

الرؤية النقدية :

لهذا تقوم طبيعة الرؤية عند المعداوى على جانبين :

جانب خارجى وهو الذى يمثل مايترى على الحواس من معطيات حسبة تجرى فى عالم الواقع ·

وجانب داخلى وهو الذى يمثل ردود فعل هذه المعطيات وما تتركه من أثر فى وجدان الكاتب ·

فمن هذا التلاقى بين التيار الخارجى والتيار الداخلى يمكن أن يستقى الفنان عمله الفنى الخلاق ·· هذا العمل الذى قد تكون وسيلة تحقيقه الكلمة أو النغمة اللونية أو النغمة الصوتية ·· ومهما تعددت وسائل التعبير فهى لا تعدو أن تكون أداة تقوم بعملية التشكيل والبناء ·

وفى ضوء هذا نلاحظ أن المعداوى كان لا يقف عند مفاهيم البلاغة التقليدية التى صارت تجرى مع الزمن مجرى التوابت المقدسة فنجده يتعدى هذا وينادى بأن الأدب انما هو تمثيل ذاتى وليس تمثيلا لقوالب السالفين · وهو أيضا بناء جميل وليس قطعة من بناء ·· ولهذا لا ينبغى أن يقف مفهوم الجمال عند حدود الكلمة المنمقة أو الكلمات ذات الأوزان والأنغام وانما لابد أن يتسم الادراك الجمالى بالسمة المعمارية بمعنى أن الكملة هنا لابد أن تكون بمثابة اللبنة التى تشارك فى ارتفاع البناء ·

لهذا كان الفن عند المعداوى لا يعدو أن يكون نظاما تشكيليا قد يتخذ مادته البنائية من الكلمات أو الألوان أو الأصوات ·· ومن هنا كان هذا النظام التشكيلى فريدا مبتكرا فلم يكن وليد المقلدين ولم يكن محاكاة أو أداء لفظيا ·

وعلى الرغم من أن العالم قد يبدو شائها مضطربا للعيان الا أن مهمة الفنان هنا تتمثل فى اضفاء روح الصفاء والانسجام على الأشياء وحسبنا أن ننظر الى معجزة الشكل الفنى الذى يبدعه الفنان،فنجد أن هذا الشكل انما يحمل فى جوفه النقائض والاضداد وأن الفنان من خلال قوته الابداعية استطاع أن يؤلف بين العناصر المتنافرة واستطاع أن يوحد بين الأحاسيس المصطرعة بحيث أمكنه فى النهاية أن يعطى المتلقى تشكيلا فنيا رائعا ·

فلا غرابة أن نجد المعداوى يعيب على الحركة السريالية ايمانها بتصوير عنصر النشاز فى العالم فيحدثنا فى هذا الصدد فى كتابه (على محمود طه) قائلا :

فى القصيدة الشعرية وفى اللوحة التصويرية وفى المقطوعة الموسيقية وفى كل عمل يمت الى الفن بسبب من الأسباب يحسن بالفنان .. بل يجب عليه أن يكون له مضمون..هذا المضمون لابد له من تصميم ولابد له من خط سير ، ولابد له من خطوات تتبع خط السير وتعمل فى حدود التصميم .. ذلك لأن الفن فى كل صورة من صوره يجب أن يعتمد أول ما يعتمد على تلك الملكة التى نسميها (ملكة التنظيم) .. وكل فن يخلو من عمل هذه الملكة التى تربط بين الصور وتوفق بين الخواطر وتنسق المشاهد .. كل فن يخلو من عمل هذه الملكة لا يعد فنا بل هو فوضى فكرية أساسها وجدان مضطرب وذهن مهوش ومقاييس معقدة وأبلغ دليل على تلك الفوضى الفكرية فى بعض ما نشاهده من آثار تنسب ظلما الى الفن هو تلك الحركة السريالية التى هبطت الى ميدان الشعر كما هبطت الى غيره من الميادين فعبثت بكل الأنظمة والمقاييس التى تطبع الفن.

على ضوء ما سبق يتضح أن التصور الفنى ، عند المعداوى ، ينبغى الا يخرج عن حدود نظام الأشياء .. فقد يكون الفنان قادرا على أن يصوغ الأشياء صياغة جديدة .. لكى لا ينبغى أن نحطم ، من خلال هذه الصياغة العلاقات الصورية المنطقية التى نهتدى فى ضوئها الى معرفة الأشياء وبمعنى آخر يستطيع العقل أن يجرد صور الأشياء وأن يخلقها خلقا جديدا دون أن يمس ادراكنا فى ذلك بالتشويه والتمويه .

لهذا كان العمل الفنى عند المعداوى أصدق تعبير عن مجرى الحياة فى اتساقها وتوافقها..أو قل هو أصدق تعبير عن تجميل الحباة وتلوينها بالروعة والجلال .

وعملية الابداع عند المعداوى لا تعدو أن تكون ضرورة نفسية واجتماعية وانسانية .. وما العمل الفنى الا حصيلة خبرات الفنان ، وهو حين يستجيب للحظة الابداع لا يفعل أكثر من أن يستولد ذاته .

وبذلك يمكن أن نفسر الاستجابة لعملية ابداع على أنها نوع من التفريج عن الذات والتسرية عنها مما تعانيه من شحنات التوتر والضيق والقلق .. وبذلك يمكن أن يحقق العمل الفنى نوعا من التوازن بين عالم الفنان الخارجى وعالمه الداخلى .. وبالتالى يمكن أن يحقق الفنان ـ عن طريق ممارسة فنه ـ تكيفا وتلاؤما مع البيئة التى ينتمى اليها .

تجربة الابداع الفنى :

ولقد كان المعداوى ينظر الى معاناة الفنان نظرة تقدير ... فما الحرمان والضجر والقلق الذى يعانيه الفنان فى حياته ، الا مدعاة للخصوبة والابداع وسببا من أسباب تفتق الذهن وشحذ الخيال .

لهذا يحدثنا المعداوى فى هذا الصدد فى كتابه « نماذج فنية » بما يلى : (أن الحرمان ٠٠ أكثر اثارة لمكامن الشعور فى النفس الانسانية ٠٠ لقد كنت أرى أن الفنان الذى يعيش فى رحاب الحرمان يعيش متوثب الشعور دائما ، تلتهب أفكاره من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان ٠٠ هناك حرمان يتمثل فى ذلك الأعمى الذى لم تشأ له الحياة أن يرى ضوء النهار ، وهناك حرمان يتمثل فى ذلك الأصم الذى حالت المقادير بينه وبين الانصات لموسيقى الطبيعة ٠٠ وهناك حرمان يتمثل فى ذلك المصدور الذى ينفث دما ولا يعرف طعم العافية الا من أفواه الناس ٠٠ نعم ، هناك « ملتن » يرسل أعذب أنغامه وأرق أغانيه وهو محروم من نعمة البصر وهناك « بتهوفن » يقدم سحر موسيقاه وهو محروم من نعمة السمع وهناك « كيتس » يبعث الى الصدور بدفء أشعاره وهو صاحب الصدر المحطم الذى لون قصائده بلون دمائه ، العبقرية ، قل أن نجد لها مثلا عند فنان سواه ٠٠ » ٠

ولقد كان المعداوى تستهويه الشخصيات القلقة الحائرة فى عالم الأدب والفن ٠ لهذا كان يضع هذه الشخصيات تحت مجهره النفسى فيعكف على دراسة بودلير وبلزاك ودوستويفسكى وأبى العلاء وعلى محمود طه وتوفيق الحكيم ٠

أنظر اليه وهو يحدثنا عن أبى العلاء المعرى فى كتاب (نماذج فنية) قائلا :

« ان شخصية أبى العلاء لتعد فى رأيى أهم شخصية قلقة فى الفكر العربى كله ٠٠ ومن هنا يلذ لى أن أعود اليه ٠٠ أن الشخصيات القلقة تستهوينى دائما ، تستهوينى لأنها مصدر خصب من مصادر الدراسة النفسية ٠٠ ومن الخطأ — فى رأى — أن ينسب الباحثون أبا العلاء الى نزعة نفسية بعينها لينفرد بها وليقف عندها لا يكاد يتعداها الى غيرها من النزعات ٠٠ ذلك لأن أبا العلاء قد مال الى التفاؤل كما مال الى التشاؤم، ونصح بالاقبال على الحياة كما نصح بالاعراض عن الحياة وآمن بالبعث كما أنكر ايمانه بهذا البعث وأوصى بالزهد فى نعيم الدنيا كما أوصى بالاغراق فى هذا النعيم ٠٠ أن الفراغ فى حياة أبى العلاء ولا شىء غير الفراغ ٠٠ وعلى هديه نلتمس العلة الأصلية لتلك الذبذبة النفسية ممثلة فى هذه الذبذبة الفكرية » ٠

ولنا بعد ذلك أن نسأل : أى لون من ألوان الفراغ كان يشكو أبو العلاء ؟ انها ثلاثة ألوان : فراغ النفس وفراغ القلب وفراغ الجسد ٠٠ ولك أن تردها جميعا الى الحرمان ٠٠ فنفس أبى العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف وقلب أبى العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة وجسد أبى العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة ٠٠) ٠

وأنظر اليه وهو يحدثنا عن قلق توفيق الحكيم صفحة ٨١ من نفس الكتاب :

« أول مزية من مزايا هذه الشخصية الفنية انها من الشخصيات النادرة التى تتمتع بحظ كبير من القلق النفسى وهو أول أداة من أدوات الكاتب ٠٠ القلق الدفين والشك الملح ، صفتان تجريان مجرى الدم فى طبيعة توفيق الحكيم النفسية ، ومن هنا نجد شخصيته القلقة منعكسة بوضوح فى أكثر ما يكتب ٠٠ فشخصياته شخصيات حائرة قلقة مترددة يندر أن ينتهى بها المطاف الى استقرار ٠٠ »

ومن الشخصيات القلقة التى تناولها المعداوى بالدرس والتحليل شخصية الكاتب الفرنسى بلزاك فكان يقدره ايما تقدير بل كان يفضله على أى كاتب آخر حتى دستويفسكى وكثيرا ما كان يتبارى مع الكاتب الكبير عباس محمود العقاد فى هذا الصدد ٠٠ فقد كان العقاد يؤثر دوستويفسكى على بلزاك ويعتبره القمة الشامخة ٠

ولقد نالت شخصية الشاعر على محمود طه حظا كبيرا من الاهتمام عند كاتبنا القدير ٠٠ فانظر اليه وهو يحدثنا فى كتابه (على محمود طه) عن طبيعة هذا الشاعر :

« لقد كان الشعور الطبيعى عند محمود طه هو الشعور بالوحدة والشعور بالغربة والشعور بالحرمان ، ولهذا أكثر من الحديث عن نفسه وأسهب وأفاض فى شعر تنبعث من أبياته اللوعة ، ويتدفق الأسى وتنطلق مواكب الأحزان ٠٠ ولا غرابة اذن حين يصدق فى مثل هذا الشعر وحين يكثر منه لأنه ثمرة احساس مرهف بوجود نفسى عاش فيه ، أو بواقع نفسى غمر بظلاله القاتمة كل نفضة من نفضات العاطفة حتى حصرها فى نطاق معلوم هو نطاق الطواف بالتعبير حول محور الذات الانسانية ! » ٠

من هنا أجاد على طه فى كل مناسبة تتصل بنفسه ٠

وأنظر اليه وهو يقارنه بالشاعر الفرنسى بودلير فى نفس الكتاب صفحة ١٧ :

(لقد تعرض شاعرنا المصرى ـ فى بعض مراحل حياته لكثير من هزات القلق والاحساس بالضياع ولكنه ـ على النقيض من بودلير ـ كان واضحا فى قلقه كما كان واضحا فى ضياعه ، بالنسبة للدارسين ـ اما بودلير فهو شاعر مضيع يحرك يديه ليثير من حوله الزوابع والأعاصير رجل عاش ولكنه لم يستطع أن يفسر لنا تلك الحياة التى عاشها ولا أن يكيف لنا هذا الوجود الذى خلق فيه ٠٠٠ رجل كون مزاجه بنفسه واختار مصيره برضاه ثم

خانته القدرة على أن يخرج من أخطائه وآثامه بمذهب يحدد ذاتيته فى زحمة الوجود أو يبرر مكانه فى طريق الحيــاة !! ٠٠ هذه الشــخصية الغريبة المتقلبة تحتاج الى مفتاح يعالج أبوابها المغلقة ٠٠)

لقد استطاع المعداوى أن يقدم الينا كتابا قيما عن شاعرنا المصرى (على محمود طه) ٠٠ وهو دراسة مستفيضة عن أبعاد شخصية الشاعر وطبيعة الحياة التى كان يحياها وطبيعة الشعر الذى أبدعه ٠

ونحن نستطيع أن نلمس ، بين ثنايا هذا الكتاب ، مدى التعاطف الذى كان قائما بين الشاعر على محمود طه والناقد أنور المعداوى٠٠والحق أن كاتبنا قــد أشار فى أكثر من مناسبــة الى الصداقة الوطيدة التى كانت تربطهما ٠٠ وحسبنا أن نذكر بعض الشذرات فى هذا الصدد لتوضح مدى العلاقة الوثيقة التى كانت بينهما ٠

ففى ذات يوم حدث بينهما لقاء على ضفاف النيل وقد جرى بينهما هذا الحوار :

على طه : انظر الى هذا البيت الجميل الذى يقام فى أحضان الزهر ٠٠ ذلك البيت الأنيق الذى يستحم فى مياه النهر ٠٠ هذه يا صديقى هى الأبيات ٠٠ الأبيات التى أقامها السعداء على دعائم الواقع ٠٠ أما أبياتنا نحن الشعراء فقد أقمناها على دعائم الخيال !

أنور المعداوى : بالله حسبك ٠٠ انها أبيات من حجارة وطين ، سيعيش أصحابها نكرات ويموتون كذلك ٠٠ وستمتد اليها يوما يد البلى فلا يبقى منها حجر ولا أثر ! أما أبياتك وأبيات الموهوبين من أمثالك فهى من نفس وروح ٠٠ لن تبلى لأنها ستعيش فى الضمائر والقلوب وسيعيش أصحابها ما نطق لسان وما كتب قلم ٠٠ انك يا صديقى تعكس القضية ٠٠ أن أصحاب الفن هم أصحاب الواقع ٠٠ لأنهم أصحاب الخلود !

على طه : (ساخرا) أصحاب الفن هم أصحاب الخلود !؟

أنور المعداوى : يا أخى ما أكثر طمعك ! الا يكفيك انك ملء السمع والبصر فى كل مكان ٠

على طه : كلمات يسمعها الشاعر من الناقد ٠٠ ما دام على قيد الحياة ٠٠ فاذا مات قبض الناقد قلمه عن تقويم شعره واكتفى بكلمة رثاء !

أنور المعداوى : (ضاحكــا) اذا مت قبلى فلا تخف سأكتب عنك مقالا !

على طه : (غارقا فى الضحك) وأنت أيضا لا تخف ٠٠ سأرثيك ببيت من

الشعر ان مقالا واحدا من الكاتب لا يستحق غير بيت واحدا من الشاعر) !

ولقد كان المعداوى وفيا لصديقه فهو لم يكتف بالمقال الذى رثاه فيه على صفحة الرسالة وانما نجده يؤلف كتابا يضم أشعار على محمود طه متناولا هذه الأشعار بالبحث والدرس والتحليل .. ملقيا الضوء على طبيعة الشخصية التى ينتمى اليها الشاعر من الوجهة النفسية والاجتماعية والثقافية والانسانية .. وكيف نحتت هذه الشخصية من التصورات والأحاسيس التى كانت تسود عصره .. وكيف ان احساس الثقافة والتشاؤم انما هو الذى كان يغلب على شعر على محمود طه .

رسالة الأديب هى رسالة الحياة :

ومن هذا الحوار أيضا يمكن أن ندرك مدى الاعزاز الذى كان يحمله المعداوى لأصحاب الأقلام .. فقد كان يثق أن كلمات الأديب انما هى أقوى من الجاه والثراء ومتاع الدنيا .. وأن رسالة الأديب انما تتمثل فى اعطائه قوة معنوية هائلة تثرى الحياة وتعمقها وتجددها .

ولهذا كان الأديب عنده أشبه بالمتصوف الذى يكتفى بذاته ولا يبتغى من أسباب الحياة سوى ما يحفظ كرامته فلا يريق ماء وجهه أمام الاحتياج..

والحق أن أنور المعداوى قد ضرب المثل فى ولائه لقلمه .. فكان أزهق ما يكون فى المناصب الحكومية وازهد ما يكون فى السعى وراء التكالب المادى فقد وهب حياته لخدمة الأدب والقضايا الأدبية ، فكان صادقا حين عبر عن نفسه .. وحين عبر عن الآخرين .

فلا غرابة أن يطالب الفنان بأن يكون تلقائيا صادقا .. ولا غرابة أن يستهجن فى العمل الأدبى عناصر الزيف والاصطناع والافتعال .. فقد كان لا يبحث عن الزخرفة والمحسنات اللفظية بقدر ما كان يبحث عن اللغة الباطنة التى تنبع من أغوار النفس وصميم الوجدان .

ونحن حين نعود بالذاكرة الى ما قبل عشرين عاما ، ونلقى الضوء على صفحات مجلة (الرسالة) .. نجد ذلك السطور التى سجلها أنور المعداوى لتكشف النقاب عن موهبة الكاتب الكبير نجيب محفوظ .. فقد كان ، كاتبا يستعذب أدب نجيب محفوظ وكان أهم ما يجذبه اليه انما هو تلك السمة النفسية التى تتميز بها شخصيات محفوظ .. فقد استطاع هذا الكاتب أن يقدم الينا نماذج فريدة من الشخصيات لا يمكن أن تنمحى من الذاكرة .

ولقد كان نجيب محفوظ يلقى اهمالا وجحودا من النقاد رغم أنه كان يقف على قدميه فقد أبدع ، حتى ذلك الحين ، كفاح طيبة ورادوبيس وخان الخليلى والقاهرة الجديدة وزقاق المدق والسراب ٠٠ ولقد كان يلام عليه اسرافه الشديد فى حشد الجزئيات المادية التى تصيب العمل القصصى بالحرفية وعدم الشفافية ٠٠ الكن أنور المعداوى كان يتجاوز هذه الهنات جميعا فلا يقف عندها وانما كان يتخطاها واثقا بامكانيات نجيب الفنية نجاحا وتقدما ٠٠ ذلك لانه فن لا يقف فى مكانه ثابتا جامدا وانما أهم ما يميزه انما هو ذلك المسار الديناميكى النامى ٠

لهذا رأيناه يستقبل « بداية ونهاية » بترحاب بالغ ٠٠ أنظر اليه وهو يحدثنا عنها فى كتاب نماذج فنية ٠٠

« بداية ونهاية » ٠٠ دليل مادى لا ينكر . على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فنى كامل ٠٠ لقد حقق نجيب فى هذا العمل القصصى، عنصر الالتزام لحدود الواقعية وعنصر التذوق الشعورى الكامل للحياة وما يتبعه من ادراك عميق للتجربة النفسية وعنصر التلوين الخاص للأسلوب القصصى وما يعقبه من اثارة الشعور فى الموقف الانسانى ٠٠ كل هذه العناصر قد توفرت فى قصة « بداية ونهاية » ٠٠ فاذا بهذه القصة الممتازة تعد فى رأى النقد عملا فنيا كاملا لا مثيل له فى تاريخ القصة المصرية ٠٠

وبعد فقد كشف المعداوى بكتاباته ، عن أمور شتى تتعلق بالفن والأدب والنقد ٠٠ فأثار فى هذا الصدد مشكلات عديدة ٠٠ لكن كان جهده فى ذلك لا يتخطى حدود اثارة هذه المشكلات فلم يستطع أن يضع لها حلولا جذرية ٠٠٠ ولم يستطع أن يصوغ من خلال تفكيره الأدبى نظرية نقدية يمكن أن تحدد لنا الرؤية بوضوح ، فى مجال الظواهر الأدبية ٠٠ فكل ما قيل عن الأداء النفسى والصدق الشعورى والصدق الفنى ، كلام لا يمكن أن نخلق منه نسقا ٠٠ فكريا مكتمل البناء ٠٠ كل ما نستطيع أن نقوله أن موقفه كان أشبه بمن (يعكر ولا يصطاد) ٠٠ أو أشبه بمن يثير الشك فى تلك الثوابت المقدسة التى كانت تسود مناخنا الفكرى والأدبى فتعوقنا عن الحركة والنمو والتقدم ٠

ومهما يكن من أمر فنحن ندين للمعداوى بهذا الفضل فقد كان يمثل بصدق ، مرحلة التمهيد التى أعقبتها مرحلة التشييد ٠

أحمد شوقى الشاعر

عرفنا احمد شوقى ، أميرا للشعراء فهو يكتب فى كل موضوع وهو يجود شعره ويحذقه حيث يتناول فيه مفاهيم أخلاقية وانسانية واجتماعية وسياسية .. مفاهيم شتى مختلفة مثـل الحرية ، والوطن ، والأمة ، والدستور ، والجندى المجهول وقناة السويس والأهرام . والشمس والموت والحياة ، والشباب والخير والظلم والقلب والشمس والأمس واليوم والغد .

لكننا نعرفه هنا أديبا ناثرا ، فله نتاج من النثر الفصيح الرائق ، المسلسل السياق وهنا نذكر كتابه أسواق الذهب الذى نشره عام ١٩٣٢ عن طريق دار الهلال وهو كتاب يضـم مجموعة من المقـالات لعـدد من موضوعات شتى ، لا أغالى ان قلت أنها نفس الموضوعات التى صاغها شعرا.

وواضح أن المقال هنا أشبه بالسطور التى تتواتر كأنها فيض الخاطر أو اذا أردنا الدقة فى التعبير ، فأحمد شوقى يكتب المقال كأنه نزوة عقلية حيث تنثال فى ثناياه الافكار والصور الطريفة منتظمة واعية ، وبادراك منطقى واستبصار عقلانى،فلا يغيب عن المعنى المقصود ولايحيد عن الغرض والهدف الذى يسعى اليه .

وواضح أن (أحمد شوقى) قد تفقه فى اللغة فاهم ما يمتاز به أمير الشعراء انما هو سيطرته على الألفاظ العربية .. فهذه الثروة اللغوية الهائلة التى تربى عليها جعلته قادرا على الابداع فى شتى الأغراض . فهو يدرك صلاحية هذه الألفاظ وحتمية ورودها فى سياق القصيدة . وقـد نحمده على هذا التفقه الكبير فى اللغة العربية ، لكن كنت أؤثر أن تتواضع حساسية الشاعر بالألفاظ التى يغلب عليها الهجرة والاغراب . كنت أود أن يكون شاعرنا أكثر تواضعا وأكثر بساطة ذلك لأن أسلوبه هنا شعرا أو نثرا أسلوب عربى فصيح متحجر غريب عن الفهم والادراك ، كنت أتمنى أن يقدر شاعرنا على مخاطبة كل العقول وأن يخاطبهم على قدر عقولهم .

والحق ان أحمد شوقى كان شاعرا فحلا فريدا فقد جرى على منوال ما ندعو اليه لكن فى قصائده البسيطة التى هى أشبه (بالطقاطيق) التى يتغنى بها (محمد عبد الوهاب) فى أغانيه الشجية يقول أحمد شوقى فى مقدمة كتاب : (أسواق الذهب) .

وبعد فهذه فصول من النثر ، ما زعمت انها غرر (زياد) .. ولو توهمت حين انشائها الى صنعة (أطواق الذهب) للزمخشرى (١) أو طبعة (أطباقا لذهب) للأصفهانى وانى سميت هذا الكتاب بما يشبه أسميهما ووسمته بما يقرب فى الحسن من وسميهما وانما هى كلمات اشتملت على معان شتى الصور وأغراض مختلفة الخبر ، جليلة الخطر ، منها ما طال عليه القدم وما شاب على تناوله القلم .. ومنها ما كثر على ومنها ما كثر على الألسنة فى هذه الأيام وأصبح يعرض فى طرق الأقلام وتجرى به الألفاظ فى أعنة الكلام ، مثل الحرية والوطن والأمة والدستور والانسانية) .

الوطن .. يقول فى هذا الصدد : (حب الوطن والتفانى فى سبيله سجية كل نفس كبيرة ، وقد أوحت هذه العاطفة بأعظم ما حفظه لنا التاريخ من المآثر وجليل الأعمال وأبلغ ما جادت به القرائح من روائع الآيات والأقوال .

ولقد طالما أشاد المؤلف فى شعره بذكرى الوطن وتغنى بوصف آثاره الخالدة بقصائد يضمن لها بلاغتها من الخلود ما لتلك الآثار ولطالما استخلص من بيانه سحرا أحيا مفاخر الآباء والأجداد فبعثها من لحود الأجيال الغابرة تتمثل عظمتها وروعتها للأبناء والأحفاد .

لم يقف المؤلف من آثار وطنه وقوف العرب على الأطلال يبكيها ويرثيها بل مسحها بدموع قلبه ليحييها ويستوحيها .. فجعل من تغنيه بما كان من المفاخر للوطن فى الغابر من الزمن ... وهذه القطعة من الشعر المنثور أنشودة عذبة للوطن جمع فيها كاتبها جميع الأنغام التى يثيرها ضرب الوطنية الصادق على أوتار الوطن موضع البلاد ومجمع أوتار الفؤاد ومضجع الآباء والأجداد .. والوطن مستودع المفاخر وصوان المآثر .

ينتقل أحمد شوقى نقلة أخرى هى الجندى المجهول .. أنظر اليه وهو يقول :

تكريم الجندى المجهول : فكرة أوحت بها الرغبة فى تمجيد البطولة الصامتة والبطولة التى تعمل فى الخفاء .. ولعل هذه الفكرة أجمل ما ولدته

---

(١) وهما كتابان من كتب المقامات .

الحرب الكبرى من أفكار .. ثم نراه يواصل حديثه فى هذا الشأن فيقول:
(من هو الجندى المجهول ؟ وما هى حكايته ؟ أسمع تلك الحكاية ففيها عبرة وذكرى .. لقد أودت الحرب العالمية الكبرى بآلاف الآلاف من الجنود البواسل .. وكل منهم يدافع عن قومه وبلاده فسجلت أسماؤهم على ألواح من البرونز وقطع المرمر تخليدا لذكرهم ولكن هناك من بينهم مئات الألوف ماتوا كذلك ميتة الأبطال ولكن أسماءهم ضاعت لأن جثثهم الممزقة اختلطت بجثث رفاقهم فلم يكن من سبيل الى تبين شخصهم أو تحقيق هويتهم ، لذلك أرادت فرنسا وحذت سائر الدول حذوها – أن تتخير واحدا من هؤلاء المجهولين الى ذروة المجد وتقيم له من معالم التكريم ما لم تقمه لأكبر الغزاة الفاتحين فتكرم فى شخصه المجهول مئات الألوف من الأبطال الذين تنكرت جثثهم على الناس . هذا منشأ تلك الفكرة النبيلة .. فاسمع الآن كيف كان تنفيذها فى فرنسا : كانت موقعة : (فردان) أعظم موقعة دارت رحاها بين أعظم جيشين فى العالم دامت شهورا طوالا وسالت فيها مهج مئات الألوف على شظايا القنابل وظبى السيوف حتى أصبحت أرجاؤها جبانة مترامية الأطراف ومن القتلى الراقدين فى ثراها تقرر اختيار الجندى المجهول فأخذوا من أنحاء ذلك الميدان العظيم ثمانى جثث لم تعرف لمن هى .. اختاروا ثمانية من بين خمسمائة ألف قتيل ووضعت كل جثة فى نعش ونقلت النعوش الثمانية فى ليل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ الى حصن (فو) حيث أوقدت حولها الشموع وقامت الجنود تحرسها ثم تقدم القائد وأشار الى أحد الجنود .. جنود الفرقة ١٣٢ فخرج الجندى من الصف ودفع اليه القائد باقة من القرنفل الأبيض والأحمر وقال له أن يدور دورتين حول النعوش حتى عزفت الموسيقى بنشيد « المرسلين » ورفع الضباط سيوفهم للتحية .. ومن تلك الدقيقة أصبح الراقد فى ذلك النعش مثال التضحية والتفانى وصار تكريمه تكريما للمليون ونصف المليون من الجنود الذين قتلوا فى الحرب دفاعا عن فرنسا وطنهم . ثم نقل ليلا الى باريس وفى اليوم التالى أقيم احتفال ندر أن شهدت تلك العاصمة العظيمة ، ما يضارعه فخامة وابهة وتأثيرا فى النفوس مشى فى موكبه الوزراء والقواد ورجال الدولة وعشرات الألوف من الناس تتقدمهم ٨٠٠ راية من رايات فرق الجيش المختلفة ، حتى وصلوا به الى « قوس النصر » حيث قام ضريحه وعلى أثر ذلك أصبح الآباء والأمهات والأزواج والأخوات يحجون الى هذا الضريح وكل يعتقد أن فيه ابنا أو زوجا أو أخا وما زار باريس ملك أو وزير أو كبير الا عد من أول فروض المجاملة زيارة قبر الجندى المجهول وتحيته ووضع الزهر عليه) .

وما كان للمؤلف أن يترك مثل هذا الموضوع بلا جولة لخياله فيه وقد أراد أن يضع زهرة من زهراته الرائعات على ضريح الجندى المجهول فكتب

هذا الفصل الذى عرضنا له وفى صفحة ٣٧ يحدثنا أحمد شوقى عن الذكرى ويعتبر هذه الكلمات بمثابة قصيدة من الشعر المنثور تغزل فيها بالحرية وأهداها الى صديقه مصطفى كامل بمناسبة ذكرى وفاته أنظر اليه وهو يقول :

(اذا أحرزت الأمم الحرية ، أتت السيادة من نفسها وسعت الامارة على رأسها . وبنيت الحضارة من أسها ، فهى الأمر الوازع ..) ثم نراه يقول عن الشمس :

(سل الشمس من رفعها نارا ونصبها منارا وضربها دينارا ومن علقها فى الجو سالة يدب عقرباها الى يوم الساعة ؟ ومن الذى آتاها معراجها وهداها ادراجها) ثم يقول عن الزمن : (الزمان هى سبب حصوله ولد على ظهرها (١) ولعب على حجرها وشاب فى طاعتها وبرها ، لولاها ما اتسقت أيامه ما انتظمت شهوره وأعوامه ، واختلف نوره وظلامه ، ذهب الأصيل من مناجمها والشفق يسيل من محاجمها تحطمت القرن على قرينها ، ولم يعل تطاول السنين بسنها ولم يمح التقادم لمحة حسنها ، أتت دونها الأيام وهى كعاب (٢) فى عرب الشباء ، تصبح ببرز من حجاب وتمسى تتوارى بحجاب ، طالما ردت الغربان حمائهم ونسجت الثلاث عمائهم (٣) وعزلت الأكفان لحى فان ، قامت على غير قدم ، حتى طال عليها القدم ، وقيل ما لهذه عدم ، كلا لتحزن عمادا (٤) ، ولتذهبن رمادا ، وليبعثن الله جمادا (٥) .

ثم نراه يحدثنا عن الخير فيقول فى صفحة ٥١ من الكتاب :

(شجرة مرآها جميل ظلها مقبل وأعاليها هديل وهى مذللة السبيل، الطير على جوانبها تميل ، والناس فى ظلها الظليل .. وأما الطير فتنزل مجملات وترحل غير مجملات ، تسقط مشقفات وتلتقط مترفقات وتسدو بشكر الصنيع منطلقات . وأما الناس فلا يتئدن فى الثمرة ..

يهزون أصولها بعنف وينفضون فروعها بغير لطف .. يساقطون الجنى بصرف العصا ويستنزون الثمر برمى الحجر ..) وانظر اليه وهو يتحدث

---

(١) يعنى الشمس ص ٧٥ .

(٢) كعبت الجارية : شهد ثوبها فهى كعاب .

(٣) العمائم الثلاث . كناية عن شعر الشباب الأسود واختلاط السواد بالبياض ثم البياض فى الشيوخ .

(٤) لتقطن .

(٥) رأى يبعث على أثرها من العظام أحياء .

عن الصبر (بعض الصبر تجلد ، وتم الحلم والرضا وبعضه تبلد رهنا العجز والاستخذاء ليس الصبر غلظة القلب وبلادة اللب أو الجهل على الأقدار انما الصبر استرجاعك فى النفس الحزينة حتى تفيء الى السكينة والطمأنينة) .

ثم يحدثنا عن الأهرام فيقول : (ما أنت يا أهرام ؟ أشواهق اجرام أو شـواهد اجرام (١) وأوضاح معـالم أو أشباح مظالم ؟ وجلائل أبنية وآثار أم دلائل أنانية واستئثار وتمثال منصب من الجبرية أم مثال ضاح من العبقرية ؟ وتعلم فان الآثار مدارس .. هذه الحجارة حجور لعب عليها الأول وهذا الصفاح (٢) صفائح ممالك ودول) ويتحدث فى الكتاب عن ظاهرة النقد فيقول :

(علوم الأدب وفنونه توارثه الأواخر عن الأوائل فى قديم كريم والد من رأس مال الحضارة فى فأخذته حضارتهم) .

ثم يحدثنا عن الزهرة فيقول فى صفحة ١١١ : (صورة الرقة ورمز العاطفة وهيكل الخير والحب والجمال .. قديما أولع بها الناس وقديما ظلموها .. أما هى فطالما ملأت حدائقهم بهاءا وحسنا وحجراتهم زينة وطيبا وجملت عرى نيابهم وحسنت أغراسهم وولائمهم فكانت منصة للعروش واكليلا وشارة للمائدة ومنديلا ...) ويقول عن الساقية :

(أصوات السواقى فى سماء الليل وعلى فضاء الريف أم تنغيم الملائكة فى الأراغيل أم خوار الثور خرج من الأرض وقد أخذه الضجر وناء قرناه بذنوب البشر ، نعم كالنفخ فى الغاب ، طبيعة قادرة ساخرة لها فى كل شيء موسيقى حتى فى الليف والخشب فيها قينة الأجيال ما هذه الدموع الفواجر التى لم تغرف من شئون ولم ترسلها محاجز ؟ وما هذه الضلوع الهاتفة بالشكوى ، الصارخة عن البلوى وما عرفت الهوى ولا باتت ليلة على الجوى ؟ حديثنا عن القرون الأولى ، قرون خوفو ومينا) .

هذه كلمة موجزة عن كتاب الأسواق الذهب الذى كتبه الشاعر أحمد شوقى نثرا فأرجو أن يفيد القارىء من هذه الكلمة الموجزة .

---

(١) يشير الى ما ارتكب من جرائم فى عهدها .
(٢) الصفاح ـ الحجارة .

ابراهيم عبد القادر المازنى وروح السخرية

أصحيح أننا ــ وفى زحمة الحياة ، وفى ضجيج مشكلاتها ــ قد غابت عنا صور الأديب الكبير ابراهيم عبد القادر المازنى ، فلم نعد نحفل به ، أو نهتم بآثاره فى دنيا الادب ؟!!

أرجو أن أكون مخطئا فى هذا التصور ٠٠ ذلك لأن المازنى كان عملاقا فريدا ، وكان رائدا فذا ، وكان عظيما فى عزوفه عن الحياة ومباهجا ، الحياة ، المادية المحسوسة التى لا تعرف الا المصالح والمنافع والمآسى ٠

لكن علينا أن نقف لحظة ولنتأمل بعمق مآسر تلك اللهجة الحزينة والنبرة المؤسية الساخرة التى صاحبت كتابات المازنى منذ بدء طريقه فى عالم الأدب والحياة والناس ؟

لعل من أسباب تلك النبرة الحزينة المؤسية ان المازنى قد ولد فى ١٩ أغسطس عام ١٨٩٠ ، أى فى أواخر القرن التاسع عشر فى أسرة متوسطة ، ومات أبوه وهو صبى ، وكانت الأسرة تسكن فى أطراف العاصمة بالقرب من المقابر ، وان المازنى عاش صباه وشبابه ومصر لا تعرف لها وجهة ، ولا تدرى أين يستقر بها الحال ، بين قوة الاستعمار ، وبقايا الأتراك ، وضيعة الشعب الفقير ٠

ولعل من أسباب تلك النبرة الحزينة المؤسية الساخرة ، ان (المازنى) اطلع وهو فى مدرسة المعلمين العليا على تراث الرومانتيكيين الانجليز الحزين ، شيللى ، وكيتس ، وبيرون الذين قادوه الى منبع الحزن الأصيل فى أدب الغرب ٠

ولعل من أسباب تلك النبرة الحزينة الساخرة ان (المازنى) قاهرى، ابن بلد من سكان المدينة الكبيرة الخالدة ، وابن البلد المصرى هو نموذج السخرية المريرة ومن ثم ، كان (المازنى) من أشد الأدباء تأثرا بفلسفة

العدم والتشاؤم ولعل أسـماء كتبه التى اختارها تنم عن الون فلسفته العدمية وهى (حصـاد الهشيم) ، و (قبض الريح) ، و « خيـوط العنكبوت » ·

أقول ولد (المازنى) فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٠ ، وتوفى فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٩ ، وسجل فى مؤلفاته الشعرية والنثرية كل ما أصابه فى حياته بين هذين التاريخين ، بحيث تعتبر مؤلفاته أصدق مرجع لتاريخ حياته ، حتى يمكن القول ان حياة المازنى هى كل نتاجه الأدبى ·· سواء كان شعرا أو نثرا سواء كان قصة أو مقالا ··

كان شاعرا ملهما فى صدر شبابه ، لكن سرعان ما تغيرت حياته ، وبالتالى تغير منحى تفكيره ، فتمثل فى كل مقالاته وقصصه وروااياته ·· فهو هنا المازنى الساخر المتهكم على دنيا الناس وأحوال الحياة ·

ولعل من أسباب سخريته وضرته الحزينة المؤسية ، انه كان قصير القامة ، ضئيل الجسم ، أعرج القدم وخيل اليه أنه قمىء دميم ، فضلا عن معاناته من زوجـه وسـوء الفهم المتبادل بينهما والآلام المريرة التى تكبدها زهاء ثلاث سنوات ، انتهى به الأمر الى كتابة مسرحية عن حياته الفاشلة مع هذه الزوجة الفاشلة وسمى هذه المسرحية : (بيت الطاعة) ·

اذن ، لا غرابة أن يؤثر فى صدر شبابه ابداع الشعر ·· ولا غرابة أن يؤلف هو وعبد الرحمن شكرى والعقاد مدرسة سموها (مدرسـة التجديد) حيث كانوا يبدعون الشعر الحـديث على أسس جـديدة ثم يتناولون انتاج الشعر التقليدى بالنقد الضعيف ·

تخرج المازنى فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٠٩ فى دفعة محمد فريد أبو حـديد ، ومحمود فهمى النقراشى ، وانتقل مدرسـا للتاريخ بالعبيدية الثانوية ، ثم الخديوية الى أن نقله حكمت باشا وزير المعارف آنذاك الى دار العلوم لتدريس الانجليزية للطلبة المبتدئين الذين لا يعرفون من تلك اللغة شيئا الأمر الذى جعل المازنى يغضب ويتبرم بهذا النقل ، وحسب أن نقده لشعر عبد الرحمن شكرى ثم شعر حافظ ابراهيم كان سبب هذا النقل الانتقامى الذى زاده سخطا على الوظيفة الحكومية حتى انتهى به الأمر الى الاستقالة عام ١٩١٣ ·

راح المازنى يعمل بالتدريس بالمدارس الحرة كمدرسة وادى النيل والمدرسة المصرية الثانوية التى أعلنت افلاسها عام ١٩١٧ ، وكان ذلك ايذانا بتوقفه عن وظيفة التدريس وانتقاله الى عالم الصحافة ·

طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن شكرى والعقاد :

لقد راح يزامل طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن شكرى وعباس محمود العقاد الذين كانوا يكتبون وقتذاك فى (الدستور) و (البيان) ٠

منذ تلك التاريخ راح المازنى يزاول تلك المهنة الشاقة ٠٠ وهى الصحافة التى تشبه ذلك البرميل المثقوب القاع الذى زعم الاغريق أن الآلهة قضت على بعض المغضوب عليهم أن يملأوه ، فأنفقوا حياتهم دون أن يصلوا الى هذا الهدف ٠

تزوج (المازنى) من سيدة عاش معها ست سنوات مليئة بحرارة الحياة وأنجب منها بنتا وماتت الزوجة ثم ماتت البنت ، لكنه تزوج مرة ثانية ، وأنجب ثلاث أولاد منها وبنتان كانت قد توفاهما الله ٠

الكتب التى ألفها :

كان حصاده من الكتب التى ألفها انما هو سلسلة المقالات التى جمعها فى بعض كتبه منها حصاد الهشيم عام ١٩٢٤ ، وقبض الريح عام ١٩٢٧ ، وصندوق الدنيا عام ١٩٢٩ ، وخيوط العنكبوت ١٩٣٥ ، كما صدر له بحث عن شعر حافظ عام ١٩٢١ ، ثم كتابه : أحاديث المازنى وكتابه : فى الطريق وروايتيه : ابراهيم الكاتب ، وابراهين الثانى ٠٠ وكتابيه : (على الماشى) ، و (من النافذة) وغيرها ٠

لقاؤه بأحمد شوقى : وكم وجه المازنى توصياته ، وارشاداته الى الشباب ، ففى كتاب : أحاديث المازنى نراه يوصى الشباب بتعلم اللغة العربية وأصولها وقواعدها يقول فى هذا الشأن : (ومن هنا أذكر أن شابا مصريا جاءنى ذات يوم يشكو الى المرحوم أحمد شوقى الشاعر ويقول انه ذهب اليه يستشيره فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية فأشار شوقى عليه بدرس كتابين ، وجدهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة فاعتقد انه أضاع المال هباء منثورا وأن شوقى أخطأه التوفيق ، فقلت له ان شوقى لم يخطىء التوفيق فان النحو والصرف لابد منه ولا غنى عنه، ولعل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها ولا معدى عن الاحاطة بذلك أن كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة والا فكيف تكتبها وأنت لا تعرف أحكامها وقواعدها ؟

فاعرف لغتك أولا وادرس أدبها ثم عالج ما شئت بعد ذلك من فنون الكتابة) ٠

انه يسأل نفسه فى قصة ابراهيم الكاتب : (ما الحسن والقبيح ، وما الحزن وما السرور ؟ وما الخير والشر وما الاحساس والعقل ؟،والخصب والجدب ، والصحة والسقم واليأس ؟ والأمل والبكاء والضحك ؟) ٠

وقال المازنى في مقدمة (صندوق الدنيـا) : (كنت أجلس الى الصندوق أيام طفولتى وأنظر الى مافيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها ، يحس ان يستوقفنى نفر من أطفال الحياة الكبار فاحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا بملاليم قليلة ، يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر ، الذى لا أزال أجمع له وآخذ وما فتىء السؤال الأبدى منذ حملت صندوقى) ٠

ولئن وجهنا آذاننا لنسمع صوت المازنى الناثر الساخر أو صوت المازنى الشاعر المتبرم الساخط الشاكى من الحياة ومن مجيئه اليها ، فاننا لن نخرج الا بنتيجة واحدة هى ضيقه بهذه الحياة وتبرمه من ذلك الجهد الدائم الذى لا يعرف رحمة ولا هوادة ، مقابل مليمات قليلة ٠ قد يجـود أو لا يجـود بها أولئك الأطفال الكبار الذين يلهون بالنظـر من (صندوق الدنيا) الذى حمله المازنى على ظهره سنين طويلة الكى يرفه به عن الناس مقابل لقمة العيش التى يتناولها معجونة بعرق جبينه وبدم حيـــاته ٠

فى كتاب : أحاديث المازنى وتحت عنوان من دروس الحياة نراه يسكن ويهدأ وتخمد ثورة الشباب فى نفسه فيقول : (أول ما علمتنيه الحياة أن نتلقى كل حال بالتسهل والرضى وأن أكون فى كل ساعة كما تشاء الساعة ، فأقصر همى على ما أنا فيه ، وما تأملت وجوه العيش وأحوال الدنيا الا تبسمت سخرا من نفسى ، ومن الناس ، والا بدا لى أننا أطفال صغار أغرار وان ارتفعت السن وشاع الأبيض فى الأسود ، تعاملنا الحياة كما نعامل نحن صغارنا فتريحنا تارة ، وتؤدبنا طورى ، وتهزل معنا مرة وتجد أخرى ٠٠٠ وتعلمت ألا أطالب أحدا بأن يذهب مذهبى أو يصدر عن رأيى ، فان هذا المطلب مطلب بعيد المنال وعندى أن الأدب فردى وقوامه خصائص الفرد ومواهبه ومبلغ حريته فى التعبير عن نفسه ولا غنى عن شرط الحرية والا ذبل ومات ٠٠ ولقد فرضت ألمانيا وايطاليا فى هذا العصر فلسفة معينة على شعبيهما وجعلتا من البلدين ثكنتين ومن الأمتين جنودا ٠٠ فكانت النتيجة أن صارتا دولتين حربيتين، ولكنه لم ينبغ فيهما شاعر من الطبقة الأولى ولا كاتب عظيم ، ولا فيلسوف عبقرى ٠٠ من أمثال الذين نبغوا فى العصور السابقة أو فى الأمم الاخرى

التى ينعم فيها الفرد بحريته الشخصية ، ولا يحول فيها حائل منها دون النعبير الصادق عن النفس) .

ولم يفت المازنى أن يعدد قيمة اللغة الأجنبية بالنسبة للناس . وعلى الخصوص الأدباء منهم ، فهى تفتح لهم نوافذ الثقافة العالمية على مصراعيها ... تماما كما فعل العرب باللغة اليونانية ، التى عرفوا بها الفلسفة الاغريقية .

وبعد لقد صارت المرارة عنده أشبه بالمذاق العلقم .. فلم تبتسم له الحياة وانما واجه الموت أربع مرات .. أبوه ... وأمه ... وابنتاه ... وأنه عانى فى حياته كثيرا .. وما أصعب معاناته وهو يرى كتبه تباع أمامه كتابا كتابا .. يقول فى هذا الشأن :

(لقد ظل احترامى لكتبى حتى احتجت فى سنة أن أبيعها ، وشق على ذلك فى أول الأمر ، وكنت لا أكاد أطيق كلما نظرت الى الرفوف التى خلت مما كان عليها .. انى فقدت أقرب الناس الى وأعزهم على وأشعر انى مشرف على البكاء اذا لم أحول عينى عن هذه الرفوف الخالية ولم يكن ما أتحسر عليه زينتها ، وما صنعته فيها من مال خسرته بالبيع ، وانما كانت الحسرة على فقدان أساتذتى واخواتى .. وبقيت بعد ذلك زمنا لا أمر بمكتبه الا وأشحت بوجهى عنها من فرط الألم ، والا أحسست أن يدا تلوى أحشائى وتحاول أن تقتلها ..) .

هنا قلب انسانى ، يطغى عليه ذلك الاحساس المرير المؤسف .

كان المازنى يطمع فى الخلود .. كان يتمنى لو بقيت له ذكرى فى خلد الزمان وكان طموحا يريد أن يملأ دنياه بكتبه وأشعاره .

مهما يكن من شىء فسيبقى المازنى رائد الثقافة ــ سلطان السخرية .. مبدع القصة النفسية فى أدبنا العربى الحديث .. انه ذلك الأديب الشاعر .. صاحب المقال .. القاص ذو القلب الدافىء الذى كشف لنا عن تجربة حياته فيما سطره من كلمات .

رحمه الله رحمة واسعة ...



الدكتور محمد حسين هيكل

ماذا يبقى من : «زينب» وثورة الأدب

هو رائد من رواد الحركة الأدبية والفكرية والصحفية ، والسياسية .. قام بدور بارز فى الحياة المصرية العامة خلال نصف قرن من الزمان . . ولكن آثاره الثقافية هى التى ستبقى ... وستظل رواية « زينب » ، وكتاب « حياة محمد » ، و « مذكرات فى السياسة المصرية » ـ من معالم الطريق الذى رسمه لنفسه خلال النصف الأول من القرن العشرين ..

كان الدكتور محمد حسين هيكل فى شبابه من هواة المعارك الصحفية والأدبية والسياسية . ولكنه لم يكن من هواة السب، أو القذف أو تناول الأعراض كان رجلا عف اللسان ، متسامحا،كريما فى خصوماته، وكثيرا ما قال كلمة الحق فى أحرج المواقف ، ينصف بها الخصوم والأنصار على السواء .

كانت له موهبة استشعار بالحياة الصحفية ، فقد كان يعرف كيف يفتق ذهنه من أجل خلق أفكار جديدة تفيد الصحافة وتثريها ، وتجعلها صحافة حية ، ديناميكية . والتى بدأت بظهور جريدة « السياسة » .. فقد كان الدكتور هيكل : ـ

أول من جعل المقال الصحفى صغيرا مركزا دون تطويل ممل واعادة وتكرار وأول صحفى اقترح التخصص والتوسع فى عملية التخصص . وما زال ذلك متبعا فى جميع الصحف الكبرى وأول من أوجد «الريبورتاج»! التحقيق الصحفى فى الصحافة المصرية ، اذ أوفد الى أوروبا والى جميع الجهات داخل وخارج مصر . مندوبين بحثا عن الأخبار التى تهم الرأى العام فى جميع أنحاء العالم ـ كما كان أول من أدخل النقد المسرحى والفنى والقصصى ، وكان أول من خصص صفحات للأدب والعلوم والفنون فى

الصحف ـ كذلك هو أول من نشر « حديثا صحفيا » لفتاة مصرية فى عام ١٩٤٣ وأفسح صفحات الجريدة للمناقشة بين دعاة النهضة النسائية وأعدائها • ونذكر السيدة هـدى شعراوى وندوتها الأدبيـة على سبيل المثال ، فكان يشجعهم فى هذا الشأن ـ وأخيرا فهو أول من فضل الخبر على المقال •••

ويهمنا أن نذكر ما كانت تعانى منه جريدة السياسة ، من افلاس مادى رغم تضحيات الدكتور هيكل الذى كان يرأس تحريرها ، ورغم ما أنفقه عليها المغفور له محمد محمود باشا ، وهو يتجاوز ثلاثين ألفـا من الجنيهات !

كان مرتب « الدكتور هيكل » ، المربوط فى حسابات الجريدة يعد « حبرا على ورق » وهو يبلغ ألفا ومائتى جنيه سنويا ••• لكنه لم يقبض منه شهريا الا جنيهات معدودة لم تتعد مصارف المواصلات والسجائر !

فمعروف انه كان يساهم فى التضحية ويتحمل من مرتبه جزءا من الخسارة الدائمة المستمرة ، الأمر الذى جعله يعتمد على مؤلفاته وأبحاثه ومقالاته ليعيش ويواصل حياته •

ومما يذكر أنه قد وضـع كتبا قيمـة متعددة فى القصـة والرواية والتراجم •• نذكر منها كتابه الرائع الخالد : « حياة محمد » ، وروايته الرائدة : « زينب » وكتابه الأصيل : « ثورة الأدب » الذى أصدره عام ١٩٣٣ والذى أراد به أن يستعيد مجـد مصر وتأكيد شخصيتها وعـودة روحهـا الجـديدة ••• أما مذكراته فهى صفحة ناطقة من تاريخ مصر السياسى •

ولما مات ولده الأول وهو ولده البكر جزع عليه وأصـدر كتابه المعروف : « ولدى » •••

لكن الله عوضه عن ذلك فيما بعد ، بولدين هما : حسين وأحمد وخمس بنات هن : عطية الله ، وتحية ، وهدية ، وبهيجة ، وفائزة ••• وقد أحسن تربية أولاده وتهذيبهم وأعطاهم جميعا ثقافة عالية •

كان الدكتور محمد حسين هيكل ، محاميا وأستاذا جامعيا ، وكان سياسيا وزعيما لحزب ، وخليفة لعبد العزيز فهمى باشا ، ومحمد محمود باشا فى رئاسة حزب الأحرار الدستوريين •••

وكان وزيرا ثم رئيسـا لمجلس الشـيوخ ، ولا ننسى موقفه من استجواب الأسلحة الفاسدة فى جلسة مجلس الشيوخ التى كان يرأسها ، الأمر الذى أغضب الملك فاروق الى درجة أنه أصدر مرسوما باخراجه ••

كان الدكتور هيكل انسانا وديعا وكان عفيفا لا يطمع فى جمع المال ، وأبى الاثراء عن طريق السياسة والزعامة ٠٠ كما رفض أن يعيش على المحاماة التى كانت فى عهده تدر ثروات طائلة ٠٠٠ وهجر وظيفة الأستاذية فى الجامعة وآثر أن يعيش على قلمه ، ومن صناعة الأدب والصحافة والفكر المصرى الاسلامى ٠

لم يلعن الدنيا ، كان يضحك لها دائما ٠٠٠ ولما أحس بضعف بصره استعاض بأولاده عن قوة ابصاره فكانوا يقرأون له الكتب والصحف ٠٠ بل ويقودونه فى الشارع من يده ٠

كان يضحك من الدنيا ، ومن ثم فلا نعجب اذا رأيناه يموت والابتسامة على شفتيه ٠

كان ذلك فى ٨ ديسمبر عام ١٩٥٦ ٠

نظرة تقييم :

رومانسية « زينب » ، حاول أستاذنا الرائد أن يقنعنا بأنه يهدف من روايته الى تصوير واقع الريف المصرى ، ويهدى الرواية صراحة الى مصر التى يمثل الريف أصالتها ووجهها الحقيقى ، هذه الطبيعة المتشابهة اللذيذة ٠٠٠ يقول عن « حامد » بطل روايته أنه كان معجبا بقاسم أمين ومدين لأستاذيته ٠٠٠ ويقول : « اللذة التى تجعل للحياة قيمة هى أن يكون الانسان قوة عامة ذات أثر خالد فى العالم » ٠٠٠

ومعروف أن الدكتور هيكل هو المعجب بقاسم أمين وآرائه ٠٠٠ أما الطبيعة فى روايته فهى قصيدة غنائية ، تعرض صورا بالغة الروعة ، ويسكب فيها كل حبه وحنينه لمصر ٠٠٠ وفى كل موقع فى الرواية تلتقى فيه بالطبيعة فان المؤلف ينشدك نشيدا من أناشيد الحب والتقديس ٠٠٠

قرية الدكتور هيكل ، قرية بلا مشاكل ، هادئة صبورة وادعة ، الفلاح فيها يعيش حياة العبيد التى اعتادها منذ الأزل ، لا يشكو ولا يتذمر ولا يقلق ، لا شوق له ، ولا حلم ، كتلة جامدة متشابهة من الكدح والصبر فى نفس الوقت ، لا حقد فيها ولا تطلع ، ولا تستطيع هذه الكتلة من البشر أن تقوم بشىء لنفسها ، انها قابعة فى السكون ٠٠٠

وصاحب الأرض فى الرواية راض عن هذه الحالة ، يقدس القديم والماضى وعادات السلف ، ويأسف لكل اتجاه للتغيير ٠٠٠ ولا يمل الدكتور هيكل من ترديد هذه النغمات فى روايته كلما أراد أن يتحدث عن فلاح قريته ٠٠

ويبدو أن الدكتور هيكل لم يكن يشعر بأى أسى لحال الفلاح وواقعه ــ فى الرواية ــ بل انه يكاد يجسده على طراز حياته لانه يعيش فى أحضان الطبيعة . طبيعة مصر الأم الحنون « فى هاته الليالى الساهرة ، هاته الليالى البديعة ، يموج فى جوها نسيم الصيف العليل وتتلألأ فى سمائها الكواكب اللامعة ، وفى جوف الظلمة الصامت الأمين يرسلون بآمالهم وأمانيهم . ويحمل هواؤها الحلو أغانيهم على جناحه ويملأ بها بين السموات والأرض ... (١) .

واضح أن « زينب » ليست ابنة للقرية التى نشأت فيها ماديا ومعنويا انها ابنة « شرعية » للطبيعة الجميلة التى عرضها الدكتور هيكل فى المناظر الريفية ، وليست ابنة للأخلاق الريفية ، واذا كانت « زينب » « ابنة للطبيعة » فيمكنها أن تكون قمة الجمال والروعة !

وان كانت زينب « تفطر بحصوة ملح » (٢) وتعمل عاملة زراعية تكدح فى الشمس الحارقة طيلة يومها فانها لا تبدو الا كملكة متوجة أو كالعروس .

وقد أبدعت الطبيعة فى « زينب » وأعطتها بذلك تاجا معترفا به من كل « صويحباتها » و « زينب » فتاة عفيفة .. وتراها تصاب من جو الحب بالسل وتموت كغادة الكاميليا والدماء تنزف من فمها ..

ويبقى لرواية الدكتور هيكل بعد ذلك انها العمل الفنى الرائد الذى شق الطريق ومهده ..

ويبقى له أنه من أبناء جيله بين من شقوا الطريق لجعل الواقع مجالا للأدب بدلا من عالم البطولات الأسطورية ، وأنه فتح الطريق أمام أبطال من البشر العاديين بدلا من الملوك والأبطال الأسطوريين ، وأنه تنبه الى أن للأديب ذاتا ينبغى له أن يعبر عنها ، وأن للذات مشكلة مع المجتمع .. وأنه فتح الطريق فى أدبنا العربى الحديث للتأثر بالآداب الأخرى ..

كذلك كان للدكتور هيكل فضل نقل الرواية من « فكاهة » لا يقصد بها الا التسلية الى مرحلة العمل الفنى الهادف الجاد ...

كتابه : ثورة الأدب :

حين استبد حكم وزارة اسماعيل صدقى فى مصر ، لم يجد الدكتور

---

(١) فجر القصة المصرية : يحيى حقى .

(٢) الرواية ص ١٤ .

هيكل بدأ أن تصدر كتاب ثورة الأدب وذلك عام ١٩٣٢ ، كرد فعل للأحداث السياسية والخارجية ، وحالات القهر التى فرضتها تلك الوزارة على الشعب آنذاك ، وأيضا لأن الأدب العربى كان يضطرب بعوامل الثورة العرابية فى مصر ٠٠٠

ويهمنا أن نؤكد أن الثورة السياسية تسير جنبا الى جنب مع الثورة الأدبية ٠٠٠

والدكتور هيكل يؤكد ضرورة أن يكون الأدب قوميا يستخدم الفصحى التى يفهمها كل عربى ويؤدى لجميع الأقطار العربية حاجتها كما يؤكد ضرورة العناية بدعامة الايمان فى بناء الأدب فيقول :

الأدب بوصفه مظهرا للحضارة ـ لا غنى له عن تجلية جانب الايمان فى النفس ، كما يجلو جانب العواطف المختلفة . ولا غنى له أن يحلل هذا الجانب ويصف أثره فى الحياة ، ومعروف أن جانب الايمان فى الشرق العربى قوى أيا كان الدين الذى يدين به هؤلاء الشرقيون ٠

فلا يمكن أن يؤدى الأدب رسالته اذا أهمل هذا الجانب القوى من جوانب حياة الشرق العربى ، واذا لم يحاول أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله الصلة تستقيم مع التفكير الحديث ٠

ويختتم حديثه عن « ثورة الأدب » وضخامة مسئوليتها فيقول :

« وأكبر اعتقادى أن هذه الثورة ستظل متصلة زمنا طويلا ٠٠٠ فنحن لا نزال بعد فى بدايتها ، وحسن توجيهها ٠ وفى حاجة الى جهود شاقة جبارة ، والى أن تجود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الأدب بصورة تدعو الى استقراره ٠٠٠ وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لم يوجد منهم فى الشرق العربى الا عدد قليل ٠٠

وبناء صرح الأدب على الصورة التى تدور فى نفوسنا ـ ونرجو أن تراها أعيننا ـ فى حاجة الى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين ٠٠ والقوى التى تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة ٠٠ » ٠

ثم يقول فى الختام فى حماس صادق :

« ليقتحم أدبنا اذن ماضينا ، وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبى بأساليب الكتابة الحاضرة ٠٠٠ وليقتحم هذه الميادين حرا طليقا غير هياب ولا متردد ٠٠٠ وليقتحمها بروح الثورة التى اقتحم بها الأدب الغربى تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما ، وبروح الثورة التى اقتحم بها الأدب العربى تراث فارس ومصر واليونان وليقلب فى هذا

الماضي ما شاء له التقليب والتنقيب وبروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده ... » .

وفي حديث الدكتور هيكل عن ثورة الأدب المأمولة نجد نضاله المتصل الدائب ، وما تعرض له من هجمات واتهامات باطلة ، لكنه تحمل كل هذه الهجمات في صبر ومثابرة ، ومع ذلك فقد ظل يدافع عن « التجديد » مستندا الى « القديم » ... يقول في هذا الشأن :

« فاذا اتصل القديم والحديث وتضامنا . نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هي التي تقوم أساسا لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم والعيش في كنفها ... » .

ثم يواصل حديثه قائلا : « لهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة ، وأن أسلكها سبيل الأدب القومي ، وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت ... وقد بدا لي في وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الاسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهواني من هذه الصور .. لكنني وقفت يومئذ مترددا ... فأقدم للجمهور ثمرة بحثي في صورة من صور الأدب القومي ، فاذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئني من غير أن تزن بالقسط ما اليه قصدت ، متأثرة في ذلك ... بخصومة سياسية أو غير سياسية من الخير اذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد ... وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة الأدب قومي شهي الثمرة خصب غاية الخصب ... وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم . ولنطلق لحرية الأدب غاية مداها في تصوير حديث هؤلاء الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازنين بينهم وبين الآلهة الاغريق الذين الهموا من فوق الأوليمب حضارة أوربا الحاضرة ...

وقد بدأت مباحثي عن ابيس العجل الأله ونشرتها ،فلم أجد من أحد نفورا منها أو ازورارا عنها ، مما أثبت لي أن في النفوس الى هذا الأدب القومي ظمأ ، وانها شغوفة لورده اذا هي وجدت من يقدمه اليها ... »

ويواصل حديثه في هذا الشأن قائلا :

«وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الأدب المصري القديم ، سيقدرون ما كان للفراعنة الأقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة . ولعل منهم من يتابع هذا البحث ، ولعله يشعر حين يدون اثارة

بما شعرت به ، وهو أن تغير طرائق البحث ليس معناه اهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين ٠٠٠ » ٠

ثم يقول : « ان ابتكار طرائق جديدة فى الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لى لأذهب أجيرا عند الذى ابتكر هذه الطرق الحديثة، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها ٠٠٠ كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب فى بحث تاريخنا واقامة أدبنا ، وفى ابتكار علم يتصل بعلمنا ، وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا ٠٠٠ عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ولا نصبح عيالا على غيرنا ٠٠٠ » ٠

هكذا كان الدكتور محمد حسين هيكل ٠٠٠٠

هكذا تحدث عن البطولات العربية وخاصة فى فجر الاسلام وضحاه، وفى الحروب الصليبية ، فهذه ومضات تكشف عن بعض الملامح والقسمات لأدبه القومى الثورى الكبير ٠٠٠

فلم يكن عجبا أن يرأس تحرير السياسية التى عرف من خلالها وعلى صفحاتها طه حسين ، وعبد القادر المازنى ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، ومحمود عزمى ـ كما عرف شوقى وحافظ وخليل مطران ٠٠٠

الدكتور هيكل روائيا ومفكرا سياسيا

لا جدال أن الدكتور هيكل يعتبر رائد في الرواية ، فقد أبدع رواية (زينب) في تشكيل روائي حديث ، مخالف لجميع الأساليب الأدبية التى كانت سائدة في عصره ٠ كان ذلك في عام ١٩١٤ ٠

وقد أهدى روايته الى مصر التى يمثل الريف أصالتهـا ٠٠ فهذه الطبيعة المتجانسة اللذيذة الرائعة ٠٠ وذاك المكـان الذى يعتبر مهبط الوحى الشعرى ومصـدر الأديان منذ الأزل ٠٠ الطبيعـة عنده قصيدة غنائية يسكب منها شوقه وحبه وحنينه لمصر ٠ وواضح أن قرية هيكل قرية هادئة تخلو من المشاكل والمطالب ، صورة وادعة الفلاح يعيش فيها حياة العبد التى ألفها منذ آلاف السنين ، فهو لا يشكو ، ولا يقلق ، ولا يضجر ـ فعنده ان « اليس فى الامكان أبدع مما كان » ٠٠ انه كتلة جامدة صماء ، لا حقد فيها ولا تطلع ، فهى قابعة فى السكون ٠

وصاحب الأرض يعيش حياته راضيا مرضيا مقدسا لقديمه وزمن الأجداد ومقدسـا لمعتقداته وتقـاليده وتراثه الذى هو أشبه بالثوابت المقدسة التى يرثها جيلا عن جيل ٠ ويردد أستاذنا الدكتور النغمات فى ثنايا الرواية : (فالفلاحون يعملون دائما ومن غير ملال ويرقبون نتائج عملهم زاهرة ناضرة ، ثم يقطف ثمرتها (سيد مالك) كم فكر أن يبيع قطنه بأغلى ثمن ، ويؤجر أرضه بأرفع قيمة ، ويستغل الفلاح نظير قوته الحقير دون أن يحاول أن يمد له يد معونة أو يرفعه من درك الرق الذى يعيش فيه) (١) ٠

ومما يجدر ذكره أن الدكتور هيكل لم يكن يشعر بأى أسى نحو الفـلاح وواقعه ، بل انه يكاد يحسده على طراز حياته لأنه يعيش فى

---

(١) الراوية ص ٢٢ ، ٢٣ ٠

أحضان الطبيعة ، طبيعة مصر الأم الحنون ٠ يقول فى روايته صفحة ١٨ :
« فى هاته الليالى الساهرة هاته الليالى البديعة يموج فى جوها نسيم الصيف البليل وتتلألأ فى سمائها الكواكب اللامعة ، يقوم جماعة الفلاحون ويرسلون بآمالهم وآمانيهم ويحمل هواؤها الحلو أغانيهم على جناحه ويملأ بها بين السموات والأرض » (١) ٠

ومن المؤكد أننا ندين للمؤلف بفضل عرضه لموضوع جديد بالنسبة للقارىء العربى الذى كان قد اعتاد أن يرى الروايات الأسطورية التى كانت تنطوى على التخاريف والخزعبلات فلأول مرة يقدم لنا أسلوبا عربيا رائعا يخلو من المحسنات البديعية ، والتزاويق المحشوة بالجناس لأول مرة ينبه لى أن للأديب ذات ينبغى أن يعبر عنها ، وان للذات مشكلة مع المجتمع ولأول مرة يفتح لنا الطريق فى أدبنا للتأثر بالآداب الأخرى وله فضل أخير ، وهو نقل الرواية من (فكاهة وهزل) لا يقصد بهما الا التسلية الى مرحلة العمل الفنى الهادف الجاد ٠

عودة الدكتور هيكل الى وطنه :

عاد الدكتور هيكل الى مصر ، فاشتغل فى بادىء الأمر ــ بالمحاماة فى مدينة المنصورة ، ثم أخذ يلقى محاضرات فى الجامعة المصرية الأهلية وذلك منذ عام ١٩١٧ م ٠٠ وجدير بالذكر أن حزب الأمة الذى كان ينتمى اليه أستاذه الطفى السيد قد أغلق أبوابه ، وحل محله حزب الأحرار الدستوريين ، فانضم اليه الدكتور هيكل ، وبالتالى راح يشرف على تحرير صحيفته وهى صحيفة (السياسة) وشاركه فى ذلك زميله الدكتور طه حسين ٠

أخذ الدكتور هيكل يكتب ــ فى بادىء الأمر ــ سلسلة من المقالات السياسية ، لكنه سرعان ما انجذب الى الأدب والنقد ، فنشر طائفة من الدراسات فى التاريخ والأدب والسير الذاتية التى تنم عن ثقافته العربية والأوربية الواسعة ٠

كتاب : (فى أوقات الفراغ) :

جمع (أستاذنا) طائفة من دراساته التى نشرها فى صحائف (الجريدة) و (السياسة الأسبوعية) و (السفور) وطبعها فى كتاب بعنوان : (فى أوقات الفراغ) ٠

---

(١) الرواية ص ١٨ ٠

والكتاب ينقسم الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : خاص بالنقد الفنى ، والأدبى ، والسير الذاتية أمثال أناتول فرانس وقاسم أمين ومصطفى صادق الرافعى ٠

والقسم الثانى : يحوى دراسة توت ـ عنخ آمون ٠٠

أما **القسم الثالث** : فيضم خواطر فى التاريخ والأدب منها العرب والحضارة الاسلامية والأدب القومى ٠٠ وسوف نعرض لبعض هذه الدراسات فيما يلى : فحين يحدثنا الدكتور هيكل عن النقد الفنى والأدبى يتبين لنا أنه كان يمتاز بحاسة نقدية نافذة رهيفة ٠ فهو يفرق هنا بين النقد الذاتى ، والنقد الموضوعى ٠٠ فالأول يقوم على التقدير الخاص والنزوة البعيدة عن التحليل والتركيب ، انه نقد غير جدير بالتقدير ٠٠ فمهما يكن الناقد من سمو الادراك ورهافة الذوق ، لا يستطيع أن يضع تعميما شاملا لكل صور الجمال ومظاهره ٠ ذلك لان الجمال يتميز بالصور الفذة الفريدة وهو يضرب مثلا فى ذلك فيقول : (اذا زرت أحد متاحف التماثيل ، وجدت بين التماثيل الكثيرة فروقا بينها ٠٠ فهذا يرى جمال المرأة فى الخصر النحيل ٠٠ والساق الدقيق ، وذاك يراه فى انسجام أجزاء الجسم فى شكل متسق) والدكتور هيكل يرى ان الناقد الموضوعى يمتاز بسعة الأفق ، وعدم التمسك بالثوابت الجامدة ـ فهو يعمل عمل الماضى السمح ، المنزه عن الغرض وكان الدكتور هيكل يؤيد اختلاف المذاهب النقدية ، (فهى أمر ضرورى يتفق مع طبيعة الحياة ، ويتمشى وطبيعة الفنون جميعا ٠٠ فعنده ان هذا الاختلاف يتمشى مع تنوع الأشياء وتباينها ، كاختلاف أنواع ألوان الزهر والثمر ، والأشجار فاذا كانت الثمار ذابلة والأوراق منكمشة ، فذلك يعزى الى أن التربة لا تكون خصبة وبالتالى تصبح سيقان الأشجار ضعيفة والثمار ليست ناضجة مزدهرة ٠٠ والعكس بالعكس ٠٠ هذا فيما يخص النقد التشكيلى الموضوعى أما النقد الأدبى فهو يوصى باستخدام منهج (التحليل والتركيب) فى معالجة (العمل الأدبى) و (كاتبنا الكبير) يعطينا مثلا فى ذلك بالأديب مصطفى صادق الرافعى ٠٠ فهو عنده من الكتاب الذين يرون جمال الأسلوب العربى فى احتذاء أساليب الأدباء الأقدمين ومن ثم ، كان أسلوب الرافعى مختلفا عن أساليب أهل عصره ٠ فكان ينتمى الى أسلوب تقليدى لا يخلو من الصنعة والتكلف ٠٠ فمن الواضح أنه يستهوى أسلوب الأغانى ، وأسلوب ابن المقفع فى كليلة ودمنة ٠٠ فاذا كان الرافعى كذلك فكيف يتأتى نقد كتاباته ؟

يقول الدكتور هيكل : (انه اذا أردت نقده نقدا موضوعيا ، ينبغى أن تستجلى بادىء ذى بدء ـ ما له من فضل وفى الوقت نفسه ، عليك

بابراز سوءات هذا الأسلوب الذى لم يعد يلاحق تطور العصر ·· فهو لا يسهل تحميله كل المعانى والأحاسيس والصور التى تجرى فى عصرنا الحاضر) ·

وينصح الدكتور هيكل كل من يتعرض لنقد كتابات الرافعى أو غيره من الأدباء بأن يعمل على أن يوازن بين أدبه وأدب غيره من المذاهب الأخرى ·· فبهذه الموازنة يطمئن الأديب لنوايا الناقد فلا ينبغى أن يطعن فى نزاهته وصدقه ·

ونركز الضوء على مقال آخر فى ثنايا الكتاب وهو توت ـ عنخ ـ آمون ·· فقد زار الدكتور هيكل آثار وادى الملوك وخرج من هذه الزيارة بمجموعة من الانطباعات سجلها فى هذا المقال : لقد تجلى أمامه الوادى الصامت الذى يتحدث فى الوقت نفسه بأمجاد القدماء المصريين ·· فهذا الوادى عامر بكل معانى المجد والعظمة ـ وبكل آثار الموت والخلود ·· ولقد لاحظ موميات الفراعنة وهى محفورة فى جوف الجبل ·· ان هؤلاء الفراعنة ظلوا ملوكا أعزة ، ساكنى وديان طيبة) وهم أحياء يقول الدكتور هيكل : (كان باب رمسيس التاسع عن شمالنا وباب رمسيس السادس عن يميننا ، وبين البابين فجوة تؤدى الى باب القصر الجديد · أو قل القبر الجديد ·· القبر الذى شيد من ثلاثة آلاف سنة قبر توت ـ عنخ ـ آمون، فهبطنا الى بابه حتى كنا عند الغرفة ـ التى كشفت ـ عنها يد المنقبين وهناك وقعت على ما يبهرها : غرفة ملآى بآثار فرعون ، بعرش الملك ، وسروره ، وعصيه ، وعرباته ·· لقد لبثت هذه الآثار فى هذا القبر ثلاثين قرنا أو يزيد) ·

تلك آثار أجدادنا الفراعنة الذين عاشوا من أربعة آلاف سنة أو يزيد ·· أليس عجيبا أن تضاهى تماثيل الملك الفرعون تماثيل الاغريق وتماثيل روما ، وتتفوق عليها ·· ويقول أستاذنا (يعجب الناس بتمثال آلهة الجمال ويعدونه نادر المثال ، ويعجب الناس بصور (ميكادنج وبنقوشه ذلك لأنهم لم يروا تماثيل توت ـ عنخ ـ آمون) ·

كتاب : حياة محمد :

ولا يفوتنا أن نركز الضوء على بعد آخر من الأبعاد الفكرية لمفكرنا العظيم وهو الفكر الاسلامى فقد قدم (حياة محمد) وهو بحث شامل عن سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وقد عالج سيرته بمنهج تاريخى تحليلى ، ارتقائى كاشفا عن مدى المعاناة التى عاناها فى سبيل دعوته ، والدكتور هيكل يبرز هنا الخصائص الفريدة التى يختص بها محمد والتى

تتمثل فيما وصل اليه من تحقيق تلك الوحدة المتكاملة بين المسلمين ٠٠ فقد كان يحثهم على معنى (الاخاء الانسانى) فلا يكمل المرء ايمانه الا اذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه وينفرد محمد بذلك الى غاية البر والرحمة ٠

وينفرد محمد بذلك الدور الذى لم يسبقه اليه نبى أو رسول ٠٠ فقد كان عيسى ٠٠ وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء ، يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس عن طريق الجدل وعن طريق المعجزة ، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة، أما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الاسلام وانتشار كلمة الحق على يديه ، وأن يكون الرسول والسياسى والمجاهد والفاتح ٠٠ كل ذلك فى سبيل الله ٠٠ وفى سبيل كلمة الحق التى بعث بها ، وهو قد كان فى ذلك كله عظيما ، وكان مثل الكمال الانسانى على ما يجب أن يكون ٠ تركت تعاليم محمد ، ومثله ، وقدوته في النفوس ، أعمق الأثر ، حتى لقد أقبل كثيرون على الاسلام ٠٠٠ وزاد المسلمون بالمدينــة شوكة وقوة ٠٠ حينئذ بدا اليهود يفكرون في موقفهم من محمد وأصحابه ٠

أترى يتركون دعوته تنتشر مكتفين بالأمن الى جواره أمنــا يزيد تجارتهم ثروة وربحا لقد تذكروا تلك الوثيقة الخطيرة التى عقدها محمد معهم والتى كانت تتضمن السلام والأمن بينه وبين اليهود ٠٠ وفى ثنايا تلك الوثيقة السياسية التى وضعها محمد منذ ألف وثلاثمائه وخمسين ما ينص (على حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وتحريم الجريمة وأن لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، وأن اليهود بنى النجار ، وبنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى ثعلبة ، وبنى الأوس مثلهم مثل بنى عوف فهم جميعا سواء) ٠

كان اليهود يسيغون تلك الوثيقة السياسية الخطيرة التى عقدوها مع محمد ، لكنهم كانوا يخشون أن تمتد دعوة محمد اليهم ، وخصوصا وانهم اكتشفوا أن عبدالله بن سلام وهو علم من علمائهم وحكمائهم قد أسلم وحث جميع أفراد أسرته على الدخول فى الاسلام ٠٠ وكان اليهود ينادونه بأنه سيدهم وحبرهم الأعظم ٠٠ لكنه حين تحول عنهم وأشهر اسلامه ، راحوا يصبون عليه اللعنة والتكفر ٠٠ فان ذلك الحادث أحد الأسباب التى جعلت اليهود يتمردون على الوثيقة) وينشقون عليها ٠٠ فقد أخذوا يكيدون لمحمد وينكرون نبوته ٠

كتاب : الامبراطورية الاسلامية :

ويضيف الدكتور هيكل كتابا قيما الى المكتبة العربية الاسـلامية بعنوان الامبراطورية الاسلامية حيث يوضح فيه أسباب القوة التى دفعت

الى تكوين هذه الامبراطورية ، ثم عوامل الضعف التى نخرت فى بنائها الشامخ حتى تداعت وتفككت ٠

فقد نشر الكتاب فى عام ١٩٤٢ ، وهو طائفة من المقالات يحكى فيها كيف تألقت الامبراطورية الاســـلامية التى كانت حادثا فذا فى تاريخ الانسانية ٠٠ فقد بدأ الغزو العربى للشام ، والعراق سنة خمس وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح ٠٠ وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ، استطاعت الامبراطورية الاسلامية أن تضم اليها فارس ومصر وشـمال افريقيا وامتدت الى حدود الهند وتاخمت الصين ٠

ومن الواضح ان قيام هذه الامبراطورية فى هذا الزمن القصير ، يعد معجزة خارقة بل مما يدعو الى الدهشة أن هذه الامبراطورية استقرت قرونا . امتدت أثناءها الى الأندلس ، وانتشرت فى الهند واحتلت جانبا من الصين ٠٠ وأقامت حضارة سادت السواد الأعظم من العالم عدة قرون، فلما آن لها أن تنحل ، وتتفكك بقيت هذه الحضارة تناضل نفسها بنفسها ٠٠ ويقينا ان بعث النبى ودعوته هما اللذان أقاما هذه الامبراطورية ٠٠ ذلك ما يعلله المؤرخون وهو تعليل صحيح ٠٠ ويقول الدكتور هيكل بأن دعوة النبى حوربت فى آخر حياته ، وبعد وفاته بأشد مما حوربت أول بعثه وفى مستهل دعوته ٠٠ كان قومه من قريش هم الذين خاصموه وقاوموه فى السنوات الأولى من بعثه ودعوته ولقد تغلب عليهم بالصبر والثبات حتى دان شبه الجزيرة لدعوته ٠٠ ويقول الدكتور هيكل : (لم تكن هذه الرسالة التى آمن بها العرب شيئا آخر غير رسالة الحرية والاخاء والمساواة فى أسمى صور يدركها العقل لمعانى الحرية والاخاء والمساواة) وفى ثنايا الكتاب يوضح (أديبنا الكبير) أسباب تدهور الامبراطورية قائلا : (ان دورة الفلك دارت فاذا الحـرية انقلبت جمـودا واذا هى والمساواة يذبلان أمام السلطان والباطشين من الحكام المستبدين وعنـد ذاك ، بدأت الامبراطورية تتدهور وتنحل) ٠

فمن الملحوظ ان أول العهد المكى من حياة الرسول لم يتعرض للدولة ولم يجعلها غرضا من أغراضه ، فقد اقتصر تجاه الدعوة الى التوحيد والى الأسرة ، وللميراث ، وللتجارة وللبيع ٠٠ والخلاصـة ان الامبراطورية الاسلامية كانت قوية البنيان حين كان يسودها العدل والمساواة والحرية والحكم الديمقراطى فقد عرفنا كيف بويع أبو بكر بالخلافة وكيف خطب النـــاس قائلا : (لقـد وليت عليـكم ولست بخـيركم ، فان أحسنت أعينونى ، وان أسأت فقومونى ٠٠ أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم ٠٠) ان هذا الحكم الديمقراطى النزيه من الشوائب والأغراض ، رأيناه يتلوه حكم الملوك ففى العهد العباسى كان

أمير المؤمنين يخطب الناس بانه ظل الله فى أرضه وبان الله وضع مفاتيح خزائنه فى يده ، فان شاء أن يفتحها فتحها ، وان شاء أن يغلقها غلقها وكانت نظرية الحق الالهى أو الحق المقدس للملوك نظرية معترفا بها منذ العهد العباسى ومن هنا ، كان من الواضح تفسير الفكرتين المتناقضتين فى نظام الحكم ٠٠ فقد رأينا أبا بكر وعثمان كانوا أولياء قومهم وذلك باختيار قومهم ومبايعتهم اياهم ، أما الملوك الذين جلسوا على العرش فقد خالفوا العهد ٠٠ الأمر الذى أدى الى شيوع الفساد والفتنة والتناحر بين المسلمين وبالتالى ، أدى الى تداعى امبراطوريتهم ٠

قصة : هكذا خلقت :

أخرج الدكتور هيكل قصة : (هكذا خلقت) وهى قصة طويلة ٠٠ البطلة فيها امرأة ظلت تصارع الواقع ولما كانت أضعف من أن تقاومه نراها تنقلب الى امرأة متمردة لا يعجبها أى شىء فى حياتها ٠٠ امرأة تسعى الى تدمير حياتها وتدمير كل شىء حولها ٠٠ لقد فشلت فى حياتها الزوجية وظلت تدور حول نفسها حتى أصابها الدوار ٠٠

ان مأساة هذه المرأة انها تريد أن تخضع كل شىء لارادتها ومشيئتها ٠٠ لقد رفض زوجها أن يخضع لها فظلت على كبريائها وصلفها حتى انتهت الى فراغ ويأس وقنوط ٠٠ لقد دمرت نفسها فى النهاية بنفسها وكان المؤلف يقول لنا فى ضوء عنوان القصة : هكذا خلقت هذه المرأة بذلك التكوين المدمر المهلك٠كتاب : «**السياسة المصرية والانقلاب الدستورى**» ٠

ولئن كنا قد عرفنا الدكتور محمد حسين هيكل كرائد للرواية فى مصر وكناقد أدبى وفنى فذ وككاتب للسيرة المحمدية وكأديب يكتب الدراسة الأدبية ويكتب خواطر فى التاريخ والأدب والحضارة المصرية القديمة فانه لا يفوتنا ما كان يمتاز به من بعد سياسى ثاقب ، فله فى النواحى السياسية فكره النضالى ومواقفه الكبرى وقضاياه العظيمة ٠٠

ولنذكر على سبيل المثال كتابه السياسى الشهير بعنوان : **السياسة المصرية والانقلاب الدستورى** الذى صاحبه فى تأليفه زميلاه **ابراهيم عبد القادر المازنى ومحمد عبد الله عنان وقد أصدره عام ١٩٣١** ٠

والكتاب يؤرخ لتاريخ مصر فى هذه الفترة منذ حدث الانقلاب الدستورى فيها فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ ٠ على أن يكون هذا التاريخ تاريخا يقصد فيه الى سرد الوقائع بالرجوع الى مسانيدها والتعليق عليه تعليقا أساسه الفكرة القومية السامية ٠٠ لكن من المفاجآت المؤسفة أن يصطدموا حتى فى تأليف هذا الكتاب بقوى البطش والارهاب وهى

تطاردهم أينما ذهبوا ٠٠ يقول الدكتور هيكل فى هذا الشأن فى مقدمة الكتاب : (لقد اتصل بنا ونحن نعد عملنا الذى نقدمه للقارىء ان وزارة الداخلية أحيطت علما وان وزير الداخلية اسماعيل صدقى باشا معتزم مصادرته متى هو تم ٠٠ ولقد أثار هذا النبأ منا دهشة ساخرة وليس مرجع دهشتنا الى أن شرائع مصر كلها ليس فيها قانون يبيح مصادرة كتاب من الكتب الا بواسطة النيابة العمومية اذا هى رأت فيه جريمة من الجرائم ، على أن تكون مصادرة تحفظية الى حين صدور القضاء وانما كان مرجع الدهشة عندنا ما لهذا النبأ من معنى عجيب ـ فهو اما أن يكون معناه ان صدقى باشا يفزع من قول الحق فى أية صورة من الصور وينصب الأداة الحكومية خصما مسلحا لكل من يرى انه يقول هذا الحق ٠٠ وانما أن يكون معناه أن صدقى باشا قد نصب نفسه خصما لأشخاصنا أو لشخص معين منا ٠٠ ولئن كان مما يعز دولته انه لا يحجم فى سبيل النجاح عن أمر من الأمور لأى اعتبار فان مخالفة القانون مخالفة صارخة بمصادرة كتاب من الكتب لأحد هذين المعنيين ليس مما يسهل على انسان من الناس فضلا عن رئيس حكومة أن ينزل اليه ٠٠ فان هو فعل فالقضاء حكم بيننا وبينه ٠٠ وأيا كانت النتيجة فان ما صودر من الكتب فى مختلف العصور ظهر للناس بعد ذلك بزمن قليل وكانت مصـادرته أقوى حجة لتحرى أصحابه الحق ولفزع محاربيهم منهم وفرارهم من مواجهتهم ٠ ونحسب القارىء أيا كان الرأى الذى يدين به سيتفق فى الرأى وايانا ٠٠ فهو سيرى ان شيئا من الضغن لم يمل سطرا من سطور هذا الكتاب ٠

واذا كانت سياسة الغاء الدستور واصدار دستور جـديد يجعل سلطة الأمة خيالا ووهما مما اعتزمته وزارة صدقى باشا القيام منذ يوم أول تأليفها وان هى أخفت ذلك عن أشد الناس اتصالا بها ـ نقول اذا كانت هذه السياسة قد أدت بالوزارة الى مخاصمة الأمة والى الاعتماد على التأييد الأجنبى وكان ذلك بعض طبائع الانقلاب الدستورى فى أمة ليس فى يدها جيشها ٠٠ اذن هى وزارة المصالح الأجنبية ٠٠ القد توهم الذين نقلوا بينا نبأ مراقبة وزارة الداخلية اياه ٠٠ كتاب دعاية ضد صدقى باشا لكن الحق يقال انه كتاب تاريخ فترة من أدق فترات حيـاة مصر ليست تقوم الدعاية فى الحكم على القوة المسلحة وترى لضمان بقائها أن تحطم الأقلام التى تجرى بما لا يعجبها ، فان تنشر فى الناس الارهاب كيما ينكمشوا فى فزع منها وأن تنفى عن سـعة فى استرضاء الانجليز ليظل لها تأييدهم وأن تضع من مرافق البلاد كل ماستطاعت تحت تصرف رؤوس الأموال الأجنبية لتنال عطفها ٠ فما حاجتنا بالدعوة ضدها وسرد الحوادث وحده كفيل بأن يظهر الحقيقة ٠

بعد ذلك يضم الكتاب أحد عشر فصلا وهم كالآتى :

الفصل الأول بين مصر ولندن ، الفصل الثانى المسألة الدستورية والحريات العامة ، والفصل الثالث أساليب الحكم المتبعة ، الفصل الرابع الشئون الاقتصادية ، الفصل الخامس أثر الانقلاب الدستورى فى الموقف الحاضر ، الفصــل السادس مسألة الحدود الغربية ، الفصــل السابع مسألة التحكيم بين مصر وأمريكا ، الفصــل الثامن من مناصب القضاء المختلط ، الفصل التاسع علائق مصر والحجاز ، الفصل العاشر النفوذ الأجنبى فى نواحى التعليم والثقافة ، الفصل الحادى عشر خاتمة ونتائج ٠

وكم كنا نتمنى أن نعرض كل فصل بالتحليل والتقييم لولا ضيق المقام وحسبنا أن ندرك كيف كان الدكتور محمد حسين هيكل رائدا أيضا فى السياسة بمعنى أنه كان يفكر بعقله وبقلبه تفكيرا سياسيا من الدرجة الأولى فلا يضن على السياسة بمجرد القلم سواء كان صحفيا يكتب المقال الصحفى أو كاتبا يؤلف الكتاب السياسى أو محاميا يدافع عن قضــايا الوطن فى محيط نضالنا الوطنى الذى كان يكافح الاستبداد ٠٠ استبداد السرايا أو الانجليز ٠٠

ماوراء أدب يحيى حقى

أديب كبير ، وناقد نابه يمتاز ببصيرته النافذة ، وهو أحد رواد فن القصة المصرية ، له أكثر من ستة عشر كتابا ، بين قصة ورواية ، ودراسة أدبية ، وله حاسة فنية رهيفة ، جعلته يميل الى تذوق الفن بأشكاله المختلفة ، من تصوير ، ونحت ، وموسيقى • كان أول أديب يحدثنا عن نظرية (الفن للفن ، والفن للحياة) وذلك من خلال دراسته الشيقة لعودة الروح لتوفيق الحكيم ، ترجم عددا من القصص والمسرحيات ، لكنه ظل يخص القصة القصيرة باهتمامه الأكبر ، وكان أول من نادى بضرورة دراسة الأغنية للكشف عن الشحنات الوجدانية التى يستهويها الشعب المصرى ، كان أحد الداعين بضرورة ابتكار أسلوب أدبى جديد يضاهى روح العصر ، ويعبر عن حاجاته وتصوراته ، وله فى هذا الصدد نظرات نقدية ثاقبة • يمتاز عالم قصصه بمفاهيم دراسية عديدة ، فيها مفارقات الحياة ، ومنها ان الانسان حبيس نفسه فهو ذرة مغلقة غامضة لا يفرج عنه الا بكشف النقاب عن مصائبه المكبوتة ، المكظومة ، ومنها الصراع من أجل البقاء ، والتسلح بالارادة الفولاذية لمواجهة معركة الحياة التى لا تقبل الرجل الطيب الضعيف فهى تجزره جزرا •

هو أديب مصر المبدع (يحيى حقى) الذى ولد فى ٧ يناير عام ١٩٠٥ ، بحارة (المبيضة وراء مقام السيدة زينب) ، فى بيت متواضع من بيوت وزارة الأوقاف •• فكان الهذا المكان الموحى بالأحاسيس الشعبية أثر فى تكوينه النفسى والفنى ، رغم أن أسرته قد غادرت هذا الحى منذ كان طفلا صغيرا • يقول فى هذا : (ما زلت الى اليوم أعيش مع بائعة الطعمية ، والأسطى حسن الحلاق ، وبائع الدقة ، ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام (الست) •• كانت والدته شديدة التدين، مولعة بقراءة القرآن الكريم ، وكتب الحديث والسيرة النبوية •• أما والده الموظف باحدى دور الحكومة ، فكان مغرما بشعر (المتنبى ، يحفظ

قصـائده . ويلقيهـا عليهم فى جلساتهم المسـائية كان لشقيقه الأكبر (ابراهيم) مكتبة عربية انجليزية راح ينهل منها مددا رائعا ، أعانه على تنمية مداركه ، وانضاج مواهبه ·· أما (عمه) محمود طاهر فقد لعب فى حياته الثقافية والأدبية ، دورا كبيرا ، فهو الذى أخرجه من حالة الانطواء والقوقعة التى كان عليها ، فجعله يرتاد الأندية الأدبية ليتعرف على عمالقة الأدب ، وليستمع الى مجالاتهم ، ومناظراتهم ، وكان يصحبه فى رحلاته للقاء صديقه الشاعر أحمد شوقى ، فكان يحظى بالجلوس معه عدة مرات ، سواء فى محل (صوالت) الحلوانى ، أو فى بيته ، وأبدى الشاعر اعجابه بهذا الشاب الموهوب الطموح ، فأطلعه ذات مـرة ، على قصيدته : (أميرة الأندلس) ، مشجعا اياه أن يبدى رأيه فى صدق ·· فما كان من هذا الشاب الا أن اندفع ناقدا « هذا العمل » فى عنف شديد، الأمر الذى جعله ــ فيما بعد ــ يشعر بالندم والحياء ·

والتحق يحيى حقى ، فى أول عهده بالتعليم ، بكتاب السيدة زينب، ثم بمدرسة (والدة عباس) الابتدائية ، كان المدرسـون يوسعونه ضربا بعصاهم الغليظة ، وكان يتمزق ألما من عملية حشد دماغه بمعلومات لايكاد يفهم منها شيئا ، ولا لماذا يتعلمها ، وكانت النتيجة هى رسوبه فى السنة الأولى الابتدائية وذلك بسبب خوفه ، وعدم فهمه ، فقضى فى تلك المدرسة خمس سنوات غاية فى التعاسة ·· ومن تلك اللحظة التى رسب فيهـا ، رأيناه يبذل جهده الجهيد لكى يفر من هذا الجحيم ويجتاز سنوات تعليمه فى سرع سريع ، حتى لا يغضب والدته التى كانت بمثابة عماد الأسرة ·· فهى تخيط ملابسهم ، وتطبخ ، وتطعمهم متكلفة فى ذلك أشد العناء ، متحايلة للوصول بهم مستورين لآخر الشهر ·· حصل على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية عام ١٩١٧ ، فالتحق بالمدرسة (الالهامية الثانوية ــ بنباقادن الآن) ، ومنها حصل على شهادة الكفاءة ، ثم انتقل الى المدرسة السعيدية فالخـديوية ، ومنها حاز على البكالوريا عـام ١٩٢١ ، وكان فى صباه يتمنى أن يصبح طبيبا حتى يشبع فضوله فى اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الانسان ورأسه ، لكنه أشفق على أسرته التى تتحمل أعباء أشقائه الكثيرة ، فآثر أن يدرج بالقسم الأدبى الذى أهله للدراسات النظرية ، واختار مدرسـة الحقوق العليـا ·· كان من زملائه فى تلك المدرسة توفيق الحكيم ، والمرحوم حلمى بهجت بدوى ، والدكتور عبد الحكيم الرفاعى ·

فى تلك الفترة قرأ كتابات عبد الله النديم ، مصطفى كامل ، وكل ما نشر عن حادثة دنشواى ، ومؤلفات المنفلوطى ، وجبران خليل جبران ، وقرأ من الأدب الانجليزى روايات ديكنز ، وروبرت لويس ، وستيفون

اديسون ، ومن الأدب الأمريكي ادجار آلن بو ٠٠ وفي أول يناير ١٩٢٧ تسلم عمله الجديد معاونا للادارة بمركز منفلوط ٠٠ وهناك استطاع أن يطلع على ملامح أهالي الريف الذين يمثلون غالبية سكان مصر : الطبيعة السمحة ، والفطرة البسيطة ، والسجية الحلوة التي تخلو من الزيف ، والدهان المصطنع ، فقد خالط الأهالي وخالط الفلاحين وعاش حياة هادئة لا يشوبها ترنيق أو تنغيص ، لكنه فوجيء بعد مرور سنتين ، بذلك اليوم الذي أعلنت فيه وزارة الخارجية عن مسابقة لأمناء المحفوظات في القنصليات والمفاوضيات ، ونجح يحيى حقي في تلك المسابقة فعين كأمين لمحفوظات القنصلية المصرية في (جدة) وذلك في عام ١٩٢٩ ، ثم نقل من جدة الى استامبول عام ١٩٣٠ ، وهناك تعلم اللغة التركية ، وقرأ عن مصطفى كمال أتاتورك والتقى به أكثر من مرة ، وحاول الاتصال بأدباء تركيا ، فالتقى بالشاعر عبد الحق حامد ـ شكسبير تركيا ـ والشاعر يحيى كمال ، أما الشاعر محمد عاكف فقد فر من تركيا بعد حركة أتاتورك فأقام في مصر ؛ وبعد أربع سنوات قضاها في تركيا نقل الى (روما) ٠ وفي تلك الأثناء ، بدأ اتصاله المباشر بالحضارة الأوربية ، فقد تعلم الايطالية وأخذ يغرف من الأدب الايطالي ، وسرعان ما وجد نفسه غارقا في عصر النهضة الذي نقل أوربا من الظلام الى النور ٠٠ ويعترف يحيى حقي بأثر تلك الفترة الذهبية على تكوينه الثقافي بقوله : (ان بضاعتي في الموسيقى والتصوير وبقية فنون الأدب العالمي ، الفضل أرده الى السنوات الخمس التي قضيتها في روما) ٠

تجربة الكتابة :

بدأ يحيى الكتابة في سن مبكرة في حوالي السادسة عشرة من عمره ، فأخذ يشق طريقه في دنيا الأدب مستويا ذلك القالب الأدبي الجديد الممثل في القصة القصيرة ، واذا كان فطاحل الأدب في عصره قد جذبهم تيار الشعر فصاروا في رؤيته مبدعين ، ودارسين ، ومجددين ، فان يحيى حقي قد استهوته القصة القصيرة ، ذلك القالب الذي يشبه القصيدة من حيث التركيز ، والوحدة العضوية ، والشحنة الشعورية ٠٠ فقد نزع الى أن يكون أحد الداعين لحركة التجديد في النثر ، لقد اكتشف مواهبه في ابداع القصة والرواية ، فراح يجند كل طاقاته في خدمة النثر ، تصفيته من شوائب الماضي العالقة به ، حتى يكون أداة ملائمة للتعبير عن حاجة العصر ٠ لقد لاحظ ان (الحركة) بدأت تدب في أوصال المجتمع ، فلم تعد حركة متجمدة في الأشياء ، وفطن الى ذلك التصور الجديد في الأدب الذي أخذ يبرز ، ويلقى رعاية واهتمام الشبان ، فيواكب هذا الواقع المتحرك ، المتغير ، المتطور الذي صار يتشكل في صور ،

وأحداث ، ووقائع ، الأمر الذى جعل « الواقع المصرى » معقدا فى تكوينه، متشابكا فى ظواهره ، متصارعا فى علاقاته المضطربة ، المتناقضة ٠٠ فهو الآن يحتاج الى أداة جديدة تعمل على تحليل جزئياته ، وكشف ما يحمله فى جوفه من خفايا وأسرار وألغاز ، فكانت القصة القصيرة عند يحيى حقى أنسب وسيلة للتعبير عن تيار عصره ٠ يعتبر (كاتبنا الموهوب) من أبناء الجيل التالى للقصة القصيرة ، الجيل الذى حاول تجديد اللغة وسلخها من حالة الثبات والجمود التى تصيبها ، واضفاء روح المرونة ، والسهولة عليها ، حتى تلين وتطوع وفقا لحاجاته الشعورية والخيالية والصورية ٠ كان جيله يمتاز بشغفه الشديد للقراءة ، والاطلاع على التراث القصصى العالمى : من روسيا الى انجلترا ، ومن فرنسا الى ألمانيا وايطاليا ٠ أما الأدب الأمـريكى فكان لا يسترعى الانتبـاه فى ذلك الوقت ، اللهم الا بعض أعمال ادجار آلن بو ٠ لقد تولد نتاج القصة المصرية ـ بادىء ذى بدء ـ بفضل نخبة من الشبان ، وهم من الموظفين والمهندسين والأطباء ٠٠ انهم يتشابهون جميعـا فى ثقافاتهم ، لكنهم يختلفون فى أمزجتهم وتجاربهم وخبراتهم ، وهم يكتبون كهواة ، دون أن يعتمدوا على حرفة الأدب التى كانت لا تكفى لسـد حاجاتهم ، وكان بريق الصحافة خافتا آنئذ ، لا يكاد يبين ٠٠ التفت هذه المجموعة من أدباء القصة فى بادىء الأمر ، حول الأستاذ « أحمد خيرى سعيد » الذى كان يصـدر صحيفة (الفجر) ، فقد كانت هـذه « الصحيفة » بمثـابة منفذهم الوحيد لعالم النشر ٠

كانت القصة القصيرة على يد هؤلاء لا تعدو أن تكون تكثيفا للقطة سريعة لبعض المرئيات ، أو الأشخاص ، فحسبك أن تصف شخصا غريب الأطوار ، أو مكانا غير مألوف حتى تنجز عملا قصصيا ، ولعل انتـاج « محمود تيمور » فى مراحله الأولى ـ أصدق دليل على ذلك ، فقد توارثت عائلته جيلا بعد جيل ـ تلك العادة الغريبة التى أفاد منها ، وهى أن تحيط نفسها بطائفة من شواذ الناس الذين يبعثون على الضحك منهم ، أو الرثاء لهم ٠٠

كان قصاصو هذا الجيل ، لا تتخطى (حاستهم الفنيـة) حدود السطح وما يجرى فوق هذا السطح من صور وأحداث ٠٠ فهم لم ينزعوا جهدا من أجـل الغوص الى الأعمـاق واستبطان الواقع ، وتأمله ، ولم يثابروا على استيعاب القيم الفنية من عمليـات ، ضغط الواقع واختزاله وتركيزه ، وتحليل عناصره ثم تركيبها فى صياغة جديدة » ٠٠ كان الجيل الذى ينتمى اليه (يحيى حقى) يحكم على الماضى بعقلية الحاضر آنذاك ، لم يجد فى ماضيه ما يلهمه من رصيد القصة والدراما مثلما يحدث

بالنسبة للأدباء الأوربيين ، ومن ثم كان من الضرورى على هذا الجيل ـ فى بداية حياته الفنية أن يقفوا اثر زملائه السابقين عليه ، وأن يعانى كثيرا من أجل ترسيخ القصة فى حقل الأدب وانتزاع اعجاب الناس بها وتقديرهم لها ·

ويحاول يحيى حقى أن يضع تصنيفا موضوعيا لتفسير تلك المرحلة من تاريخ فن القصة المصرية ، فهى عنده تنقسم الى قسمين : فئة العقليين، وفئة القلبيين ·· يقول فى هذا الشأن : (ان فئة العقليين قد تزعمها الدكتور محمد حسين هيكل بقصة (زينب) ·· انتاجها وليد تقرير ذهنى منطقى ، أما زعيم القلبيين ـ ويا للغرابة ـ فهو محمود تيمور ، هذا الفتى المنعم ·· يكتب مثلنا نحن الفقراء ، من وحى قلبه ، بدافع من احساسه ، ان انتاجه متألق كابتسامة الطفل ، ووراء محمود تيمور يجىء محمود طاهر لاشين ، مهندس المبانى ، فلا عجب ، ان كان من واضعى أسس القصة المصرية ، وأحب أن أشهد ان توفيق الحكيم قد امتاز وحده بجمعه بين العقل والقلب ، فمسرحياته الكبرى انما هى ذهنه ، ومسرحياته الشعبية قلبه النابض ، وتعتبر (عودة الروح) قلبه ، ومن ثم ، نأمل أن يجمع بين الاثنين فى قصة يكتب لها الخلود ، لا فى مصر وحدها بل فى الأدب العالمى) ·

وقف يحيى حقى ـ فى بادىء عهده ، بتجربة كتابة القصة موقف المتحدى لكل العقبات التكنيكية التى تحول دون ابداع هذا الشكل الأدبى ، فقد ثار فى نفسه هذا السؤال : لم لا يكون لنا مثل الغرب أدب قصصى ؟

كان جيله يخطو خطوات بطيئة ، متعثرة فى سبيل ابداع هذا اللون من الأدب ·· لقد أرادوا أن يجعلوا من أنفسهم جيل تمهيد وتشييد معا ·· تشهد تلك البنايات القصصية الأولى فى أدبنا العربى ، لهـذا ، رأينا (أديبنا الكبير) يأخذ على عاتقه تلك المهمة الصعبة ، فيبذل جهده من أجل تصفية كل العقبات الخاصة باللغة ، خصوصا الأسلوب المليء بالألفاظ الطنانة الجوفاء ·· كان كالمحموم الذى يهذى باحثا عن ضالته الضائعة ·· فهو لا يريد أن يغترب عن بلده فينقل عن الغرب نقلا حرفيا ، أو يقوم بعملية تمصير لأعمال أدبائه ·· كل ما يريده ، هو تفتيت بنية واقعه المصرى ، ليكشف عن طبيعتها ، وليسقط عليها من أحاسيسه وخيالاته ما يجعلها تنطق ، وتعبر عن أفراحها ، وأتراحها ·· ومن هنا ، أراد يحيى حقى فى أول خطوة يخطوها فى هذا المضمار أن يخلق قصة مصرية ، لحما، ودما ، تنبع من صميم خصائصنا وتدل علينا ·· لكن سرعان ما يصطدم

في هذا الصدد ـ بأسلوب المقامات الذى كان سائدا فى تلك الفترة ، والملىء (بالتوابل والبهارات اللفظية) ـ أقصد تلك الزخارف والتزاويق والمحسنات ، تلك التى عاقت اللغة العربية فى عصور الاضمحلال ٠٠ وادراك ان التقصير يجب الا يوجه الى لغتنا ، وانما الى الظروف المؤلمة التى أحاطت بنا فاللغة في رأيه ، مثل « الكائن الحى » الذى يتـأثر بظروف الأمة ، ويؤثرفيها ، بدليل أن هذه اللغة استطاعت فى عصر النهضة أن تعبر عن حضارة ، وتترجم التراث الفلسفى عن الأمم الأخرى ٠ وأثبتت مقدرتها على المرونة ، والانطلاق . فلم تقصر فى استيعاب ألفاظ لغات أخرى ، وعلت عن القواعد الجامدة للنحو والصرف ، ثم دب الانحلال فى الأمة العربية ، وكفت عن الجهاد ، واستسلمت للكسل ، ولقد اقترن هذا الانحلال بانحلال لغتنا فأصبحت لغة جامدة . وأصبح كلامها خاليا من الابتكار ٠ يقول « أديبنا المبدع » فى كتابه (خطوات فى النقد) : (نحن ورثة أجيال متعددة تعاقبت فى عصور الانحلال على أمتنا بالسجع اللفظى، لا أداء للمعنى ، بل لمجرد الخدر بالرنين الرتيب ٠ ان الميوعة فى الفكر تؤدى الى ميوعة الأسلوب ٠٠ وان ميوعة الأسلوب هى بدورها ترجمة لميوعة الفكر ٠٠ تعبيرات كثيرة متداولة هى بمثابة السجن المفروض على مجموعة من الألفاظ ، ففقدت معناها وكرامتها مثل قولهم : (فى سهولة ويسر ، فى خفة ورشاقة ، فى دعة واطمئنان ، فى خفر وحياء) وهكذا كان الكاتب يجر خيطا فتجرى المجموعة كاملة) ٠

البحث عن أسلوب جديد :

يرى (أديبنا الفنان) ان كل تطور يطرأ على المجتمع ، لابد وأن يعقبه تطور فى الأسلوب . ومن أجل هذا ، أخذ يركز (حاسته النقدية) على الألفاظ المكررة المستهلكة التى هى أشبه بالحشو الذى لا جدوى منه ٠٠ ألفاظ فارغة من المعنى . مجردة من الحس . فهى لا تشير الى مدركات ذهنية ، أو مدركات حسية ، فلا غرابة ، اذا رأيناه ينادى بمبدأ البحث عن اللفظ المفيد ، وتحديده تحديدا منطقيا صارما من أجل الايضاح ، والفهم ٠٠ ان حتمية اللفظ فى الجملة المفيدة وفى النسق اللفظى ، أمر ضرورى ٠٠ ولا تحسبن أنه بذلك ينشد أسلوبا علميا ، مجردا ، أو انه يطالبنا بالاقتداء بالأسلوب التلغرافى الذى نادى به (سلامه موسى) كلا ٠٠ فهو يتحـدث هنا عن « الأسلوب الأدبى » الجمـال من شروطه الأساسية التى لا غنى عنها ٠٠ انه لا ينكر موسيقية الأسلوب ، بل على العكس يتمسك بها كل ما يريده أن تنبع موسيقى الأسلوب من أعماق الكاتب ٠٠ من صميم نفسه ، ومزاجه ، وشعوره ٠ كذلك يلاحظ ذلك العيب الفنى المتفشى فى كتاباتنا ألا وهو : النظر الى الأشياء من زاوية

واحدة ‧‧ فنحن لا نفسر الأشياء الا فى ضوء ذلك المبدأ المنطقى : (أما ‧‧ أو) ‧‧ اما اسود أو أبيض أما الأرجحة بين السواد والبياض وهى ـ الظلال ـ فلا نعرفها ‧‧ فهذا الرجل اما خير أو شرير أما الصراع بين الخير والشر وهما طرفا النقيض الذى يولد الحركة الدرامية فى العمل الفنى ـ فهو يكاد أن يكون معدوما فى أدبنا ‧

ومن القيم الفنية التى يستمسك بها يحيى حقى ، ضرورة تحقيق الصدق فى « العمل الأدبى » بمعنى أن الكاتب مطالب باقناع قارئه أو متلقيه ، بما يقدمه اليه ‧‧ وليس الاقناع هنا هو المطابقة بين الواقع وبين الفن ، وانما هو اقناع فنى وليس اقناعا واقعيا ، ذلك لأن طبيعة الفن تختلف تماما عن طبيعة الواقع ‧‧ ومن قيمة الفنيـة : ضرورة تحقيق الحرية للفنان ‧‧ ذالك لأن جو الارغام ، والاملاء انما يجعل الفنان فى حال من الضيق والكبت والاختناق ‧‧ ان الانتاج الفنى لا يزدهر الا فى ظل الحرية والتلقائية ، فلا ينبغى أن تفرض عليه القيود ، والأوامر ، ولا ينبغى أن يوجه فنه من أجل الدعاية ، أو يهدف ويوظف فى خدمة أغراض معينة . فمثل هذا الأدب محكوم عليه بالعدم ، والموت ‧

الفكر السياسى والاجتماعى يحرك الواقع :

قلنا فيما أسلفنا ، ان « الواقع المصرى » ، ظل فى حال من الجمود والثبات الى أن بدأت تدفعه تلك التصورات الجديدة التى طرأت عليه ، فقد دفعته الى التغير والتحول والتطور ‧‧ ومن المؤكد أن مجىء الثورة العقلية التى أشعلها (الأفغانى) وتلاميذه ، قد تركت آثارها فى ابناء الجيل الذين كانوا يتبارون فيما بينهم محاولا كل منهم اقناع الآخر لوجهة نظره . مستخدمين فى ذلك الحجاج المنطقى ‧‧ لقد ساعد هذا الجدل السياسى على تلين اللغة ، ونحت أسلوب بسيط غير مقعر يصلح للتعبير عن الآراء المتعارضـة المتضاربة ‧‧ انه أسلوب حر تلقـائى أمنهم أن يستلهموه من لغتهم حتى يسعفهم فى ابراز معتقداتهم وأفكـارهم ‧‧ أسلوب يخلو من كل الاصفاد التى تكبله ، يخلو من التزويق ، والتكلف، والاصطناع ‧‧ ونستطيع أن نستجلى ذلك من كتابات محمد فريد ، وخطب مصطفى كامل ، ومقالات على يوسف ، ولطفى السيد ‧

كل ذلك . قد مهـد الى رجوع (اللغـة) الى مرونتها ، وسـهولتها وحيويتها . فقد صارت لغة طيعة هينة لا تعصى للكاتب أمرا ‧‧ فهى مجندة فى خدمة (الكاتب) حين يريد أن يسرد . أو يعبر ، أو يبدع ومن ثم . فقد تهيأت الظروف لظهور يحيى حقى كرائد من رواد القصة ، آنذاك وككاتب حصيف للدراسة الأدبية . وكناقد بصير ‧

فكانت أول قصة ينشرها في جريدة (السـياسة) باسـم قهوة ديمترى) وهى قصة غير معصومة من العيوب ، فقد وصف الكاتب عالم المرئيات وصفا حرفيا ، ميكانيكيا ، فكانت زلة قلمه فى هذه القصة ، مدعاة الى كفه عن أن يعود ثانية الى مثل هذا الخطأ الفنى • كذلك من أوائل قصصه التى نشرها في صحيفة « الفجر » قصة بعنوان : (فلة ، مشمش لولا) كل أبطالها من الحيوانات •

وبعد غيابه الطويل عن مصر ، وعودته من أوربا عام ١٩٣٩ •• شعر بالحنين الشديد الى وطنه والى طبيعة الحياة المصرية الأمر الذى جعله يبث أحاسيسه المتأججة فى روايته المعروفة باسم (قنديل أم هاشم) • لقد كتبها فى حجرة صغيرة كان قد استأجرها فى (حى عابدين) ، وكان يعانى حينئذ تجربة عاطفية مثيرة •

ان بطل القصة شاب تعلم الطب فى الجامعات الأوربية ، وشرب من معين حضارتها ، ولما عاد الى مصر صدم من حالة الركود ، والتخلف والجهل التى عليها ، فأراد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا •

ويهمنا أن نقرر ، أن انتاج حقى الأدبى ثرى ، متعدد الألوان •• ففى مجال القصة له : « قنديل أم هاشم » وصح النوم ودماء وطين ، وعنتر وجوليت ، وأم العواجز ، وخليها على الله ، ودمعة وابتسامة ، وعطر الأحباب ، وياليل ياعين •• ومن أدب الرحلات ، أبدع كتابه : حقيبة فى يد مسافر •• اما فى مجال النقـد الأدبى فله : فجر القصـة المصرية ، وخطوات فى النقد •

وسوف نتنـاول الآن بالدرس والتحليل نموذجين من قصصه ، اثيرين عنده •• وهما : قنديل أم هاشم وصح النوم •

فى امكاننا أن نستجلى المفهوم الدرامى الذى ينسج (المؤلف) منه كل خيوطه الفنية فى قصة (قنديل أم هاشم) ذلك المفهوم الذى نستطيع أن نلمسه فى تلك المفارقة بين الحياة الأوربية الواعية وبين روح الشرق وقيمه ومعنـوياته •• وهـذا ما يؤكده يحيى حقى حين يقول : (اسم اسماعيل – بطل (قنديل أم هاشم) أخذته من اسم صديق لى يدعى اسماعيل كامل ، فقد كان يمثلَ فى نظرى محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب) • وأعزو اختيارى بهذين النموذجين ، الى الشهرة التى حققتها القصة الأولى للمؤلف ، أما الثانية فهى حبيبة الى قلبه • يهمنا أن نشير الآن الى مدى رواج هذه القصة التى يرتبط اسم المؤلف بها دائما وأبدا – وكانه لم يؤلف غيرها من القصص الأخرى •• وهو يعلل السبب فى

ذلك بقوله : (انها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة ، وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القراء بنفس الطريقة) ٠

ان القصة ترتكز أساسا على ثلاث شخصيات هم : اسماعيل ، وفاطمة ، ومارى ٠ فاسماعيل ينال من رعاية أسرته ، واهتمامها بتربيته وتعليمه ما لم يحظ أى شقيق من أشقائه ٠٠ فاذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب عن تلاوة أوراده ، حتى فاطمة ــ بنت عمه ــ يتيمة الأب والأم تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها ، ساهرة معه كأن الدرس درسها ٠٠ وهى تتطلع اليه بين حين وآخر ، بعينيها المحمرتى الأجفان ٠٠ وكلما كبر فى نظرها ، انكمشت أمامه وتضاءلت ٠٠ ان كل حياتها وقف على توفير راحته ٠٠ واستطاع اسماعيل أن يحصل على الابتدائية بتفوق ، لكنه لم ينجح فى شهادة البكالوريا بدرجات تؤهله للالتحاق بمدرسة الطب التى كان يرغب فيها ، مما جعله يتجه الى السفر الى أوربا لدراسة الطب على نفقة أبيه ، الذى أخذ يدبر الانفاق على تعليمه بشق الأنفس ٠٠ وذهب اسماعيل الى أوربا التى أهلته الكى يتخرج طبيبا متخصصا فى طب العيون ٠٠ وهناك تعرف على زميلته فى الدراسة (مارى) التى أخرجت حياته من الوخم والخمول ، الى النشاط والوثوق ٠٠ لقد فتحت له آفاق يجهلها من الجمال ، والفن والموسيقى ، بل وفى الروح الانسانية أيضا ٠٠ علمته كيف يستقل بنفسه ، وكيف يحميها من الخرافة والأوهام والعادات المستهجنة ٠ وعاد اسماعيل الى مصر ، بعد أن قضى فى الخارج سبع سنوات ٠٠ رأى فاطمة بعد عودته : فتاة فى شرخ الصبا ، مظهرها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف ، رآها معصوبة العينين ، فهى ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه ، فلم تبرأ مما أصابها من رمد فى عينيها ، بل ساء حالها يوما بعد يوم ٠ رأى اسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة تسكب منها فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم ٠٠ وما أ نسأل أمه عن هذا السائل وأخبرته انه زيت قنديل أم هاشم ، حتى قفز من مكانه كالملسوع صارخا فى وجهها ٠٠ فقد ذعر من مشاهدته هذا المنظر فى أول ليلة من عودته كطبيب عيون ، وذهل من طريقة مداولة الرمد فى بلده ٠٠ الأمر الذى جعله يلقى فى غضب زجاجة الزيت الى الشارع٠ حاول أن يعالج عينى فاطمة علاجا طبيا ٠٠ الكن النتيجة هى تفاقم حالة فاطمة ٠٠ ان هناك حالة نفسية تنتابها ٠٠ فهى لا تؤمن بالطبيب ٠٠ وكم راعها أن يدوس الطبيب بأقدامه الغليظة انسانيتها وكرامتها كمريضة ٠٠ ويتشكك اسماعيل فى نفسه وفيما حصله من العلم فى أوربا ، هل عاد خائبا من أوربا ؟ وسرعان ما يجيئه الجواب : (لقد حاولت أن تنفصل وأنت لا تملك الا الاتصال ، المصريون شعب يربطه رباط واحد ، هو نوع من الايمان ، شعب حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحاكمين ٠٠

ويهل رمضان فيتصالح اسماعيل مع روحه وبالتالى يتصالح مع الايمان، فهو يدخل مقام « السيدة زينب » مطاطا ، ويتقبل زيت القنديل هدية من الشيخ « درديرى » ثم يخرج الى الميدان والرغبة تدفعه الى أن يحتضن الناس جميعا قال فى نفسه : (تعالوا الى جميعا ، فانى قد قبلتكم بكل قذارتكم وجهلكم وما تنزلون اليه من ذرك أسفل ، فأنتم منى وأنا منكم) ثم عاد الى الدار ،وراح يعكف على علاج فاطمة وشفاها ثم تزوجها وأنسلها خمسة من البنين ، وستا من البنات ٠٠ وصار طبيب عيون مشهورا ٠ فهو يداوى الفقراء بعلم أوربا ووسائل خاصة من صنعه ٠

تلك هى « الحكاية » التى سردها علينا يحيى حقى فى قنديل أم هاشم . وهى تحوى مدى المعاناه ، والعذاب الروحى الذى تعرض له جيل من المثقفين المصريين ، نال قسطا من الثقافة الأوربية ، ثم عاد ، وفجع بحالة التأخر والجهل التى تستغرق شعبه ٠

ومن المهم أن نقرر ، أن قنديل أم هاشم انما هى تركيب رمزى قد ٠٠ فواضح ان اسماعيل رمز يفصح عن روح مصر الناهضة المتوثبة٠٠ و « المؤلف » يرمز بشخصية فاطمة الى مصر التقليدية التى تقدم على أساس صلب من تاريخ وتراث كبيرين ، أما شخصية (مارى) فهى أوربا الحديثة التى تزهو بوعيها وعلمها ، ومقام (الست) هو مضمون الايمان، أما شكله فيتجسد فى القنديل ٠٠ وخلاصة هذه الحكاية يمكن أن تتضح فى الجملة الآتية (ان مصر ترفض الروح الجديدة اذا أريد بها أن تفرض عليها فرضا ميكانيكيا من الخارج وهى تقبلها اذا جاءت طواعية ، تحترم كل ما يتصل بمصر من تاريخ ، وتراث ٠

ان كل عمل أدبى أنتجه يحيى حقى انما هو بعض من شخصيته ، وصورة حية من كمية ما لديه من خبرات وذكريات ، وبالتالى ، فهو قبس من روحه ، ونفخة من وجدانه ، فلا غرابه ، اذا نظر الى هذه الأعمال نظرة (الأب) الى (أبنائه) ٠ لكن يحيى حقى ينحاز الى أحد أبنائه ، ويتعاطف معه وهو الذى يمثل روايته : (صح النوم) ، التى يمنحها حبه ، واعزازه على وجه الخصوص ٠٠ يقول فى هذا المعنى : (رواية « صح النوم » أحب أعمالى القصصية الى نفسى ، لأنها تطبيق صارم للمبدأ الذى أنادى به فى ضرورة التزام الدقة والعمق فى أسلوب الكتابة ، فليس فيها لفظ واحد لم يكن موضع حسن ، ووزن ، وفيها صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد ٠٠ والمسألة ليست صنعة بقدر ما هى ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لا تتكرر) ٠

ان رواية (صح النوم) ليست الا نخبة من اللوحات الفنية ،

رسمتها يد فنان حاذق ، قادر على احالة الكلمات الى نسق من الأنغام ٠٠ فالكلمة نغمة لونية تنسجم مع بقية النغمات ٠٠ وهي أيضا « لبنة » في بناء جميل ، اذا سقطت ، ظهر البناء مثقوبا ، شائها ،ولعل هذه (الرواية) أصدق تعبير عن دعوته الى (حتمية اللفظ) بمعنى أن (اللفظ) ينبغي أن يندرج في مكانه الصحيح من حيث الدلالة والاحساس ٠٠ لا ينبغي أن يكون فائضا عن الحاجة أى (عمالة زائدة) ٠٠ ومن ثم ، فهذه اللوحات الفنية تترابط فيما بينها بخيوط من العلاقات الدرامية ، وهي تتوحد في نسيج متماسك داخل (وحدة مكانية) تتجسد في (ألحان) التي يرتادها أهالى القرية ٠٠ حيث يجمعهم السهر ، والسمر ، فيتجاذبون أطراف الحديث ، ويفرغون كل ما في جعبتهم من أشجان وأحزان وتعاسة ٠٠ وكان كل كرسي في (الحان) بمثابة كرسي اعتراف ٠٠ فينفس كل منهم عن مأساته التي لا يجد منها مخلصا ٠٠ فهذا (القصاب) الثرى ، طيب القلب يرعى احدى قريباته التي فقدت عائلها التاجر المفلس فيفتح لها بيته — عن طيب خاطر — هي وابنتها الفتاة الجميلة السمراء التي يقع في حبها ، لكن قلب الفتاة لم يخفق له ٠٠ لقد مالت الى (مهرج السيرك) الذي يلعب أدواره في القرية ٠٠ لقد هربت معه ، وتم زواجهما في قرية مجاورة ٠٠ وبعد سنوات عادت الى القرية ، بعد أن مات المهرج ، الذي أنسلها ولدين ، وماتت أمها ، فلم تجد مفرا من الذهاب الى ابن عمها القصاب ، فغفر لها ، ورضيت أن تتزوجه أخيرا ٠٠ لكن هذا الزواج لم يدم طويلا ٠٠ فقد طار قلبها الى ذلك الشاب النحيل البائس (عامل الطحين) الذي كانت تلقاه عند الفجر ليطحن لها الغلة ، فيتبادلان الحب ثم عزما على الهرب معا ٠٠ وللمرة الثانية ، يطعن (القصاب) في مشاعره ٠٠ لكنه يلوذ بالصمت ، رغم ان فضيحته كانت على لسان كل فرد في القرية ٠٠ فقد التمس لنفسه العزاء في الصلاة والصوم والعبادة ٠٠ أما (صاحب الحان) فهو يعيش راضيا فخورا بعلمه ٠٠ فهو يضم عنده أهل القرية كأسرة واحدة ٠٠ ان مهنته تجعله يرى الناس على حقيقتهم : عراة كما ولدتهم أمهاتهم ٠٠ انهم يتنفسون أمامه وهو يعمل على الترويح عنهم ٠٠ فلا يمارسون معه كذبا ، ولا نفاقا ، ولا رياء ، ولا خداعا ٠٠ تلك الآفاق التي تمسخ البشر ، والتي يضطرون اليها في حياتهم العامة ٠

وهناك شخصية الشاب القصير القزم العاطل ، الذي يبتز أموال زوجته الثرية الاقطاعية ٠٠ وهو يبدد أموالها في السكر والعربدة وقضاء الليالى مع بنات الهوى ٠٠ ولم تجد (الزوجة حيلة الا أن تنفق أموالها على الفقراء والمرضى من أهالى القرية ٠ لهذا ، راح يشكو منها لرواد الحان، وكيف انها مخبولة تبعثر نقودها على الغرباء ٠٠ كذلك تضم الرواية

شخصية المرأة العرجاء التى تظل تبحث عن زوجها فى (الحان) وعندما لا نعثر عليه ، يشتد تأزمها ، فتصب جام غضبها فى الزوار الجالسين ·· تصيح فيهم محتجة : (ما معنى هجركم لنسائكم ·· يعيش الرجال فى ناحية ، والنساء معا فى ناحية ·· ما أبشعها عيشة ، حتى الحيوان لا يفعل هذا ·· ان العرجاء من بنات العاصمة ، نشأت فى أسرة فقيرة ، وعاشت فى كنف أحد الأغنياء الذى عطف عليها وتبناها لعاهتها ·· فأدخلها المدارس الراقية ·· وتعلمت لغة أجنبية ودربت على شغل الابرة ، والحياكة ·· وما أن مات الرجل الثرى حتى طردها ورثته ·· وعادت الى أهلها فزادتهم فقرا ·· أما زوجها الشاب ، فهو من أهالى الريف ·· تزوجته من أثر الصدمة التى حدثت لها بفراق بيت الأغنياء ·· انه طالب يلتحق باحدى مدارس الصنائع ، ويجاورها فى سكنه بالقاهرة · وذات يوم ، قبض عليه فى المظاهرات التى يكثر نشوبها فى العاصمة ، فكان لا يعرف الانتظام فى دراسته المضطربة وتعثر فى تعليمه ، فراح والده يكتب اليه : (يابنى اذا كنت لا تنفع فى المدارس ، فعد الى بلدك نفتح لك دكانا ، فأنت على قولك ، تعلمت أصول النجارة والبرادة والسباكة) ·· لقد تأثر بموت زميل له فى احدى المظاهرات ·· كان يحس بأنه السبب فى موته ·· ذلك لانه حرضه على الخروج من مخبئه ·· فأطاعه وخرجا يعدوان معا فى جرف المظاهرات ، وكان من سوء حظهما أن قبض عليهما الجنود ، الذين أخذوا يضربون زميله حتى لفظ أنفاسه ، وافقت (العرجاء) على مصاحبته الى قريته ·· فتح دكان للنجارة· لكنه لم يفلح ، عمل بالسباكة فلم يوفق أيضا ·· انه يهيم على وجهه فى المزارع والحقول ·· ويقف أمام الترعة بالخص ليصطاد فهو مشتت الذهن ·· لا يعرف ماذا عساه أن يعمل ·· عمل بالبرادة لكن الحظ خانه ·· ان مأساته تتركز فى شعوره بالذنب ، فقد كان السبب فى قتل زميله الطالب ·· فلو كان قد تركه مختبئا فى مكمنه ، لنجا بحياته · وتضطر الزوجة ـ ازاء ظروفها التعسة أن تحيك ثياب الموسرات من أهالى القرية · مقابل أجر زهيد لتصرف منه على بيتها وزوجها ·· أما شخصية الشاب الثرى الفنان الذى يهوى الموسيقى ويهوى العزف على الكمان لزوار (الحان) ، بدافع من حبه لمجلسهم ، وحبه لجو (الحان) فقد احتار والده فى أمره ·· انه يريد أن يرعى تجارته فى دكانه ، فهو من أغنى تجار الحبوب فى القرية ، لكن هذا الشاب الرهيف يرفض أن يمتهن هذه المهنة ، ويأبى الا أن يكون موسيقيا مشهورا ·· انه يرفض أن يبتز الفلاحين ·· ويضيق بمسائل الجمع والطرح ، والزائد ، والناقص ·· وأخيرا ، تأتى شخصية (الأستاذ) الى القرية ، فيستبشر بمجيئه الأهالى جميعا ·· جاء وكأنه مقدم على عمل جاد خطير ، فيجمع كل الأعيان

والعمدة ، وكبار الفلاحين الاقطاعيين ويحدثهم عن رغبته فى الاصلاح،والقضاء على الفقر والبطالة والمرض فى القرية ٠٠ فأمر باغلاق الحان مما جعل صاحبه يعمل تربيا فيما بعد . وسعى الى مرور شريط السكة الحديدية بالقرية ٠٠ لقد دبت الحياة فى أوصال القرية ، وزحف العمار اليها ، وسعى الناس فيها الى أرزاقهم فقد آن لهم أن يستيقظوا بعد نومهم العميق٠ كل ذلك بفضل أحد أبنائها الذى كان غائبا عنها ٠٠ لقد قال لهم فى لقائه بهم : (أنا ابن هذه القرية واحد من عشيرتكم ٠٠ ليس بينكم رجل الا وتربطنى به القرابة ، أو النسب ، أو الصداقة ٠٠ ان الضرر الذى يصيبكم يلحقنى ، والخير الذى يعمكم يشملنى ٠٠) ٠

وبعد ، عرضنا لرواية (صح النوم) وتناولناها بالدرس والتحليل ، لنسجلى ما تحمله فى جوفها من صور وأحاسيس ودلالات ٠٠ ومن الملحوظ ، أن (الحان) تمثل هنا « وحدة المكان » ، وأيضا « الوحدة الشعورية » لرجال القرية ٠٠ فكل منهم يسعى اليها ليفرج عن مكبوتاته ٠٠ ان نفوسهم تنفرج جميعا . فتنثال مآسيهم فى سرد وأحاديث ٠٠ شخصية الفنان الذى يهوى الموسيقى والغناء فلا يجد أحدا يسمعه اللهم الا رواد الحان وشخصية القزم الذى يشكو من زوجته الثرية ، أما شخصية القصاب فقد ظلت أشبه بالذرة المغلقة ٠٠ لا تنفتح حتى ولو بالخمر ٠

قصة نفس
للدكتور زكى نجيب محمود

(قصـــة نفس) لمؤلفه الدكتـــور زكى نجيب محمود ، كتاب يتميز موضـــوعه بطابع خاص يجعله منفردا عن بقيـــة كتبه السابقة فهو هنا يحدثنا عن الفلسفة كما هو مألوف عنه ، ولا يحدثنا عن نظرته النقدية فى الأدب أو الفن ، حديثه هنا حديث يتصل بالنفس وطبيعة هذه النفس وما تنطوى عليه من أسرار ٠

كانت حياة الدكتور زكى نجيب محمود سلسلة من المعاناة والجهاد والمثابرة لكن « لم يفت هذا كله فى عضده وانما كان بمثابة القوة التى تدفعه الى الامام دائما ٠٠ ولم يكن النجاح ـ فى بدء حياته ـ سهل المنال ومن ثم ، كان اذا حاز شيئا من هذا النجاح يظل ذهنه يقظا فلا تغمره موجة من هـــذا النجاح وانما نجده يحاول أن يسترجع صـــور الفشل السابقة التى أعجزته عن الحصول على مثل هذا النجاح ٠٠ هذه النظارة المزدوجة للأشياء جعلته لا يبصر شيئا الا من خـــلال شكليه (المختلفين المتناقضين) ٠٠ فوضح النهار يذكره بموج الليل الاسود ٠٠ والفرح الذى يملأ جوانحه لا يحول دون أنتطفر من عينيه دمعتان حزينتان ٠ واذا كانت هناك نشوة ما تهزه طربا فما أكثر كئوس الألم التى تجرع مرارتها ٠٠ وقد نستطيع أن نرى ابتسامة مشرقة تعلو وجهه لكن طبيعة هذا الوجه المكدود لا تعرف الا الجهامة فى أغلب الأحيان ٠٠ وقد ينبض قلبه بشدة فينهمر سيلا جارفا من الأحاسيس والانفعالات لكن ذهنه المتقد يتوثب فيلجمه بالمنطق الصارم ويكبح تلقائية الفنان فى أعماقه ويأسره ويحصره فى اطار مغلق محكم لا يجد منه مخلصا وهكذا تتمزق وتتوزع بين قوى الدوافع والرغبات المتنافرة ٠

وقد انعكست طبيعة هذا التكوين النفسى أى الذى يتميز به أستاذنا

على ادراكه للأشياء فهو لا يكون فيلسوفا الا اذا تعقل مجرى الأشياء الذى ينهمر تحت حواسه فيدركه ادراكا حسيا (وضيعا) بحيث يستحيل هذا الادراك فى ذهنه الى نسق من الكلمات ٠٠ كل كلمة ما هى الا اشارة تشير الى شىء محسوس ٠٠ أما الكلمة التى تفقد الاشارة الى شىء بعينه فيجب أن ينحيها جانبا لأنها كلمة فارغة ليست جديرة بالتعامل أو اتخاذها لبنة تشارك فى بناء التفاهم العلمى بين الناس ٠

وهو من ناحية أخرى لا يكون أديبا فنانا الا اذا تحسس الأشياء بوجدانه وذاق طعمها بقلبه ٠٠ وهنا تنبض الأشياء وتلمع بألوان الشعور ٠٠ هنا يجوز التناقض الذى يفجر الأحاسيس المصطرعة التى تشف عن طبيعة الحياة الداخلية للانسان ٠

شخصية المؤلف :

بين هاتين النظرتين المتناقضتين تقف شخصية المؤلف حائرة ٠٠ تبذل جهدها الجهيد من أجل ترضية كل نظرة على حدة ٠٠ فهى حينا تشبع نظرة الفيلسوف عن طريق نتاجها الوفير فى الفلسفة ، وهى حينا آخر ، تحن الى نظرة الفنان فتستلهم ابداعا أصيلا لكنها تعجز بالرغم من كل هذا فى تحقيق التوازن والتعادل بين هاتين النظرتين المتنافرتين ٠٠ ومن هنا ينفجر صراعها الذى يمزقها تمزيقا ٠ وبالتالى يكون هذا الصراع مدعاة الى الاخصاب والانتاج فى عالمى الفلسفة والأدب ٠

وكانت الركائز التى يقوم عليها هذا البناء تتمثل فى لحظات بارزات يذكرها دائما فهى لا تنطفىء على مر الأيام ٠

يذكر يوم ضربه والده بكتاب ضخم على رأسه عقابا لعجزه عن الاجابة الصحيحة فى علم الحساب وقد دفع الغضب والده فرفعه بين يديه الى أعلى ثم ألقى به الى الأرض صارخا فى وجهه (لا يعيش ابنى خائبا) وقد أوغرت تلك الحادثة صدر ذلك الصبى وقد زاد تأزمه حين رأى أحد الضيوف يقهقه قائلا : « لقد ضربته بالدنيا على رأسه » ٠

منذ ذلك ، والطفل ينمو دون أن يتخلى عن هذا المعنى المحفور فى أعماقه وهو أنه طفل خائب لا يحقق عليه أمل ٠٠ وكان من أثر ذلك حدوث رد فعل خطير يتمثل فى تلك الطبيعة النفسية التى تنتمى اليها شخصية الدكتور زكى نجيب محمود فقد استطاع أن يستولد من الاحساس بالفشل القوة التى تدفعه دائما الى النجاح وقد كانت كل لبنة يضعها فى بناء نجاحه بمثابة نوع من التحدى لمعنى الفشل الذى يثور فى أعماقه وكأنه يريد أن يقول لوالديه : (انظرا ٠٠ ها أنا أسير على

الدرب حتى أصل الى أقصى الغايات التى الم تتخيلاها لى من قبل لقد كان يريد أن ينجح لانه أراد أن يقنع الآخرين بانه غير فاشل ٠٠ ومن ثم ظل دائما مشغولا بالرغبة ، فى الوصول من ناحية ، وبشعور قوى يصرخ فى أعماقه بانه لن يصل من ناحية أخرى ، ولأنه يستطيع أن يدرك أعماقه جيدا ، وبمعنى آخر لانه يستطيع أن يلمس ما يدور من أحداث وما كان يجرى فى زمن طفولته نراه يهتدى الى سر هذا الشعور الذى يمزقه تمزيقا ٠٠ ففى ليلة مظلمة ، كان يعبر جسرا فى صحبة والده وكانت الأرض التى يسير عليها غير معبدة فهى مليئة بالطوب والحصى وكان والده ممسكا به بيده اليمنى وقد حمل فى يده اليسرى حصانا من الحلوى كان قد اشتراه له بمناسبة مولد النبى وحين ترامى الى مسمعه صوت والده وهو يقول له انه يريده أن يكون رجلا عظيما تعثر فى سيره وسقط فجأة على الأرض وسقط معه الحصان متهشما ٠

ومنذ ذلك الحين ، ظل يربط بين الاحساس بالرجاء والرغبة فى تحقيق ما كان يرجوه اله والده من ناحية ، والاحساس بعبث القدر وسخريته من تحقيق هذا الرجاء من ناحية أخرى ٠٠ من خلال هاتين النزعتين المتناقضتين يتولد الصراع الذى يثير فى نفسه القلق والخوف والتوجس ٠

ومع ان الدكتور زكى نجيب محمود قد شكل نفسه الى ثلاث شخصيات ٠٠ كل شخصية تمثل جانبا من جوانب هذه النفس المعذبة الا انه ظل مشغولا فى أغلب صفحات كتابه بشخصية واحدة كانت موضع اهتمامه دائما ٠ انها شخصية الأحدب وهى التى تمثل الحد الاكبر من الطبيعة التى تخص الأستاذ المؤلف ٠ فالأحدب هنا واسمه (رياض) انما يمثل الجانب الانفعالى والحسى وهو الذى يقول عنه النشاط الأدبى والفنى عن الشخصية الرئيسية ٠٠ أما (حسام) فهو يمثل الجانب الاخلاقى والتقاليد فهو بماثبه (الحد الاوسط)الذى يربط بين الشخصيات الثلاث ٠٠ فاذا اطلعنا على كتاب فى النقد الاجتماعى والاخلاقى فعلينا أن ندرك أن الاستاذ المؤلف قد استوحاه من شخصيه (حسام) التى تعيش فى أعماقه ٠٠ وأخيرا نجد (مصطفى) ينضاف بشخصيته الفلسفيه والمنطقيه الى هاتين الشخصيتين ٠

واهم ما يميز شخصيه (الأحدب) أنما هو طابع التشاؤم الذى يلازمه كما يلازم الظل صاحبه فهو ينظر الى الحياة على أنها صفقة خاسرة ، مهما أختلفت المقدمات ومهما تعددت الأسباب فاعتقاده لا يتزعزع بأن الحياة انما هى عملية معقدة من جمع وطرح وضرب وقسمة وأن الناتج

النهائى لابد وأن يكون صفرا • فما الحياة الا عبء ثقيل ثقيل على من يصيبه الخذلان •

فلم يلق الا الصدود وقد حاول الزواج من سميره التى كشفت له عن العالم المسحور ـ عالم الجنس ـ حين كان طفلا •• وقد رأى الفرصة سانحة بعد وفاة زوجها مختار لكن راحت تصده بعد أن أنجبت" مصطفى وصارت جدة •• وهكذا كانت الحياة عبئا ثقيلا على من أصابه فى الدنيا خذلان •• القد انزوى الأحدب بعيدا •• انزوى عن حسام وانزوى عن سميرة وعفاف • لقد علم • ان سميرة أنجبت مصطفى وان مصطفى يشبهه ، من وجوه عديدة وانه مسافر الى انجلترا لتحصيل العلم ويلتقى الأحدب بمصطفى ويتفقان على أن يتراسلا طول غيابه •• وراحت رسائله تترى على الأحدب كانت هذه الرسائل بمثابة تعريف اتجاه مصطفى الفلسفى هذا الاتجاه الذى يأخذ به الأستاذ المؤلف •• وكذا كان مصطفى يمثل جانب التعقل والمنطق فى شخصية الدكتور زكى نجيب محمود •

فاذا كانت شخصية الأحدب تمثل الحد الأكبر من صيغة النفس التى ينتمى اليها الأستاذ المؤلف صاحب كتاب « قصة نفس » فان شخصية حسام الأخلاقى انما تمثل الحد الأوسط الذى يربط بين (رياض)، الأحدب الفنان وبين مصطفى الفيلسوف المنطقى •• على أن الشخوص الثلاثة حين تتداخل وتندمج فى وحدة واحدة يمكن أن نطلق عليها الشخصية التى تمثل أبعادا •

وبعد ، فقد أراد المؤلف أن يصوغ نفسه صياغة جديدة وهو فى هذه الصياغة يستعين بالرمز فيشكل نفسه ثلاث تشكيلات رمزية أطلق عليها أسماء ثلاث شخصيات هم رياض الفنان وحسام الأخلاقى ومصطفى الفيلسوف •

وتبدو الصياغة طريفة هنا انها تقوم على أساس البناء والتشكيل وهى طريقة جديدة فى كتابة التراجم الذاتية ومن ثم ، يمكن القول بان استخدام الرمز للتعبير عن مكنون الذات انما يعد طريقة فذة فريدة فى أدبنا العربى •

ومن ثم ، فهو يحمل عبء حياته قتبا بارزا على ظهره •• لكن هذا القتب الثقيل لا يثنيه عن جهاد الحياة فلا غرابة أن يجاهد من أجل حياة لا يدرك لهـا معنى ولا يذوق لها طعما •• فهـو يرغب فى هذه الحيـاة ولا يعجب من راغب فى ازدياد •

طفولة الأحـدب :

والأحـدب نراه دائمـا جاهما مشغولا بما يعتمل فى صـدره من أهداف يريد أن يصل اليها ومن ثم ، فهو يجاهد دائما من أجل الوصول ٠٠ لكنه يشعر دائما بعبث هذا الشعور الذى يدفعه دائما الى الأمام ٠

والأحـدب يغلب عليه الانطواء ٠٠ فهـو اذا سكن فى دار لابد أن يسكن وحده ٠٠ واذا سار فى الطريق خشى أن تلتقى بعينه عينان وهو لا يسير تحت المصباح اذا وجد الظلام ٠٠ وهو لا يندمج مع الناس فى عجينة واحدة ٠ ولا ينطمس مع غيره فى سديم ٠٠ انه قطعة بشرية منثورة تدور فى فلك وحدها ٠ وحين كان الأحدب طفلا يذكر ذلك الموقف العصيب الذى أدرك فيه حقيقة رهيبة لم تكن تخطر على باله من قبل ٠ لقد أدرك أن لكل شىء نهاية وانه ما كان يظن ان المسافة بين الحياة والموت قريبة جدا ففى يوم لم يبق فى البيت الا اما وهو وكان لابد للأم أن تنظر فى شئون البيت فأجلسته متربعا على السرير ووضعت شقيقه الطفل على ركبته وغابت عنه ساعة أو أكثر وكان الطفل يعبث بحشرجة فى صدره وهو يحتضر ثم ما هو الا أن مال برأسه وسكت الحشرجة ولم يعد الصدر يعلو ويهبط كما كان يفعل لقد مات راقد على ركبته فصرخ ضارعا وقد كان ذلك أول موت شهده على قربة ٠

وقد اكتشف الأحدب منذ الصغر انه يميل الى التطورات النظرية وبقدر ما جهـد يتمتع به من قدرة على التجريد والجدل النظرى بقدر عجزه واخفاقه فى ادراك منطق الحياة الجارية الذى يأخذ به سواد الناس ٠٠ فهو ثقيل فى خطوه ٠٠ فقد بداخله شعور الارتباك حين يلاحظ حركة يديه فلا يقوى على علاج شىء بهما ان الأحدب ينظر الى الحياة نظرة يائسة ذلك لانها ليست أكثر من ثلاث لحظات : الحظة الميـلاد ولحظة الزواج ويعنون به النسل الذى يحفظ البقاء ثم لحظة الموت أما عن لحظة الميلاد فهو لا يعيها لانها لحظة لا يمكن ادراكها الا بالخبرة ثم تجىء لحظة الزواج والنسل التى الم يعرفها لانه لم يعشها اذن فماذا بقى له من حياته ؟؟ ان اللحظة الثالثة هى لحظة الموت ٠٠ لن يكون له علم بها لأنها تجىء بذهابه فلا لقاء بينه وبينها ٠ وقد اشتغل الأحدب بالتدريس فأثار بقرابته انتباه الناس جميعا وما يزال بعضهم يذكره حتى اليوم حين كان يلقى دروسه على التلاميذ وهى دروس لا ينطق فيها الا كلمات اللغة الانجليزية وحملها بلسان غير عربى يحاول به أن يقلد أصحاب اللغة التى يعلمها فزاد هذا من غرابته ٠٠ لكن سرعان ما استقال من التدريس ليكتب فى المجلات الأدبية وقد كان وراء اعتزاله التدريس موقف اثارة بالغة ٠ فقد أحس يوما بميل نحو فتاة تدعى عفاف فأراد أن يخطبها وكم كانت دهشته حين

رفضته العائلة ·· وكان السبب انما هو مهنة التدريس التى كان ينتمى اليها ، رغم ان عفاف كانت تحمل له حبا مؤكدا · لقد كان لمثل هذا الموقف رد فعل فى تشكيل الناحية النفسية والمزاجية الدى الأستاذ المؤلف ·· وقد يبرز هذا الجانب المتشائم الملتوى الماثل فى شخصية الأحدب فينادى بأن الناس يخلطون بين فكرتين ·· فكأنهم يحسبون ان لا حب حيث يكون احتمال الزواج ·· وحين يسأل الأحدب عما اذا كان حبه قد برز اليوم بالنسبة لما كان عليه بالأمس يجيب بأنه قد تغير نوعه ، كان هيجانا على السطح فأصبح تغلغلا فى الأعماق ·· كان كالشلال يقفز ماؤه فوق الصخور قفزا أرعن لا يبالى أى أحجار يفتت وأيها يزحزح فأصبح كماء المحيط العميق ·· عندما يتبدى للعين ساكن الموج وفى جوفه تيارات جوارف ·· فلا اندفاع ولا جراه مغامرة ولكن تآكل فى الجوع وانهيار فى الروح · وقد حاول الأحدب أن ينـدمج فى طائفة من المشتغلة بالأدب والمفكرين بعد أن رفضته أسرة عفاف لينعم بشعور الانتماء الروحى على نحو ما ينعم الاتباع فى الطرق الصوفية ·

العصافير (١)

تأليف : ياسين رفاعة

الحقيقة التى يعلنها عصرنا هى أن كل تطور ، لابد أن يعقبه تطور فى الأساليب الفنية ، والأدبية ، وذلك ما حدث بالنسبة للأديب العربى المعاصر فقد اتسعت خبراته ، وتشعبت تجاربه ، فلم يعد يكفيه قالب القصيدة لكى يعبر عن كمية ما لديه من معطيات شعورية ، وانما رأيناه ينسج رؤيته المركبة فى ضوء أشكال فنية جديدة منها : القصة القصيرة، والرواية ، والمسرحية ، فلا غرابة ، أن نجد الآن حصيلة وفيرة من هذا الانتاج عند أدبائنا العرب ٠

ولعـل الأديب السورى (ياسين رفاعة) بمجموعته القصصية : (العصـافير) ، أصـدق دليل على ذلك ٠ فهو يقدم الينا فى ثنايا هذا الكتاب ، أغلب الأسـاليب الفنية الشائعة فى دنيا الأدب ٠ ولسـوف نلمس ـ فى ضوء هذه الدراسة ـ كيف يجيد « أديبنا » كتابة القصة السيريالية ، والقصة الرومانسية ، والقصة الواقعية ٠٠ وهذا ينم عن ثراء موهبته وخصوبة حياته بحق ٠٠ ومن المؤكد ، أننا لا نستطيع أن الضرورية التى يستلهم منها « أديبنا » ، صوره ، وشخوصه ٠ وطاقاته تفصـل حيـاته المليئة عن أعمـاله الأدبية ، ذلك لأنها تمثل « الخلفية » الدرامية ٠ ومن هنا ، رأيناه يعرض لحيـاته فى صـورة مجردة من أى زخرف ، أو رتوش ٠٠ انه طراز فريد من الكتاب ٠٠ فهو يعيش وحيدا ، مكدودا ، فقد أضناه السـعى وراء لقمة العيش ٠٠ كان اصراره دائما يمنعه من أن يستسلم ، أو تخور قواه ازاء العوائق ٠٠ فرأيناه يقاوم قوى الاحباط ، والتقاعس ، والتشبيط ، حتى استطاع فى النهاية أن ينتصر ،

(١) مجلة الكاتب عدد ١٦٧ عام ١٩٧٥ ٠

ويؤكد شخصيته فى عالم الأدب ٠٠ اضطرته الظروف القاسية الى قطع دراسته والتخلف عن المدرسة ٠٠ لكن ذلك ، كان مدعاة الى اصراره على مواصلة الطريق ، فأخذ يعلم نفسه بنفسه حتى أمكنه أن يقرأ ويستوعب أمهات الكتب فى شتى « فروع » المعرفة ٠ وتنقل (ياسين رفاعة) بين حرف متواضعة عديدة ٠٠ عمل — فى بدء حياته — عند صانع أحذية ثم اشتغل خبازا ، وعاملا فى مصنع نسيج ٠٠

ان ياسين رفاعة هنا ، يذكرنى بالروائى الأمريكى « وليم فوكنر » فهو أيضا كان يعانى كثيرا ، فكان يعمل باحدى محطات البنزين ، واشتغل بالنجارة ، وكان ساعيا للبريد ، ولما ضاق ذرعا بهذه المهنة ، رأيناه يكتب استقالته فى سطر واحد قائلا : « لن أكون — بعد اليوم — رهن اشارة كل شخص يدفع اثنين من البنسات ثمنا لطابع بريد » ٠ كذلك تحضرنى الآن صور من حياة « مكسيم جورجى » ، فقد كان صبيا لطباخ على احدى المراكب ، وكان خادما فى قصر أحد الأثرياء ، وذات ليلة سهر مستغرقا فى قراءته على ضوء (الشمعدان) حتى احترق ٠ مما عرضه لعقاب غليظ من سيده ، فقد أوسعه ضربا بجذع شجرة ، حتى أصاب ساقه بالكسر ٠٠

وجدير أن نذكر ، ان ياسين رفاعة ، انما يعكس تجاربه المؤسية على أغلب شخوصه فى قصصه ٠٠ تلك الشخوص التى فجعت فى آمالها ورغباتها ، فلم يسعها الا أن تنفس عن كظمها وكبتها عن طريق الأحلام ٠٠ وبذالك ، تستعيد توازنها ، وتؤكد انسانيتها ٠ ومن ثم ، فهو يبدأ كتاب «العصافر» بقصة رجل يحلم ٠٠ فنجد البطل» يستلقى ممدودا تحت ظل شجرة ، وما أن يغمض عينيه حتى يرى فى منامه كل ما كان يشتهيه فى يقظته ٠٠ فقد أراد أن يعبر عن فرحته بوليده الرضيع ، فيشترى له حذاء جديدا ويهدى لزوجته حلة تقيها البرد ٠٠ كان يحلم ان تكون له بناية ، أو يضع أشجارا من الزيتون ، تأمنه من الفاقة والعوز ، لكن الحياة لم تمهله رويدا ، فقد دهمته عربة نقل ضخمة ، فسحقته سحقا وهو فى نشوة أحلامه ٠٠ لقد نام (البطل) نوما أبديا ، وتسربت منه الحياة بما فيها من حرمان وأحلام ٠ وفى قصة (المولد) نجد « أديبنا » يستخدم فى كتابته أسلوبا سيرياليا ، فهو يحطم منطق الأشياء ويخلط بين الواقع والوهم ، ويعمل على تشكيل المرئيات فى تركيبات غير مألوفة ، لا تنتظم فى سياق معقول ٠٠ انه يركز هنا على ايهام « المتلقى » بأن « الزوجة » قد أنجبت « وليدا » ، فهى الآن تغمره بحنانها . والوليد يلامس بأنامله شفتيها ، فتخرج له ثديها ، الذى أخذ يتحلبه فى نهم ٠٠ تقول لزوجها : (أنظر انه يشبهك ، كل ملامحك فى وجهه ٠٠ عيناه عينيك ، شعره شعرك جبينه جبينك ، حتى غمازة خده مثل التى فى

خدك) ٠٠ ويواصل « الكاتب » تعقيل هذا الوهم حتى يدخل فى روع (القارىء) بأن « الوهم » « حقيقة » ثم يشد انتباهه بعد ذلك ، الى صورة سيريالية أخرى ـ كان الزوج قد وعد زوجته بأنهما فى الصباح سيذهبان معا الى « جبل الثلج » ٠ « ان الزوج هنا يداعب ابنه ٠٠ يقذفه بكرات الثلج ، صنع له رجلا من الثلج ٠٠ ووضع فى فمه غليونه كان الولد غزالا ، وكان طيرا أبيض ٠ وكان غيمة ٠ وكان شجرة ، وكان مدينة من الألعاب » ٠ وسرعان ما تتبخر تلك الصورة بمجرد أن استيقظا من نومهما ٠٠ راحت المرأة تبحث عن رضيعها فلم تجده ، وأخذ الرجل يبحث عن ابنه الذى يلاعبه ، فلم يعثر على أثر له ٠٠ وتذكرا أنهما كانا يحلمان ٠٠ لكن « الكاتب » لم تكتمل رؤيته بهاتين الصورتين السالفتين وانما أراد أن يجسد حلم الزوج والزوجة فى صورة واقعية محسوسة ثالثة ٠٠ ففى الصباح خرجا معا فى رحلة الى جبل الثلج ٠٠ وهناك رأيا أطفالا من مختلف الأعمار يلعبون فوق الثلج ، ولمحا رجلا يصنع تمثالا من الثلج ، وقد تحوطه أطفاله وزوجته ، ووضع الرجل قبعته على رأس التمثال ، وأخرج غليونه وأدخله فى فمه ٠٠ وعند ذاك ، احس الزوج الذى ينشد ابنا له ، بصقيع قاس يلف عظام جسده ٠

فى ضوء ما سبق ، نستطيع أن نستجلى ثلاث صور ٠٠ صورة حلم الزوجة ، وصورة حلم الزوج وهما يمتازان بطابع سيريالى محض ٠ ثم صورة ثالثة واقعية جاءت لتؤكد دلالة الحلم فى الخارج ولكى تفجر الشحنة الانفعالية التى تحتويها القصة أما قصة : « نجمة الصباح » فهى تصور حالة طفل يصدم بفقدان أبيه ٠٠ ان « الكاتب » يرتقى بمدارك الطفل درجة ، درجة حتى يجعله يستنبط فى النهاية ، فجيعته فى أبيه ٠٠ وكان « أديبنا » هنا على وعى بأن ليس لدى المرء من الشجاعة ما يجعله يقوى على مواجهة الحقيقة وجها الوجه ، متحملا وطأتها المصدمة ٠

ماذا عسى الطفل أن يفعل لو أحس بفقدان أبيه فجأة ؟

ان « حسان » الطفل يجلس الآن فى حجرة « الصالون » مسددا عينيه الصغيرتين الى صورة والده المعلقة على الجدار ٠٠ لقد تزاحمت فى صدره المشاعر التى راح يسقطها على الصورة الخرساء ، فجعلها تنطق وتجرى معه الحوار التالى :

ـ غبت طويلا يا أبى ٠٠ لن تفارقنا بعد اليوم ؟

ـ أبدا ٠٠ لن أفارقكم ٠

ـ هل ستشترى الى دراجة مثل دراجة صديقى خالد ٠

ـ سأشترى لك أجمل دراجة ٠

وهنا نجد « الكاتب » يحطم السياج الصلب الذى يفصل بين الخيال والحقيقة ٠٠ فيجسد لنا صورة حسان وهو يركب دراجة فريدة من نوعها ، فهى تحمله كأنها طائرة ، يمتطيها دون أى عناء ٠٠ وهو يشق بها الريح ٠٠ كان فرحه عظيما ، لكن سرعان ما يتلاشى هذا الفرح ، بمجرد دخول أمه عليه ، فانتبه اليها ، وأخذ يمطرها بأسئلته الغريبة :

ـ ماما متى يعود أبى من السفر ؟ وتجيب الأم ـ عندما تكبر يا حسان ٠ ـ لماذا عندما أكبر ؟

ـ وعدنى أن يعود عندما تصير شابا ، انه مسافر الى مكان بعيد ٠

أخذت (الأم) تحثه على المذاكرة ، فأخرج بعض الأقلام الملونة ، ورسم شكل طائرة تطير فى الليل ٠٠ وطلبت منه أن يرسم لها قطارا ٠٠ لكن (حسان) رفض ذلك ٠٠ انه يكره السفر بالقطار ، فقد تذكر قول أمه بأن أباه حمله القطار الى مكان بعيد ٠٠ انه السبب فى حرمانه من أبيه ٠٠ ولما سألته بماذا يحب السفر ٠٠ أجابها : بالطائرة ٠٠ فهى تذهب وتعود فى نفس اليوم ٠٠ ويستدرج الطفل أمه مرة ثانية ، فيسألها : ألم تعرفى الى أين سافر ؟ فتجيبه قائلة : سافر الى نجمة مضيئة فى السماء ٠٠ وتلوح الدهشة على وجه الطفل ، فيسألها : ـ هل هناك قطارات تسافر الى النجوم ؟ !! ٠

ـ ثمة قطارات ٠ ـ وهل يسافر الناس الى النجوم ؟ ـ يسافرون عندما يملون الدنيا ٠

ـ وكيف أعرف النجمة التى سافر اليها أبى ؟ ـ عندما يجىء منتصف الليل ، سيكون هناك فى السماء نجمة مضيئة أكبر من كل النجوم ، اليها سافر أبوك ٠

ونام « حسان » طويلا ، وقد أصر على رؤية النجمة المضيئة ٠٠ وفى تلك الليلة تسلل وخرج الى الشرفة وراح يبحث بين النجوم عن نجمة مضيئة أكثر من غيرها ، وكم كانت فرحته حين عثر عليها ، وصمم على أنه سيركب الطائرة ويسافر اليها ، ويعود بأبيه الى البيت لكى تفرح أمه ٠٠ كرر رؤيته لتلك النجمة فى كل ليلة ، وخيل اليه أنه يلمح فيها وجه أبيه ، وكيف يلوح له بيديه ٠٠ لكن ذات ليلة ، أبصر نجمته تشتعل فجأة وتهوى ٠٠ وهنا يتم ادراك الطفل لحقيقة مأساته ٠

لقد جزأ « الكاتب الفنان » (حقيقة الموت) الى أجزاء صغيرة ، ثم

صاغها جميعا فى صور شيقة يمكن أن ترقى اليها مدارك الطفل ٠٠ ففى البدء ، كان القطار ، ثم الطائرة ، ثم النجمة المتلألئة فى كبد السماء ، وحين احترقت النجمة وهـوت ٠٠ صرخ الطفل فى تلك اللحظة فقـد اكتمل ادراكه لتلك الحقيقة : وهى أن أباه قد فقده الى الأبد ٠٠ واضح أن هذه القصة ، لا تخلو من الصبغة السيريالية التى يمكن أن نلمسها من طبيعة تشكيلها وتركيبها ٠٠ فصورة الوالد الصماء المعلقة على الجدار، تنطلق مفصحة عن رغبات الطفل ، فتمنحه دراجة غريبة يخترق بها أدراج الرياح ، وتصوير الأم لنجمة الصباح على أنها مسكن والده ، وايهامه بذلك ، وتخيله لملامح أبيه ، وتلويحه بيديه ، كل هذه الصور تعلو على الواقع ، ولا يستقيم ومنطقه المألوف ٠ ويضم الكتاب قصـة سيريالية أخرى بعنوان (زهرة البنفسج) وبطلة هذه القصـة فتاة عانس تبلغ الثلاثين من عمرها دون زواج ٠٠ انها تنسج من أحلام اليقظة عالما مشرقا مضيئا بالجمال والخير والحب ٠ ذلك العالم الذى استمدت تكويناته من صميم تلك الجملة التى نطقت بها أمها ذات يوم : (يا منى أنت فتاة جميلة) فقد أخذت تلون كل الأشياء التى تحيط بها بأثر تلك الجملة التى كان لها مفعول السحر على نفسها ٠٠ الطبيعة ، والزهور ، والطيور ، صـارت تتغنى بجمالها ٠٠ يقـول (الكاتب) : (رفعت رأسـها نحو العصفور بعينين دامعتين ٠٠ زقزق العصفور وقال لها : ــ انت جميلة يا منى ٠٠ جميلة كصفاء نجمة يغسلها الدمع باستمرار ٠٠ ابتسـمت بحرارة ، وهمست : (آه لو يقول لى هـذا الكلام رجل ما ٠٠) ٠٠ وتمضى الأيام وتتأرجح (منى) بين الوهم ، والحقيقـة ٠٠ ان عالمهـا الحقيقى ينكر جمالها ٠٠ أما عالم الأحلام ، فيعطيها كل ما يروى ظمأها وحرمانها ٠٠ فلتفضـل العيش فى دنيا الخيـال ، طالما أحسـت فيها بالسلوان والسكينة والراحة ٠٠ انها تخرج الى الطريق وتنغمس فى جوف المدينة ، ثم تعود وقد استبد بها اليأس ٠٠ لا أحد يغازلها بكلمة حلوة تشعرها بأنوثتها ، وتقنعها بأنها موضع استحسان الرجل ٠ يقول المؤلف: (وأحسست أن المدينة وحش لا يرحم ، وأن أرصفتها جلاد قاس ، لا يلين الا تحت أقدام الحسناوات ، فقبعت فى بيتها) وتظل الفتاة فى حالة ارتداد عن الواقع الجاف الذى يضن عليها بفتى أحلامها ، فتظل تنسحب منه شيئا فشيئا حتى تنتهى برفضه تماما ٠٠ وبذلك تغوص فى أعماق عالم خيـالى محض ٠٠ وذات يوم ، فتحت النافذة ، فتراءى لها فتى أحلامها ٠٠ وهو يمتطى حصانه الأشهب ، ملوحا لها بمنديله ، فتسرع الى المرآة لتتزين ، وترتدى ثياب العرس البيضاء وتهرع اليه ٠٠ وقال لها : ــ أهلا جميلتى ٠٠ كم ستسعدينى ٠ وأمسك بيدها وهو يقول : ــ تعالى يا زوجتى ٠٠ وفى اليوم التالى ، اكتشف الناس جثة الفتاة طافية

على سطح النهر ، وزهرة البنفسج معلقة فى طرف شعرها · وفى ضوء ذلك ، يتبين لنا أن القصة ذات تكوين سيريالى ، فنلاحظ أن « البطلة » هنا تعمل على هدم سياق الأشياء ، فتعامل الواقع معاملة الوهم بحيث لا تفرق بينهما ، ويبرز الكاتب الدلالة المأساوية فى هذه القصة بزهرة البنفسج ·· وهى زهرة حزينة تعبر بها البطلة عن مأتمها ·

واذا كانت القصص التى عرضناها سلفا ، يغلب عليها الطابع السيريالى ، فان (أديبنا) لا يثبت عند حدود هذه الرؤية ، فى عالمه الفنى وانما كان قادرا على تلوين رؤيته وفقا لطبيعة المادة التى يتناولها فلعلنا نلمس فى قصصه التالية كيف يمتاز أيضا بنزعة رومانسية ، ونزعة واقعية · ففى قصة « الحديقة » يحكى لنا (ياسين رفاعة) عن تجربة حب قديمة ، كانت تجمع بين رجل وامرأة تحت سقف مدرستهما ·· لقد وقع فى حبها . فبادلته شعورا بشعور ·· لكنهما افترقا ، ولم يتوج حبهما بالزواج ، وتاه كل منهما عن الآخر فى متاهات الحياة ·· والآن ينقابلان من غير ميعاد ·· فبمحض الصدفة ، يتعرف ابنه الطفل على أبنتها الطفلة . ويحس الطفل أنه مشدود الى الطفلة ، وكانه يعرفها منذ زمن بعيد . وراح يداعبها ويمرح معها ·· عرفت منه أن أباه يعمل مدرسا وعرف منها أن أمها تقوم بالتدريس أيضا ·· وما أن أرادت أمها أن تنصرف . وكذا والده ، حتى يتفق الطفلان على التلاقى مرة ثانية ، فى نفس المكان ·· وفجأة تلمح المرأة ، الرجل ، فيتجمدان فى مكانهما ويتبادلان نظرات صامته ، وكأنهما ينصتان الى صوت الماضى البعيد ، وما ينواتر فيه من صور ، ووقائع وأحاسيس ·· وفجأة تنبها الى ضجر الطفلين فواصل كل منهما السير فى طريقه ·· ولعل أديبنا يفصح بهذه القصة عن أن تجربة الحب ، تجربة عميقة عمق المحيط ، فلها من التأثير ما يجعلها تنفذ فى وجداننا ، وتنخر نخاعنا ، فتظل آثارها غائضة مترسبة فى عالم اللاشعور ·· وقد تطفو هذه التجربة الى السطح ، متجسدة فى هذين الطفلين ، حيث يتجاذبان ، ويلعبان نفس التجربة ، وقد يحصدان منها أكثر من الذكريات ·· لقد أمكن لياسين رفاعة أن يمنحنا فى ضوء هذه القصة ، كل المعطيات الرومانسية · وفى قصة : « حوار مع الورد الأبيض ·· يخرج « الطفل » من بيته حزينا متأسيا بسبب الخلاف الذى نشب بين أمه وأبيه والذى أدى الى صدام وعراك بينهما ، فوالده دائم الغياب عن بيته ، مما جعل الأم تشك فى مسلكه فقد ساورتها الظنون بأنه يقضى وقته عند احدى فتيات الليل ، فجن جنونها ويشكو الطفل الى صديقته « الوردة البيضاء » ما حدث فى بيته ، عليه أن يقطفها ليقدمها هدية لوالدته وبعد الحاج شديد ، يرضخ الطفل ، ويفعل ذلك ، الأمر الذى جعل أمه تبتسم ، وتذهب بدورها لتهدى زوجها

هذه الوردة ، فتقبلها هاشا ، ومن ثم ، ذابت سحابة الصيف وعادا الى صفائهما من جديد ٠٠ ان هذه القصة ينطبق عليها قول «اسحق نيوتن» : (ان الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا) ، ان أبهج ما فى الطبيعة ابتسامتها الناضرة الماثلة فى الزهور ، والورود تلك التى تمنحنا احساسا بالنسق ولانسجام والجمال ٠٠ ذلك الاحساس الذى يذيب كل ما يرنق صفونا من قبح ، ونشاز وكدر ٠٠ فلا غرابة اذا رأينا الصفاء والوئام يعودان الى الزوجة والزوج ، بمجرد احساسها بالجمال ٠

ولعل ذلك ، ما يجعل قصة : حوار مع الورد الأبيض رومانسية قلبا وقالبا ٠ أما قصة الله ٠٠ والسمكة ، فهى تحكى عن مجموعة من الصبية ، خرجت من أكواخها المتلاصقة متجهة الى البحر غير عابئة بتحذيرات الأهالى من الاقتراب من البحر ٠٠ كان الجوع ينهش فيهم نهشا ، الأمر الذى جعلهم يدعون الله بأن يأمر البحر بالقاء سمكة الى الشاطىء يسدون بها رمقهم وكم كانت فرحتهم حين دفع الموج العاتى بسمكة كبيرة ملقيا اياها على رمال الشاطىء ٠٠ وبينما هم يندفعون ليلتفوا حولها مهللين بغنمهم ، اذا بلصين ينقضان على السمكة . ويهددان بذبح كل من يقترب منها ٠٠ وهنا تتحول غنيمتهم التى كانت فى قبضة أيديهم الى سراب ، ومن ثم ، نرى الشىء ونقيضه يحدثان فى لحظة واحدة ٠٠ فلحظة العطاء والمنح تتمدد وتتراخى حتى تصير هى أيضا لحظة الخطف والحرمان فى آن واحد انها لحظة مزدوجة تحمل البشر والتفاؤل الذى ينقلب فجأة الى حسرة ويأس ٠ ولعل الصدام الحاد بين هذين النقيضين ، ما جعل تلك اللحظة تبلغ أقصى درجة من التوتر ٠٠ أن ياسين رفاعة هنا يريد أن يؤكد أن الأقوى انما هو الذى يفرض ارادته ولو بالقهر والارغام ٠٠ فليس المهم أن يكون الشىء فى حوزتك ، وانما المهم أن تكون قادرا على الاستئثار به وانتزاعه من أنياب المعتدين ٠ انها قصة واقعية من ناحية المضمون ، لكنها تنتمى الى شكل رومانسى ٠ أما قصة (أشجار الزيتون) فتدور حول رجل كهل أشرف على أن يفارق حياته وهو الآن يضطجع على سريره محصيا ماقدمت يداه فى دنياه وبداخله شعور الارتياح فقد أعطى للحياة قدر ما أعطت له ، أعطاها ثمرا ، وأبناء ، وأحفادا ٠٠ ونزل عن سريره وخطا خطوات ثقيلة الى شجر الزيتون وأخذ يبارك هذا الغرس ويعانى كل جذوع الشجر ثم رجع الى بيته واستلقى على سريره وقد أغمض عينيه وكأنه يغط فى النوم ٠٠ وكم كانت دهشة أبنائه حين لاحظوا الأرض مبتلة فى الصباح ، وهرعوا الى جدهم ليخبرهم عن سبب ذلك ، نادوا عليه . لكنه لم يجب ٠٠ وكأن السماء كانت تبكى حزنا على فراق الرجل ٠٠ ان مدلول هذه القصة يتمثل فى أن كل شخص رهين مابذله من جهد وماكسب فى الحياة ٠

اما قصة (المارد) فتصور أسرة فقيرة تعانى الفاقة والعوز ، فالأب مبتور القدم لايقوى على العمل والأم مريضة ، تحتضر على فراش الموت .. أما ابنها خالد فيتوقع أبوه أنه سيصبح شحاذا .. ان «خالد» يدفعه ألم الجوع الى الذهاب الى أكوام القمامة المكدسة عند الشاطىء لعله يعثر على كسرة خبز هناك .. وفى أثناء بحثه تصطدم قدمه بجسم صلب .. لقد كان فانوس علاء الدين السحرى .. ان « خالد » يستطيع ان يمتلك كنوز الدنيا بهذا الفانوس لكنه الآن يرتجف ويرتبك ويتلعثم فلا يعرف ماذا يريد .. كل ما طلبه رغيف من الخبز يسد به رمقه .. واحس المارد العملاق بأن « خالد » يسخر منه فانسحب الى الفانوس غاضبا وسرعان ما احترق الفانوس وصار رمادا .. لم يغتنم خالد فرصة الثراء التى جاءته من حيث لا يدرى .. لقد ضاعت منه .. وكان الكاتب يوعز الينا من خلال هذه القصة ، بأن الحياة فرص وحظوظ ، وان مصير الانسان وقدره قد يكون محكوما بتلك الفرص والحظوظ ، فمن يغفل عن اغتنام فرصته فقد يتخلف عن ركب الناجحين الفائزين فى الحياة . وفى قصة « فى المصعد » ، يرمز « الكاتب » بالمصعد الى الحياة التى ينمو فيها الكائن ويرتفع شيئا فشيئا ـ تماما مثل حركة المصعد ، ثم يهبط تدريجيا الى اسفل الدرك ، اما ركاب المصعد فهم رموز لمراحل تطور الانسان وارتقائه مثل هبوطه وذبوله وتلاشيه .. فالحياة جميلة جمال تلك المرأة الناضرة التى ركبت فى المصعد .. والحياة جذابة جاذبية الشاب الانيق الموجود معهم اما الرجل المتعب المكدود المثقل باحمال زوجته السمينة ، وأولاده ، فقد وقف كسيرا متحسرا على شبابه الذى ولى ، مبتسما لتلك المرأة الجميلة التى تذكره بأيامه الحلوة ، حين كانت تضحك له الدنيا وتقبل عليه .

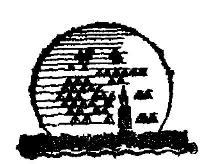
وتأتى قصة لعبة الزمن لتصور فتاة تعانى من القلق والضيق ، فاخوف ما تخاف الا تصل الى حبيبها فى الموعد المحدد ومن ثم ، تحاول ان تسبق الزمن فتركب احد التاكسيات ليصل بها سريعا الى بيت فتى أحلامها لكنه يتعثر فى الطريق لكثرة العربات وتوقفه فى الاشارات ، واخيرا تصل فى نفس الميعاد فقد اكتشفت تأخير ساعتها نصف ساعة .

وتصور رقصة الموت ، رجلا يحتضر على فراش الموت .. انه يحاول جاهدا أن يقاوم الموت ، ليمهله رويدا حتى يقول كلمته الأخيرة ، لكن عبثا يحاول ، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة دون ان يقول كلمته الأخيرة . أما قصة العصافير ، فهى أشبه بالسيمفونية المؤلفة من سبع حركات ، أمكن للكاتب أن يصوغها فى ضوء فكرتين متعارضتين تتأججان فى صدر الانسان فكرة الطبع ، وفكرة التطبع .. أى فكرة الطبيعة والفطرة

والشجية التلقــائية من ناحيــة ، وفكرة التطبيع والاكتساب والتنشئة الاجتماعية من ناحية أخرى ٠٠ هل يهوى الانسان حياة الفطرة والبراءة والحرية ، والانطلاق ؟ أم تراه يميل الى التمدين والتحضر والنظام ؟ يقول روســو : (ان الانســان ابن الطبيعة) أى انه يجد فى رحابهـــا الأمن والسكينة والسعادة ، وعلى العكس من ذلك نراه يشقى ويتألم ويتأسى كلما اقترب من كل ماهو صــناعى ، وزائف ، ومفتعل ٠٠ ان ياســين رفاعة ، يومىء فى هذه القصة الى البراءة والعفة والنقاء برمزين محوريين هما : الطفل والعصفور ٠٠ ان كلا منهما يتمنى أن يحيا حياة الآخر ٠٠ ان الطفل يتمنى أن يطير عصفوره الصديق ، فيحلم فى منــامه أنه قد انطلق وعصفوره الى البحر ، وأن كثرة من العصــافير قد لحقت بهما ، الأمــر الذى جعل الطفل يتوه عن صــديقه العصفور وحين يشعر بأن جناحيه لاتقويان على حمله يسقط فى هوة سحيقة ، فيصرخ مفزوعا ، ويستيقظ فى الصباح فيرى عصفوره ، فينادى لكى يأتى اليه ، فلم يأبه به وعند ذاك يقف الطفل عند طرف النافذة ويحرك يديه فيقفز الى الأرض مهشما ، ذلك ما يمثل الحركة الأولى من السيمفونية ، أما الحركة الثانية فتصور ذكاء الانسان وتحايله على أسر عصفور داخل قفص خشبى لكن حريقا ينشب فى البيت ويأتى على كل شيء ٠٠ لقد أطلقت النار سراح العصفور الحبيس فأمكنه أن ينطلق وكأنه يتحدى الجميع ، فرغم حبسه ، استطاع أن يطير ٠٠ وفى الحركة الثالثة ينجذب العصفور الى بكاء طفل يرقد على السرير وحين يقترب منــه ليغنى له ، يلتهمه قط أســود ، وتصور الحركة الرابعة من السيمفونية ، ذلك الشر الذى يلحقه الانسان بالكائنات الضعيفة ، فبينما تحتفل العصافير بعرس عصفورين ، يدوى طلق نارى فى الغابة ، فتهب العصافير هاربة الى السماء وتأتى الحركة الخامسة لتكشــف عن مخاوف العصفور الصــغير ومن ثم يســأل جده الكهل : لماذا خلقنا الله ؟ فيجيبه لكى نطرب الناس ، ونوقظهم الى العمل، وتذكر العصفور الصغير العلاقة المأساوية بينه وبين الانسان ، ومنذ ذلك الحين كف عن الغناء ٠ وتصور الحركة السادسة ، هذا العصفور الذى سئم حياة الغابة فهاجر الى المدينة ، وما أن لمح رجلا يخرج سكينة ليذبح بها رجلا آخر ، حتى فر هاربا صوب الغابة ، وتصور الحركة السابعة

من هذه السيمفونية ما يعانيه العصفور من عجز وضعف ، حين تهطل الأمطار ولا يقوى على الطيران ، ولا يجد له حتى المأوى ، فنجد عصفورا شاردا يرفرف بأجنحته المبتلة وكأنه يستجدى هذا الرجل داخل غرفته الذى جلس وهو وزوجته أمام المدفأة يستجديه لكى يسكن اليه بشرط ألا يؤذيه ٠

وهكذا ينحقق فى النهاية بعد معايشة هـذه المجموعة القصصية الشاعرية ماقلناه فى البداية من أنها أصدق دليل على ثراء موهبة صاحبها وخصـوبة حياته ومدى طاقاته الدراميـة التى أنضجتها تجـاريب الحياة والتى زودته برؤيا صادقة للأشياء تتميز بلغة شاعرية شفيفة لا تقارن طوال معايشة لعصافير أديبنا السورى ياسين رفاعة ٠



المصيدة

زهير الشايب

حين أتناول بالدرس ، والبحث كتاب (المصيدة) للأديب الشاب (زهير الشايب) ، وألاحظ كيف جعل من (الاتوبيس) «وحدة المكان» لعالمه الدرامى المتصل بقصص هذه المجموعة ، يتداعى فى ذهنى هذا التشبيه الذى طالما راودنى ، وألح على الحاحا شديدا ، فعندى أن زحمة أدباء القصة أشبه بزحمة الاتوبيس المكدس بالركاب ، تكديسا جعلهم فى صورة كتلة بشرية مطموسة الملامح ، عصية على التمييز والتباين بين أفرادها ، حتى أكاد أقول أن أغلب الكتاب الشبان فى هذا الصدد ، سواسية كأسنان المشط ، فأقل من القليل ، هو الذى يتفرد فى انتاجه، وفى خصائصه ، وهو الذى يشرئب بعنقه محاولا أن يبرز ، ويرتفع فوق مستوى السطح ، محطما فى ذلك ، مبدأ : (استواء الأطراف) ، الذى يندرج تحته هذا (الكم) الضخم من كتاب القصة ، الذين يقاسمون بالعدد ، وليس بالكيف ٠

ولعل قد خبرت طبيعة انتاجهم ، من خلال قراءتى ، واستبصارى لهذا الانتاج ، طوال سنوات عديدة ، الأمر الذى يجعلنى ألقى هذا القول الذى يأخذ صفة التعميم ، وليس التخصيص ، متجاوزا فى ذالك ، مجموعة الأمر الذى يجعلنى القى هذا القول الذى يأخذ صفة التعميم ، وليس التخصيص ، متجاوزا فى ذلك ، مجموعة (المصيدة) للكاتب زهير الشايب التى لا تخلو من قيم فنية ، سأعرض لها فى ثنايا هذه الدراسة ٠ ويهمنى أن أذكر أن أغلب قصص هذه المجموعة ، انما تقوم على المفارقة الدرامية ، بمعنى أن ما كان متوقعا لم يتحقق ، ولم يصبح واقعا ، وكان « الكاتب » يريد أن يقنعنا هنا ، بأنه من حسن الحظ أن ننعم بهذا الجناح من الخيال الذى يجعلنا نطير الى آفاق بعيدة ، حيث يكون

فى مقدورنا أن نحلم ، ونتوهم أننا قد تغلبنا على كل صدود الواقع ، وما نصادفه فيه من عوائق واحباط ، فهذا الشاب ، والفتاة يتحدثان فى قصة (على هامش الطريق) عن مستقبلهما الباسم « هو يحدثها عن الدرجة التى سيحصل عليها بعد عام ، وعن المبلغ الذى سيجيئه من مشروع مضمون ، وهى تحدثه عن اقتناء شقة فى تلك العمارات الشاهقة فهذه عندها أمنية العمر ٠٠ أما الزوجة التى تجلس على مقعد آخر مع زوجها ، فهى تذكره بالتعجيل لانهاء عملية بناء الفيللا قبل مجىء ابنها المهندس من ألمانيا ، بينما يقف ذلك الفلاح يحكى مع زميل له عن القطن الذى سيجنيه بعد شهرين ٠٠ ان الد أعدائه تلك الدودة التى ينظر اليها على أنها قادرة على أكل بنى آدم ٠٠ فى حين يجلس طالب الهندسة متحسرا على ضياع عام من عمره بسبب تخلفه فى « مادة المجتمع » ٠٠ ان أبطال القصة ، يتشوفون جميعا للمستقبل ، فيركزون كل حواسهم على ما قد يكسبون من حصاد ٠٠ لكن فجأة ، يتنبهون الى ذلك الحدث المفزع ٠٠ الأتوبيس يحترق ، وتشتعل به النار ٠ ومن ثم ، راح الجميع يصرخ مستغيسا بالنجدة ٠٠ لقد صدمهم الواقع بذلك الخطر ٠ وتأتى قصة : (وذات مساء) لتحكى عن لحظة استجمام يعيشها محمد كامل فى بيته ٠٠ فهو ينعم باغفاءة هادئة وقت الظهيرة ، وينعم بمداعبة طفلته الصغيرة «هالة» ، وبصوت عبد الوهاب فى أغنية الكرنك ٠٠ لقد أخذ يرشف من كوب الشاى وينظر الى زوجته (نعيمة) على أنها أجمل امرأة فى العالم ، وفكر فى «فسحة» على كورنيش النيل ٠٠ وبينما هو فى «الحمام» سمع دقات على الباب ، وما أن اتجه ابنه « أيمن » ليفتحه حتى ذعر لرؤية ذلك العسكرى الذى يطلب والده فى القسم ٠٠ ورغم أن العسكرى يطلب الأستاذ يحيى بدوى الذى ترك الشقة منذ سبعة أشهر ، الا أنه أصر على أن يأخذ رقم بطاقة محمد كامل ، ومحل عمله واسمه بالكامل ، وسرعان ما تنقلب الصورة المنسجمة الى صورة تنضح بالنشاز ، فرغاوى الصابون لا تزال فى عينيه ، ويشتد حنقه لأن زوجته قدمت له ملابس داخلية غير نظيفة ، ويبلغ غضبه حد الانفجار حين يصفع ابنه « أيمن » لأنه حطم عروسة شقيقته « هالة » ، فيسرع الى ارتداء ملابسه ، ويصفق الباب خلفه ٠ وعلى هذا ، يرتكز الاحساس الدرامى فى هذه القصة ، على معنى العبث . فقد يكون الشخص فى حالة انسجام مع عالمه ، وفجأة يظهر ما يقلب حياته رأسا على عقب ، وكأن الشىء ونقيضه ، يترابطان ترابطا عضويا فالنهار يعقبه الليل ، والفرح حتم أن ينتهى بهم وغم ٠٠ وكأن العلاقات الانسانية تقوم على أساس تلك الحقيقة المأساوية ، فلا شىء عند « كاتبنا » يثبت على حال ، وانما هو قابل للتغير والتبدل دائما وأبدا ٠

واضح أن هذا المفهوم الدرامى انما هو بمثابة المدد الذى ينسج

منه (الكاتب) خيوطه الفنية فى أغلب قصصه · كذلك يمكن أن تنسحب هـذه النزعة العبثية على قصـة (الطريق) ، فالبطل هنا يشترى هذا التليفزيون الذى يضطره الى ركوب التاكسى لأول مرة فى حياته ، متوجها الى بيته بالهرم · وما أن يقترب من (الحارة) التى يقطن بها حتى يتوقف السائق ، رافضا السـير فى تلك الأزقة المليئة بالحفر ، والحجارة ، مما يضطر (محمد) الى حمل تليفزيونه بين يديه لتكملة المشوار · فهو الآن فى حال من الارتباك والخوف ، انه لابد أن يتفادى لعب الكرة فى الطريق. وبرك مياه المجارى ، وقشر الموز الـذى يعرضـه للزلل ، ويسـخط ، ويلعن ـ طوال سيره المكدود ـ هؤلاء الجيران الذين يحقدون عليه ، لأنه اسـتطاع أن يشـترى تليفزيونا ، ويتداعى مع مونولوجه الباطنى من هنا ، وهناك ، وما أن يصل الى عتبة بيته ويصعد السلم متوجا بفرح أولاده وزوجته ، حتى يرتطم بالدرج فيسقط التليفزيون من بين يديه ، مهشما ·· فما أشبه سقوطه بسقطة البطل التراجيدى · فبسرعة البرق يتحول الموقف الذى يجيش بالفرح وبالبهجة ، الى حزن ومناحة ، وألم ·

وينتقل (زهير الشايب) نقلة أخرى ليسجل فى قصة : (انتظار) معنى الزمن السيكلوجى ، فقد انتصف الليل والناس وقوف فى محطة (الأتوبيس) ينتظرونه على أحر من الجمر · وتعلو صيحات الاحتجاج والتبرم لطول الانتظار لم يجدوا الا « ناظر المحطة » الذى تحمل سخطهم فى صبر وجلد ، وأعدا اياهم بهذا الأتوبيس المنتظر ·· هذه امرأة حامل تئن من شدة الألم ، وهؤلاء الأطفال يجهشون بالبكاء لزمهرير الشتاء ·· وهذا عجوز يتحامل على نفسه ، ويوصى بالصبر ، وأن فرج الله قريب ·· وبدأت الحركة تخفت فى الميدان شيئا فشيئا ، لكن النـاس ظلوا فى أماكنهم ممتشبثين بالأمل ·· ان الزمن يمر بطيئا ، وئيدا ، متراخيا ·· انه زمن الانتظار الذى تطول فيه الدقيقة وتمتد حتى تصبح فى الشعور ، وكأنها دهر ·· انه زمن التوجس ، والقلق ، والتشبث بالسراب · انه انتظار أشبه بانتظار جودو ، الصامويل بكيت · ويحاول (أديبنا) أن يحشد معنى المعاناة فى قصة الثابت وراء المتغير فاتخذ من « الأتوبيس » رمزا يوعز بتلك الدلالة ·· معاناة (المحصل) فى تحصيله أجرة التذكرة من كل راكب ، ومعاناة الركاب حين تعطل بهم الأتوبيس ، فاضطروا الى النزول ، « ليزقوه » ويدفعوه الى الأمام حتى يتحرك من جديد ·· معلنا السائق الذى هبط الى أسفل (العربة) منهمكا فى اصلاحها ·· ان كل شخص فى هذا الموقف يعانى ويدفع ثمن وجوده بالمعاناة ·· وكأنه مثل « سيزيف » فى الاسطورة اليونانية الذى عصى أمر الآلهة فحكمت عليه بالعذاب بأن يحمل الصخرة الى قمة الجبل ، وما أن يبلغها حتى تنحدر الى أسفل سيزيف فيعاود حملها من جديد ، وهكذا دواليك ·

وتحكى قصة : (الأساس) عن الأرملة الفقيرة (نظيرة) التى تضطر الى بيع أرض زوجها المرحوم ، الى « الحاج حسين » الذى حرر عقد البيع فى منزل الشيخ سالم ، وهو رجل غير موثوق به ٠٠ أن الحاج حسين يشك فى ذمة الشيخ سالم ، فقد حانت له الفرصة للتلاعب والخداع « خصوصا » وأن المشترى قد غفل عن تسجيل العقد فى الشهر العقارى أنه فى نظر القانون لا يملك بيته ٠٠ لقد دفعته وساوسه الى أن يوقف بناء الدور التانى فقد كان ينوى اقامة شقة لابنه (شبل) الذى أوشك على الزواج ٠٠ أخوف ما يخاف أن يكون قد وقع فى مؤامرة دبرتها له (نظيرة) والشيخ سالم المخادع ٠٠ ماذا عساه أن يفعل الآن ؟ لن يطمئن الا اذا صحبها الى الموثق بشبين الكوم ، ويسألها الموثق : انت بعت بيتك للحاج حسين ٠٠ فيكون ردها بالايجاب ٠٠ ويسألها : باعوا معك أولادك ؟ فتجيب بنعم ٠ ـ أين هم ؟ ٠٠ انهم مشتتون هنا ، وهنا ٠٠ ووقف الحاج حسين يتميز غيظا ٠٠ لقد خدعته هذه المرأة ٠٠ فاندفع نحوها يهددها بالذبح ، شاهرا سكينه فى وجهها ٠٠ مما جعلها تفزع ، وتهرع فى هلع وسط زحام العربات ، فتصدمها احدى العربات ، وتلفظ أنفاسها ٠

وكما ان الكاتب يعانى فى كتابه ، ليعبر عن تجاربه ، فكذلك نجد زهير الشايب يحثنا على أن نبذل جهدا فى قراءته من أجل استجلاء الحقيقة فنحن الآن نقف حائرين ازاء تلك الحالة ٠٠ ياترى (نظيرة) مذنبة أم بريئة ؟ قد نتأرجح هنا بين الصدق والكذب ٠٠ لكن أرى انه فى الامكان ازالة الشك فى سوء نيتها ٠٠ فقد تكون نظيرة هنا بريئة من أى ذنب ، وضحية سذاجتها ، وجهلها بالأمور التى ينبغى مراعاتها فى مثل هذه المشاكل ٠٠ بدليل انها أطاعت أمر الحاج حسين ، وذهبت معه تلقائيا ، الى الموثق . لكن وساوس (الحاج) وشكوكه وغياب أولادها من غير قصد ، وخوفه من ألاعيب الشيخ سالم هى التى دفعته لترجيح سوء الظن بها ٠

وتأتى قصة (المصيدة) لينطبق عنوانها على المضمون تماما ٠٠ فالبطل اسمه (طلبة) وهو موظف بادارة المحفوظات باحدى المصالح الحكومية ٠٠ يقع فجأة فى مأزق ، قد يعرضه للطرد ، أو السجن ٠٠ فقد ضاع منه ذلك المستند الخطير ، وقيمته ٢٥ ألف جنيه « انه يبحث عنه فى كل مكان » فى أدراج مكتبه ، وفى الدوسيهات ، ودواليب المحفوظات ، فلا يجد له أثرا « فص ملح وذاب » ويعتصر ذهنه محاولا أن يتذكر مرة واثنين ، وثلاثا ، لكن دون جدوى ٠٠ انه الآن يدور حول نفسه ، حتى أصابه الدوار ٠ ونتسلط عليه صورة المستند الضائع فى كل لحظة ٠٠ فى يقظته ومنامه ٠٠ فى مكتبه وفى الاتوبيس وفى بيته ٠٠ وأصبح ضياع

هذا المستند ضياعا لحياته ، ومستقبله ، لقد راح يفكر فى زوجته التى ستطلب الطلاق بمجرد دخوله السجن ، وأخذ يشغل نفسه بشكوك زملائه ، وما يقذفونه من ريبة ، واتهام فى ذمته وأخلاقه فربما أخذ رشوة مقابل تسليمه هذا المستند الى من يعنيه الأمر ‥ لقد أخذ الشك ينهش فيه نهشا وتسرب هذا الشك الى الادارة التى يعمل بها ‥ فربما أراد أحد زملائه أن يكيد له كيدا ، فاستغل غفلته وسرق هذا المستند ، وأخفاه عنه ‥ لكن الكل يستنكر هذا المسلك الشائن ‥ ولما أعيته الحيلة ، لم يجد مفرا من اذاعة هذا النبأ على المدير ٠ وأمر المدير باجتماع زملائه فى مكتبه ليواجههم وجها لوجه ، فأنكروا جميعا أن يرتكبوا فى حقه مثل هذا الفعل الشنيع ‥ وأخيرا يلتقى (صاحبنا) بذلك المحامى الذى ينتمى الى بلده ، ليفضى له بمشكلته ‥ لكنه لم يلهمه الدواء الناجع لأزمته الطاحنة ٠ وكلما مرت الأيام ، أحس باستحكام حلقات الاتهام حول عنقه ، ويزداد توتره ، ويستبد به اليأس ‥ انه الآن ينتظر مصيره المحتوم ‥ ويحس بالألم والخسارة ‥ خسارة السنين الطويلة التى أضاعها فى الخدمة ‥ كل شىء قد ضاع منه فى لمح البصر ‥ سيخرج من الحكومة ملوثا موصوما ، ان لحظة انتظار العقاب ، أشد عذابا من العقاب ذاته ٠

وهكذا ، يسوق (أديبنا) صورة أخرى من صور العبث ، والسخر بالانسان ‥ واذا كانت الحسنات تذهبن السيئات ، فان صفحة دوسيه هذا الموظف ، طوال خدمته ، نقية ، من سوء ‥ لكن منطق الحياة لا يقبل ذلك ، فيكفى أن يرتكب خطأ واحدا ، حتى يشطب اسمه من قائمة الشرفاء ٠

وكان (الكاتب) فى هذه القصة قد أراد أن يقول : (حذار ثم حذار ، أن نضع مفهوما لمعنى الحياة فالحياة عصية على الفهم ، مستغلقة على الأذهان)‥ ولعل ذلك أصدق تعبير عن مدرك العبث الذى يبثه هذا الأديب ، فى ثنايا قصصية بشكل ملحوظ ٠

فى قصة (الدائرة) يصور زهير الشايب ، المناخ الداخلى لأتوبيس مزدحم بالركاب « وتبدو مهارة » الكاتب فى قدرته على تكثيف ما يجرى داخل الأتوبيس من جدل ٠ وصخب ومشاحنات ، ومضايقات ، وأشياء مزعجة ‥ فهذا طالب جامعى يقصد لجنة الامتحان ويخشى التأخير ، لكن من حسن حظه أن الأتوبيس ينطلق دون توقف فى احدى محطاته ، وهذا شخص يدخن سيجارة فيخنق الركاب برائحة الدخان ، وذلك الرجل المزكوم ، يبتعد عنه الناس ، خوفا من العدوى ، فيصبح أحدهم بفتح النوافذ حتى لا يختنق ، ويتحاشى الركاب هذه المرأة التى جاءت بسبتها وطبيخها حتى لا تمزق ثيابهم أو تجعلها تتسخ ‥ وهناك بين الركاب ،

ذلك اللص المشغول يخطف حافظة ذلك الموظف الذى تحوى راتبه ، والذى يلاحظه ذلك الشاب الذى يرضخ لنصيحة زميله ، فلم ينبس بكلمة ، أما السائق ، فهو لا يزال ينطلق فى طريقه دون توقف ، وأخيرا يسقط ذلك الشخص الذى تعلق بمؤخرة العربة ٠٠ ويتحول (الأتوبيس) الى القسم لاجراء التحقيق ، ويسمع السائق صوت المحقق وقد أخذ يعنفه لاهماله فى الحفظ على الأرواح ٠٠ ثم يصيح الموظف مستغيثا ، فقد سرقت محفظته لكنه يعثر عليها ملقاة على الأرض ، فقد خاف اللص أن يفتضح أمره ٠

واضح أن « حاسة الفنان » تجرى هنا بسرعة لتلقف تلك الجزيئات المادية التى توحى بالمغزى المقصود ، ثم تعمل على صبها داخل ذلك المفهوم الكلى الذى تدور حوله قصة (الدائرة) الا وهو : لحظات الانهاك الشديد التى نتعرض لها ، الكى نصل الى الهدف المقصود ٠

واضح ان قصة (الدائرة) انما هى تكثيف لطبيعة مسار الانسان فى الحياة ٠٠ فهذه الدوامة التى تتجسد فى (الاتوبيس) ، والتى تحمل فى جوفها كل صنوف الضيق ، والضجر ، والعنف ، انما هى قدر محتم على كل انسان يسعى الى مقصده ٠٠

ولعل (أديبنا) قد اختار لقصته اسم الدائرة ، ليرمز بذلك الى ما نصادفه من معاناة فى تلك الدوامة التى ندور فيها ، صباح غداة ، ومساء كل يوم ، وكأنها لا بداية بها ـ ولا نهاية ، أو قل هى لا تنتهى الا بالموت ٠

وبعد ، فلا يفوتنا أن نشير الى أن هذه المجموعة من القصص ، تمتاز بقدرة مؤلفها على التعبير عن أحاسيسه وخبراته وتجاربه ٠٠ فقد رأينا كيف يستقطر (الحقيقة) قطرة ، قطرة ، حتى اذا تكامل البناء ، أمكننا أن نستنبط فى النهاية (الدلالة الكلية) التى تدور حولها القصة ٠

وقد أمكن أن نلاحظ تلك المفاهيم الدرامية الى تجرى فى عالمه الفنى ٠٠ من هذه المفاهيم : العبث والزمن السيكلوجى ، والمعاناة الشديدة ، والمفارقات ، وعدم معقولية الحياة ٠

ومع هذا ، فينبغى أن نذكر ، بعض الهنات التى جاءت فى ثنايا هذه القصص ٠٠ فواضح أن الكاتب لا يخلو أسلوبه من نزعات التقرير ، والاخبار ، والسرد ٠٠ وكنت أتمنى أن يلتزم الكاتب فى تعبيره بالأسلوب الفنى الصحيح ، الذى يقوم على التلميح دون التصريح ، مستخدما فى ذلك الايماء والرمز ، والاشارة ، دون أن يخبرنا بطريقة مباشرة ، عن المغزى المقصود ٠ ومن المآخذ التى أخذها على هذه القصص ، الميل الى

حشد الجزئيات المادية بطريقة تبعث على الملل ، وكان الكاتب هنا ، ينقل الينا عن الواقع نقلا حرفيا ٠٠ وبدافع من رغبته القوية فى الاستطراد نراه يشجن قصصه بالتفاصيل ، والتخريجات التى هى أشبه بالعبء الثقيل الذى لا يفيد فى شيء ، اللهم الا الرغبة فى الاسهاب ، والاطالة مثل قصة الطريق ، والدائرة ، والمصيدة ، ولأن الكاتب قد اختار (الأتوبيس) كوحدة مكان يضم شخوص أغلب قصصه ٠٠ فقد جاءت بعض هذه القصص ، شبه متجانسة فى شكلها ٠ ومضمونها ، مثال ذلك قصص (على هامش الطريق ، والدائرة . والثابت وراء المتغير) فلا أغالى ان قلت أن الشكل والمضمون فى هذه القصص يكادان يتشابهان ٠



الأسوار العالية بين المقاومة والاستسلام

بقلم : عباس الأسوانى

من يخسر نفسه فقد يخسر الدنيا بأسرها ٠٠ وماذا يجدى لو حظى الانسان بكنوز الدنيا ، فى مقابل أن يبيع نفسه للشيطان ٠٠ كانت غايته نبيلة فهو يسعى جاهدا لكى يصبح مؤلفا مسرحيا ذائع الصيت لكن كان يتوسل لبلوغ ذلك ، بوسيلة غير شريفة ٠٠ فهل الغاية تبرر الوسيلة ! وهل كل مسعاه فى هذا الصدد بالفوز والنجاح ؟ لقد انتهى الى نهاية مؤسفة ، وكأنه مثل « شمشون » الذى هدم على نفسه البناء قائلا : (على وعلى أعدائى) ٠٠ أجل ! لقد كان يدمر نفسه بنفسه ، ودفعه هذا ، الى تدمير كل شىء ٠٠ فلم يجد خلاصه الا فى الثأر ٠٠ الثأر لنفسه ، المعذبة ، والثأر ممن كان يلعب دور البطولة فى محنته وأزمته ٠

ان « سامى » وهو بطل رواية : « الأسوار العالية » للأســـــتاذ عبــاس الأســـوانى ، انما هو بطل تراجيدى من الطراز الأول ٠٠ كان يناضل من أجل تأكيد وجوده ، كمؤلف مسرحى ٠٠ ففى ســبيل هذه الغاية ، كانت تهون عنده كل قيمه من قيم الحياة ٠٠ صــحيح أنه كان يقاوم الاعوجاج والانحراف ٠٠ لكن كانت مقاومته ضعيفة أمام صــدود الواقع ، وأسواره العالية ، فسرعان ما أنهارت ارادته ، وتداعت عزيمته أمام مغريات الخطيئة ، فاستسلم لها صاغرا ذليلا ٠٠ ومن ثم ، سعى الى مصــيره المحتوم بطلقه ، فقد انتهى الى عصــف مأكول ، وهشيم تذروه الرياح ٠

تبــدأ رواية « الاســوار العالية » من حيث تنتهى ، تبدأ بالنتيجة الحتمية التى استقطرها (المؤلف) من ثنايا مقدماته المنطقية ٠٠ أن هذه النتيجة تحوى « المعنى الكلى » الذى يومىء اليه « الكاتب » الا وهو الدمار

(للغالب والمغلوب) ، فقد انتهت المأساة بطاعن وطعين ·· قاتل ومقتول ، فدان « سامى » هو القاتل الذى قتل « زهران » فى عقر داره ·· وهو الآن رهن التحقيق ، ينتظر العقاب والقصاص ·

وتندفع فى ذهنه صور الماضى وكأنها شريط لا يكاد يلاحقه ·· انه ينتمى الى أسرة فقيرة ·· والد يشغل وظيفة متواضعة فى وزارة المعارف ، وأم متهالكة ، متدينة لا يفوتها فرض من الصلاة ·· ويحصل الابن على شهادة الثانوية العامة ، فيلتحق بكلية الحقوق ·· وما أن يقضى عامين بالجامعة حتى يرغم على قطع هذه الدراسة لوفاة والده فجأة ويضطر أن يعمل موظفا بقسم الفهارس بدار الكتب ، حيث تمكن من قراءة آثار الأدب العربى والأوربى لكن سرعان ما يتسرب اليه الملل والضجر ·· ترى هل سيظل رهين هذا المكان طول حياته ·· هاله أن يرى زميله عبد المجيد رضوان يقبع خلف مكتبه ثلاثين عاما ·· وزادت كآبته حين فجع فى وفاة أمه ، فكان يواجه الحياة وحيدا لم يجد وسيلة يحطم بها رتابة الحياة وسأمها فى مشاهدة المسرح الذى أحبه حبا ملك عليه حواسه ومشاعره · كل مبهور بالموسيقى ، والستائر ، والأنوار ، والممثلين ، وانكفأ على فهرس المسرحيات العالمية وأخذ يلتهم حوارها ، متخيلا الممثلين وكيف يتحركون على الخشبة ·· وذات يوم تعرف على زميله الجديد « زهران محمود » وأحس أنه يناقضه تماما فى طباعه ، فهو جرىء ، يثق بنفسه ، متحدث لبق ، يعلو صوته حين يجادل أحدا ·· انجذب الى هذا الزميل الفريد فى نوعه ·· ومن خلال الاحاديث الشائقة عن المسرح ، يكتشف « سامى » أن زهران له خبرة واسعة بهذا الفن ·

فقد قال له : (أن المسرح هو حياتى ، وسوف أعود اليه ولكن دون أن أعمل لحساب أحد) · لقد دفعه الفضول الى أن يعرف مزيدا من الحقائق عن شخصية زهران ، فأخبر عبد المجيد رضوان بأن والده من أغنياء الصعيد وقد غضب من ابنه لاتصاله بجمعية سرية تدعى : « الخبز أولا » وهى تنادى بتجريد أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء · أعتاد زهران أن يصحب زميله « سامى » فى سهراته مع أصدقائه الفنانين بمقهى « لازاريس » وقد شجعه ذلك ، على الكتابة ، فأنجز مسرحيته الأولى التى قدمها لزهران ، فطار بها فرحا وعمل على تنفيذها فى المسرح ، فقد كان يجيد التمثيل والاخراج ·· وكان من أثر نجاح المسرحية أن توطدت العلاقة بينهما وزادت رسوخا ·· لكن فجأة يتغيب زهران عن عمله بدار الكتب وعن المقهى ، الأمر الذى دفع صديقه لزيارته فى بيته · وفوجىء بأنه قد تزوج من فتاة كانت تبحث عن معين

لها فى الفن ٠٠ فهى تتمنى أن تصبح ممثلة مشهورة ٠٠ لم يدم زواجه من (سهام) أكثر من سته أشهر ٠٠ ويجيئه نبأ وفاة والده الغنى الذى كان يحرمه من مساعدته فيرثه ، ويصبح بين يوم وليلة من أثرياء البلد ٠ ويخبر زهران أن صـــديقه « ســامى » بأن عليــه أن ينتهى من تأليف مسرحيته الجديدة حتى اذا عاد من أوربا ، أقبل على تنفيذها فورا ٠٠ وتتهلل أسارير (سامى) وتزول عنه حســاسيته نحو زهران ٠٠ فقد كان يخشى أن تتغير معاملته مع تغير ظروفه ٠٠ لقد استوثق الآن من أنه فنان أصيل بحق وحقيق ٠٠ كان أفراد فرقته القدامى ينتظرون عودته بفارغ الصبر ، فقد اذاع عليهم (سامى) رغبة زهران فى تكوين فرقة وشراء مسرح ٠٠ وأخذ يقرأ عليهم مسرحيته الجديدة : « اللؤلؤة » فأعجبوا بها وراحوا يفرقون أدوارها على كل منهم فى حماس شديد ٠ وهى تدور حول فتاة تزوجت من شاب فقير ، وقد تعطل عن العمل ، مما جعلها تعمل ـ دون أن يدرى ـ لدى احدى العائلات ، لتنفق عليه ، وحين ساورته الظنون قرر أن يطلقها ، لكنه اكتشف فى النهاية نبلها ٠٠ علم «سامى» بعودة صديقه من أوربا عن طريق الصحف ، فاتجه الى بيته لتهنئته بسلامة العودة ٠٠ وسرعان ما أحس بفتور لقائه ٠٠ لقد أدرك أن زهران قــد تغير واقام سورا بينه وبين اصدقائه ، فهو يزهد فى مقابلتهم أو التعامل معهم وكأنهم كانوا يمثلون مرحلة قد انقضت من حيــاته يقول : (كنا نحتاجهم فى الماضى ٠٠ الآن تغير الوضع ٠٠ أريد أبطالا حقيقيين) ٠

تلقى (سامى) تلك الصدمة فى صمت وهدوء ٠٠ فقــد ارتطم بصلابة السور الذى أقامه « زهران » ليفصل بينه وبين أصدقائه وكل من يعقد عليه أملا ٠٠ الأمر الذى جعل صديقه يحبط وينسحب الى الخارج موليا وجهه الى « الحان » ليعب من كئوس الخمر ما يجعله يغيب عن وعيه وواقعه المجدب الكريه ٠٠ راح يدمر نفسه بالسهر وارتيــاد المقــاهى والحانات ، فأدمن الخمر وأدمن التدخين ٠٠ كان يرفض كل شىء حتى مقهى « لازاريس » رأينــاه يعرض عنه حتى لا يثير فى نفسه ذكريات الليالى التى قضاها مع زهران فقد انتقل الى حانة « ركس » وأخذ يتردد عليها كلما داهمته أزمة من الازمات ٠٠ اصفر وجهه وصار كعود هش يكاد ينقصف ٠٠ لقــد انقلبت حساباته رأسا على عقب ٠٠ ووجد نفسه فجأة أمام زميله عبد المجيد رضوان يقترح عليه بأن يتزوج ، فذلك علاج لكل مشاكله ٠٠ فيلتفت اليه سائلا اياه عما اذا كانت لديه عروســة مناسبة ٠٠ فيختار له ابنة ابراهيم عارف ويطلعه على صورتها ٠٠ انها فتــاة جميلة فى الثــانية عشرة من عمرها ، انقطعت عن تكمله تعليمها بسبب الحمى التى أصابتها فى الصغر ٠ ويرتاع « سامى » حين يسترجع الظروف التى يعيش فيها ، فهو شخص مفلس ، لا يملك شروى نقير ،

ويفطن عبد المجيد الى ما يدور فى خلده ، فيطمئنه بأنه لن يدفع ثمن شبكة او مهر . وفى اليوم التالى يوافق على هذا الزواج اليسير الذى لن يكلف شيئا .. لقد باع أثاثه القديم وانتقل الى الشقة الجديدة مع « الهام » وما أن يأتى الصباح ، حتى ينهمك فى تصفيف كتبه وكتب « الهام » ، وفجأة يعثر فى ثنايا كتاب من كتبها على صورة زهران .. كانت مبثوثة فى رواية مدام بوفارى .. لقد أزعجته الصورة ، فسألها عنها ، فأجابته على الفور ، بأنها صورة ممثل مشهور ، كان زوجا لاحسان التى تعمل بالحياكة فى منزلهم .. فقد كان زوجها وهى تفخر بذلك ، وتوزع صوره على زبائنها ، لانها لا تزال تحبه ..

كان (صاحبنا) ينظر الى الزواج على أنه نوع من الاستقرار الذى يهيىء له جوا هادئا يساعده على كثرة انتاجه حتى يلحق بالمجد الذى حققه « زهران » . وتقوده قدماه الى حانة ركس ، فيلتقى بأحد أصدقاء زهران وهو حامد رشدى الذى كان رئيسا للجمعية السرية : « الخبز أولا » وتنكر له زهران وتجاهله فيما بعد ، فيحكى (سامى) له قصة زواجه السريع، فيثير فى نفسه الشكوك ، ويحثه على استجلاء الدافع من عجلة أهلها فى الزواج منه ، لم تمض ستة شهور من زواجه ، حتى أنجز مسرحية جديدة، تحكى عن عائلة يسيطر عليها أب جبار ، يرى أن القسوة هى الحزم ، وان البطش هو العدل ، وقد انتهت بانهيار الأب ، حين تبين له أن سلوكه قد أدى الى تفكك العائلة ، والى سقوط الزوجة وهجرة الابن .. أخذ مسرحيته الى الأستاذ « ح » الذى كان يملك مسرح النهضة المتواضع .. وافق على عرض مسرحيته التى لاقت رواجا هائلا .. أيقظته « الهام » فى يوم لتخبره بوفاة أبيها المفاجىء .. تأثر لوفاة ابراهيم عارف ، وقد أذهله نبأ تعيين خصم المرحوم أحمد مخلوف مراقبا للدار ، وكان ذهوله أشد حين زارته حماته « نعمات، هانم » وصديق العائلة عبد السلام بك ، ليعلنا عن زواجهما بعد شهور قليلة من موت والد « الهام » .. وفى تلك الفترة ، كانت « الهام » تعانى من الحمل وتتهيأ العملية الولادة ، وما هى الا أيام حتى وضعت وليدها الذى أطلق عليه والده اسم سمير .. سقط الأستاذ (ح) مريضا فقد أصيب بنوبة اغماء مفاجئة وهو يغادر مسرحه وأراد (سامى) أن يزوره ويطمئن عليه لكنه فوجىء فى الصباح بنبأ وفاته فى الصحف .. وقع خبر وفاته عليه كالصاعقة .. أحس بأن سلاحه قد سقط أثناء المعركة ، وقد زادت كآبته حين علم أن « زهران » قد اشترى مسرحه وأبقاه مغلقا الى أجل غير مسمى .. لقد ضيقت عليه الحياة خناقها .. فقد لاحظ الهام ترتدى ثوبا مهترئا ، كما أن طعامهم اليومى يؤكد ما يحيط بهم من فاقة وعوز ، وأخذ يتأمل طفله وكيف يفعل لو احتاج الى دواء أو ملابس . وتذكر كيف استطاع أن يرد الصاع

لزهران حين نشر مقالا فى مجلة (النجمة) بدون توقيعه ، يهاجمه فيه ويسفه شخصه فى دور « مجنون ليلى » ٠ وكيف قابل الأستاذ (ح) تصرفه باستحسان واعجاب ، فقد كان زهران يناصبه العداء ٠ تركت نعمات هانم بيتها غاضبة ، وذهبت الى بيت ابنتها ، فقد طردها عبد السلام زوجها ، بعد أن نشبت مشادة بينهما ٠٠ قررت « الهام » أن تبيت أمها عندها ، على أن يأتى عبد السلام اليها فى الغد ليصالحها ٠ دق التليفون فى مكتب المراقب وكانت المكالمة موجهة الى « سامى » وكان « زهران » هو الذى تحدث اليه ، فقد طلب منه أن يقابله فى نفس اليوم الساعة الخامسة فى مكتبه بالمسرح ، وحين التقيا راح يعاتبه عن مقاطعته له كل هذه السنين ، وأبان اله أن هذه القطيعة كانت بسبب تنكره له ورفضه مسرحيته (اللؤلؤة) ٠ وضحك زهران واعتذر له ، واعترف بأنه كاتب موهوب ، وعرض عليه أن يعمل معه ، وقد طمأنه بأنه يستطيع أن يقول ما يريد دون تدخل منه ٠ وبالفعل ، قدم له رواية (رأس بلا عقل) ، وأحاطها بدعاية بالغة ، وأصبح « سامى » النكرة فى يوم وليلة ، كاتبا مشهورا ٠٠ دعا « الهام » ونعمات هانم وعبد السلام لمشاهدة هذه المسرحية ٠ وأبدت نعمات هانم رغبتها فى مصافحة زهران وتهنئته ، فصحبهم (سامى) اليه ، فرحب بهم ، وصاح مداعبا « الهام » : (آه! هذه ملهمتك اذن ! ٠٠ وجه اليهم الدعوة للعشاء فى نادى السيارات٠٠ فى هذه الليلة داخله شعور بالسعادة فقد تقاضى مائتى جنيه ثمنا لتأليف مسرحيته ٠٠ كان زهران قد استحوذ عليه تماما ؟ فقد وافقه على أن يستقيل من وظيفته فى دار الكتب ، وقد اتفق معه على أن يدفع له شهريا خمسين جنيها كل شهر فى مقابل أن يقدم له مسرحية واحدة فى العام ٠ وقد أهداه سيارة جديدة ٠٠ لكنه حين قرأ اعلانات الصحف عن مسرحيته ، سرعان ما أحس بصدمة عنيفة وجهها اليه زهران ٠ فقد سرق جهده ، وسجل اسمه كمؤلف للمسرحية بدلا من « سامى » المؤلف الحقيقى ٠ لم يسعه الا أن يجرجر أقدامه الثقيلة متوجها الى (حانة ركس) ، حيث أراد أن يدفن حزنه وألمه فى كئوس الخمر التى كان يجرعها فى نهم لتطفىء صدره المقروح ، هكذا يفعل كلما أصابته مصيبة، فلا يجد سلوانه الا فى السكر والشكوى لصديقه ونديمه حامد رشدى ٠٠ فكر فى أن يقاضيه ، لكن صديقه أقنعه بالاحجام عن ذلك ٠٠ أراد أن يرفض العمل مع زهران ، لكن حامد رشدى نصحه بأن مثل هذا الصرف يجعله لا يفقد مرتبه وسيارته فحسب ، بل سوف يتعقبه زهران ليضمن عدم وصوله الى أى عمل ، فهكذا فعل مع آخرين كثيرين ٠٠ وأخيرا قرر أن يذهب الى بيته لبطالبه ببقية أجره عن المسرحية ٠

لمح سيارته التى كانت تقودها زوجته ، تقف الى جوار رصيف

الشارع الخلفى للعمارة ٠٠ ورأى «الهام» تمرق فى عجلة من باب العمارة ، وتستدير فى الشارع ناحية سيارتها ، وقد دلفت اليها فى سرعة دون أن تلمحه ٠٠ وهبت فى وجهه كل الشكوك ، وتذكر كيف كانت الهام تحتفظ فى كتاب لها بصورة زهران ٠٠ أهناك علاقة سابقة ٠٠ أسرع يتعقبها . وما أن وصل الى بيته ودق الجرس حتى فتحت له فقادها الى حجرة بعيدة عن ابنها والخادمة ، ثم سألها : من أين جئت الآن ؟ ٠٠ ولم تتردد فى أن تبوح له بالحقيقة ، فقد اعترفت بأنها كانت عند زهران ٠ ثم أردفت قائلة : (ها أنا قد أخبرتك ، ولن أعيش معك بعد اليوم ٠٠ أريدك أن تطلقنى فى الحال ٠٠ قال فى هدوء : ليس من الملائم أن نتحدث فى هذا الموضوع هنا ، لننزل معا الى أى مكان ٠ وافقته على رأيه ، وأسلمت له مفاتيح السيارة وجلست الى جانبه كالمعتاد ٠٠ ظلا فى حال من الصمت والوجوم وكان سورا شاهقا يحول بينهما ٠ حتى اذا وقفت السيارة الى كازينو صغير راح يسألها : كيف تذهبين وحدك الى شقة رجل أعزب ، وأنت زوجة وأم ؟!! ٠٠ فكان ردها بأنها ذهبت اليه فعلا ، لكنها لم تجده هناك ٠٠ وأخذت تعترف له بأنها أحبت زهران ٠٠ أحبه قبل أن نتزوج يا سامى ٠٠ كانت قبل الزواج محمومة بقراءة الروايات الغرامية وقد تحولت بسبب ذلك الى انسانة خيالية ، يختلط لديها الواقع بالخيال ، وكان من الصعب عليها أن تصدق أن حياتها التى تحياها ، هى حياتها الحقيقية ٠٠ أحضرت « احسان » زوجة زهران الأولى الى منزلهم ثيابا لأمها وروت لها تفاصيل حياتهما الزوجية يوم بيوم ٠ ومع خيالها الحاد تتبتت هذه التفاصيل فى ذهنها ٠ فقد أحست كأنها هى التى عاشت مع زهران وكانت زوجة له ٠٠ لقد روت لها احسان أدق مسائل العلاقات الزوجية بينهما وقد عاشتها معها بخيالها المريض وأعصابها الرهيفة ومن ثم أحست أنها تحبه ، وعندما أهدتها صورة زهران ، كانت تتأملها فى نشوة بالغة ، وتناديها متحدثة ، وعندما علمت من « احسان » أنه كان زميلا لزهران بدار الكتب ، رأته من جديد قريبا منها ، وحين وجد سامى صورته بين يديها فى صبحية الزفاف ٠ كادت تنهار ، وتعترف بالحقيقة كلها ٠٠ فى كل مرة تلتقى به ، كانت تشعر أن قدرها مرتبط بزهر ان٠٠ كانت تثق أنه يحبها كما أحبته ، وأنه سيتزوجها بمجرد طلاقها من (سامى) ٠٠ لم يسعه الا أن يطلقها مشترطا أن تسأل زهران أولا ، اذا كان ينوى الزواج منها ثم تعود اليه لتخبره باجابته ٠٠ قالت انها واثقة من ذلك ٠٠ فكر سامى فى الانتقام منهما ٠٠ أراد أن يشوه بها وجه زهران ٠٠ وبينما هو غارق فى أفكاره ، اذا بغلاق يدق جرس الباب . فيفتح له ، فيسلمه رسالة من الهام تخبره فيها عن خداع زهران لها وهى لذلك قررت أن تنتحر ٠

بحث عنها فى كل مكان ‥ ولم يعثر عليهـا الا وهى واقعة عـلى رصيف كوبرى عباس وقد أوشكت على القاء نفسها ، فصرخ باسمها صرخة عالية ، لكنها لم تلتفت اليه ، فقد قفزت على السـور وألقت بنفسها فى النيل ·

أصر أن يقابل زهران ‥ وجده وحده فى شقته ، فسأله عن بقية ثمن مسرحيته ، ففتح خزانة صغيرة وأخرج رزمة من الأوراق المالية ، أعطاها له ‥ وحين سأله عما اذا كان قد طلق « الهام » أدرك أنه لا يزال يجهل مصيرها ‥ فأخبره عن انتحارها ، فلم يتأثر ولم يحرك ساكنا ‥ وفى لمحة أمسك بالمطوه ودفنها فى صدره ثم انهال عليه بالطعنات حتى وجده يتهاوى أمامه على سجادة الأنتريه · أستطاع أن يفلت من الناس وأن يستأجر « سيارة تاكسى » نقلته الى أحد الملاهى بالهرم ‥ وهناك تعرف على أحدى الراقصات التى صحبته الى شقتها بالدقى ‥ وهناك كان فى خال من التوتر والقلق والخوف ، فرغم كثرة مداعباتها له الا أنه كان عزوفا عنها ‥ لقد راح يغط فى نوم عميق ، ولم يستيقظ الا فى ظهيرة اليوم التالى حين أحس بقلقها من وجوده ، نفحها عشرة جنيهات ‥ ثم أعطاها ثلاثة جنيهات لكى تشترى له زجاجة كبيرة يروى بها ظمأه ‥ وأدارت المفتاح وانفرج الباب ليشاهد فى صحبتها ضابط البوليس الذى ذهب معه عن طواعية ·

دلالات الأسـوار :

كان سور السجن يمثل له نهاية الأسوار التى عاناها فى حياته · فقد لاح له السجن بأسواره الحـديدية العالية فى صـورة حصـاره المأساوى الذى انتهى اليه ‥ انه الآن لا يستطيع أن يفل الحـديد ، أو يقاومه ‥ فكل شىء حوله قد صنع من الحديد : السلالم ، الممرات ، السـقوف ، الأبواب ، كلها من الحديد ‥ وحين وضـع القيد فى يديه تمهيدا لنقله الى النيابة التى يرفض الاعتراف أمامها ، أحس بالمهانة ، والضعة ‥ وحين مر به التاكسى هو والضابط ، بجوار دار الكتب ، تذكر بداية حيـاته ، والأشـخاص الذين دفعوه الى مأساته : زهران ، رضوان عبد المجيد ، عارف بك ومع هذا ، فقد تمنى أن يبدأ من جديد ‥ من الصفر ، وأن يدفع عمره بأكمله ثمنا لذلك ، تماما مثل زميله رضوان الذى ظل راضيا ، قابعا خلف مكتبه ثلاثين عاما ·

ان (زهران) قد تحول عنه تنكر له ولكل من يعرفهم من قبل · لقد تغير بمجرد أن تغيرت ظروفه ، الأمر الذى دفعه الى تسفيه مسرحيته :

« اللؤلؤة » ، التى كان يتوقع ترحيبه وفرحه بها ·· لكنه انهال عليها نقدا وتجريحا ·· كانت بطلة هذا العمل الفنى ، امرأة بذلت وضحت من أجل زوجها الفقير العاطل ، لكن فى ضوء تفكيره السليم رأى أن الفقر انما هو أوهى الأسوار التى لا تصمد أمام أدنى الهزات ومن ثم ، فالمرأة لاتحب الضعف ، بدليل ان زوجته « احسان » « ما زالت تحبه رغم طلاقها منه ، وها هى الهام تقع فى حبه وتضحى بنفسها لفراقه ، كان يتأبى عليهم ، فهو ينظر الى المرأة بمنظاره الخاص ·· انه لا يخلص الا لذاته التى تضخمت وصارت دميمة شائهة ·· انه لا يطيق أن نحتكر حياته امرأة ، فبقاء امرأة معه باستمرار ، قد يصيبه بالجنون ، حتى لو كانت هذه المرأة « كليوباترا » ·· ان التركيز الشديد على ذاته ، أصاب بصره وبصيرته بالطمس والعمى ، فلم يلتزم ازاء الآخرين الا بخيانته لهم والغدر بهم واقامة الأسوار التى تحجبه عنهم ·· وفى هذا الصدد يتذكر «سامى» ذلك المغنى المشهور الذى ضاق بزحام الناس حوله ، فكان يحجب نفسه بشتى الوسائل ، حتى انه كان يركب سيارته ويسدل ستائرها ، لكى لا يراه الناس ·

نسبية الحقائق :

لعلنا قد لاحظنا كيف أن البطل قد تقلب فى حياته فى أحوال شتى ·· فاذا سألنا : كيف صعد (سامى) سلم المجد وتألق اسمه فى سماء الشهرة ككاتب مسرحى مشهور وكيف انه كان محبطا بائسا مجهولا من قبل ؟ ان الاجابة تتمثل فى موقف زهران وطبيعة هذا الموقف من صديقه ·· فقد جعله مثل « قطعة الشطرنج » التى يحركها كيفما يشاء ·· أنزله مرة ، الى أسفل الدرك ، ساحبا منه اعترافه بموهبته فى التأليف ، ومن ثم ، انزوى وذبل وكاد أن يتلاشى ·· فى مرة أخرى ، رأيناه يصعده ويرفعه الى أعلى عليين ·· لعل هذا التحول والتبدل يعطينا معنى النسبية فى الحقائق · فالانسان وحده مقياس كل شىء مقياس تلك الحقائق ·· ما أراه خيرا فهو خير ·· وما أجده ــ فى نظرى ــ شرا ، فهو الشر بعينه ·· ولعل دلالة (الخير والشر) فى الأسوار العالية نفصح عن مفهوم المنفعة الخاصة فان ارتفاع (سامى) وهبوطه كان رهنا بنوعية علاقته بزهران ومن هنا ، كانت الحقائق نسبية ·

النقد والتقييم :

من الضرورى أن نطرح هذا السؤال بادىء ذى بدء : ترى لو أن زهران لم يمت والده ، أكان سيظل وليا ، حميما لصديقه سامى وزملائه

الآخرين ؟ وبالتالى ، هل كان فى مقدور (عباس الأسوانى) أن يقدم نفس الرواية التى تسع ١٨٢ صفحة ٠٠ أقول هذا ، لأن بناء هذه الرواية قد أقيم على أساس بنية هشة اسمها : « الصدفة » ٠٠ فالصدفة وحدها هى التى جعلت الأب يموت قبل ابنه فيرث كل هذا الثراء ٠ لهذا لعبت الصدفة دورا محوريا فى تشكيل القوة الدرامية التى دفعت عناصر العمل الفنى الى الحركة والنمو والتكامل ٠٠ فلو حذفنا عنصر الصدفة (وهو وفاة الأب) من تركيب الرواية لتداعى بناؤها على الفور ٠ كذلك ، آخذ على هذه الرواية ، دفعة (سامى) الهستيرية وتعجله للقاء زهران ، رغم أنه يفيض منه ـ أسى وألما وهلعا ٠٠ ألم يكن أولى به أن يتحاشاه ، تماما مثل زميله الممثل الفقير الذى يدعى (العسال) الذى رفض أن يعمل معه حتى لو دفع له مليون جنيه ٠ أما كان أولى به أن يعامله بحذر ، بعد أن انكوى بناره ، فلا يتهافت عليه ، ولا يتبذل عليه حين يقرب منه زوجته وحماته وحماه ٠٠ بل يتقبل شاكرا دعوة عشائه وعزومته لهم وأيضا هداياه بل حتى لا يعصى أمره له ، بالاستقالة من وظيفته الحكومية ٠٠ فقليل دائم خير من كثير منقطع ؟

مهما يكن من أمر ، فموضوع الرواية يعتبر فريدا من نوعه فى تاريخ الرواية المصرية ، ولعل ذلك ، ما يجعلها تنتزع كل تقدير واعجاب ٠



المثلث الفيروزى لعز الدين نجيب
فوستوك يصل الى القمر لمجيد طوبيا

من البداهة اننا لا نعرف الأشياء الا اذا استحالت فى أذهاننا الى مدركات حسية يمكن تمسها وهى تتداعى فى شريط من الرموز والصور والأشكال ، ونحن حين نستجيب الى هذا التداعى ، انما نستجيب لتيار الشعور الذى ينبئنا بما يجرى حولنا من أحداث ، وتغيرات ومثيرات ، وقد تتخذ استجابتنا فى التعبير عن شعورنا أشكالا مختلفة فقد نتوسل بالتعبير الخبرى الذى يصلنا بالواقع وصلا مباشرا ، وقد نستعين فى ذلك بالتعبير الجمالى الذى يصوغ الواقع صياغة جديدة ، حيث نجد الكلمة هنا وكأنها قطرة الضوء التى يستقطرها الفنان من وهج الشمس ، أو بقعة اللون التى توحى بالنغم والانسجام أو اللبنة التى تمثل جزءا من بقيـة الأجزاء حتى يتآلف الشكل ·· وهـذا بحق يمثل فى الكتاب « المثلث الفيروزى » للكاتب الفنان « عز الدين نجيب » فهو يضـم مجموعة من القصص القصيرة لا تعدو أن تكون تكوينات لونية درامية ··

فالكلمـات هنا هى اللون الذى يتالف منها تشكيل اللوحة وهى توحى بالتلوين والتنويع وهى الأحاسيس النابضة بالحركة والحياة ·· فلا غرابة اذا رأينا القصة عنده لا تخرج عن كونهـا « لوحة تشكيلية » يحاول الكاتب أن ينطق عناصرها الصامتة النابضة عن طريق سياق من الكلمات ·· من ثم نجده يجرد هذه العناصر من عالمها المكانى الذى لا يتخطى الحدود الضيقة للوحة اليلقى بها الى خضـم عالمنا الفسيح حيث نجدها تنجرف الى التلاحم والتشابك والتصارع ، وهكذا أمكن للكاتب ان يبتكر شكلا قصصيا جديدا يقوم على أساس خلق تكوينات علائقية درامية تربط بين التشكيل اللونى الاستاتيكى من جهة والتشكيل الأدبى الديناميكى من جهة أخـرى ، وبالتالى أمكن ان يستخرج شـخوصه من جـوف ذلك

اللوحات التى يعمد أن يقدمها بادىء ذى بدء فى قصصه جميعا ·· فنجده فى « المثلث الفيروزى » يستهل القصة بما يلى :

ـ « ·· بينما كان يلف اللوحة فى الورق تاقت نفسه الى أن يلقى النظرة الأخيرة ·· تركها على الحامل وتراجع حتى لاصق ظهره الجدار ·· سيقولون عدت الى تصوير الأشخاص هذا اذا اهتموا بأن يقولوا شيئا على الاطلاق ·· عندما أرسم أمى يا سادة لا أصور أشخاصا ·· أنا « فقط » أطل الى الداخل ·· » ·

من خلال هذه اللوحة يحاول الكاتب أن يولد تخريجاته ، ويستنبط خيوطه التى يخلق منها نسيج القصة ·· فالبطل يعمل رساما باحدى المجلات الكاسدة وهو يتخذ من فنه طريقا · طريقا للطموح والنجاح ·· لهذا نجده يبدع تلك « اللوحة » التى تضم وجه أمه ويتقدم بها الى المسابقة · لعله يفوز بالجائزة الأولى التى تتيح له السفر الى أوربا ·· لكن الظنون تساوره ، فلعل أحد أعضاء اللجنة لا تعجبه اللوحة ، متذرعا فى ذلك بأن صاحبها يهتم بتصوير الأشخاص ، وأنه غير قادر على أن يتخطى الواقع ·· فى تلك اللحظة اليائسة يحاول الفنان أن يتذكر ملامح أمه لكن انفعاله العنيف سرعان ما يطمس تلك الملامح فلا تكاد تبين ذاكرته ·· الأمر الذى جعله يصرخ قائلا : (أين ملامح أمى ·· لقد ضاعت ·· لقد ماتت أمى ··) وأحس برغبة قوية تدفعه الى أن يجرى فى الشارع صارخا بأعلى صوته « ماتت أمى ، ماتت أمى » ·· ولم يهدأ حتى رآها تطل عليه من خلف زجاج مكتبه بالمجلة التى يعمل بها وبأنها صورة وجهها الذابل ، والدموع تنحدر فى خطوطه الغائرة ، وتظهر نتيجة المسابقة ، ويفوز بالجائزة الأولى وبذلك يتحقق الحلم فقد أراد أن يجعل من نفسه راهبا للفن ·

وفى قصة « ظل السكين » نجد كاتبنا يوحى الينا بمضمون القصة من خلال اللوحة التىيعبر عنها بقوله «لأول وهلة جذبت عينه اللوحة المثبتةعلى الحامل بألوانها الزيتية التى تلمع فى النور ·· وبرغم بعد المسافة ، والضوء الخافت رأى بسهولة كل التفاصيل ، صوامع الغلال الفارغة ، المتناثرة على السطح ، والسلم المتنقل « الموضوع » على الجدار ، وظله الذى تقيه الشمس بجانبه ·· ليست هناك ألوان تقريبا « فقط » هناك الأبيض والأسود يرقصان فى ايقاع حاد يوحى بالظهيرة ·· « واضح ان الضوء الذى يشع فى اللوحة انما يومىء الى كشف الستار عن كل مايدور فى الخفاء بين « فتحى » الطالب بكلية الفنون ، و « صباح » زوجة « مرسى » ابن عمه الذى قضى نحبه فما من لقاء يتم بينهما فى الظلام الا يحس بأنه قد تعرى أمام القرية جميعها ، فهذا الصراع الذى يعانيه الآن انما يحدث نتيجة

تصادم صورتي وجهها أمامه صورة وجهها الذى يراه ناضرا غضا ، وصورته يوم المأتم حيث كانت تلطخه بالطين ، وينهال عليه صفعا ولطما ، وواضح ان رمز « البقرة » فى القصة انما يومىء بشخصية « صباح » وما تعانيه من تمزق وضياع ، حتى صارت وكأنها تلك البقرة المعلقة بين الحياة والموت ، والتى يوشك الجزار أن يجز بسكينته رقبتها ·· ان اللوحة تنبىء بالحزن والفراغ والخواء ، تماما كما يحدث فى الواقع الخارجى ·· فالحداد ما يزال يطارد (فتحى) وينغص عليه حياته ·· الحداد الذى ينملاه من وجه صباح الملطخ بالطين ، والذى جعله يثوب الى رشده ، ويحس أنه تعرى تماما وفى هذا الصدد يقول الكاتب : « ·· وعندما رفعت صباح رأسها عن صدره الأيسر خيل اليه أنه حدث تجويف عميق مكانه ، وشعر أنه أصبح خاويا يمكن أن ترى الأشياء من خلاله ·· » ·

ويوعز الينا عز الدين نجيب فى قصة (السقوط) بذلك الجو الدرامى الذى يعيش فيه « عواد » ·· فهذه الصورة التى سجلها الكاتب فى بدء قصته انما تنم عن ذلك الاحساس الغامض الذى يسيطر على البطل وكأنه يحدث بذلك الفعل المنكر الذى سوف يقدم عليه ويجعله معذبا طول حياته ·

يقول الكاتب : « ارتعش ضوء المصباح « الجاز » على (الطبلية) عندما هبت نسمة مجهولة المصدر ··· لاحظ عواد مزقا جديدا فى جلبابه عند الحجر ·· كان رأسه تحت المصباح تماما يغمره الظلام ·· أخذ يلملم المزق باصبعه ، ووجهه فى حجره ··· قام فى صمت ودس قدميه فى حذائه البالى وغادر النار ·· يخترق ظلام الزقاق ·

·· لقد كان عواد يعتقد أن الضيق الذى استحكم على حياته ، كاد أن ينفرج حين طرق بابه العجوز «حمصون» الذى دعاه الى لقاء الحاج شعبان ·· فقد كان يخمن أنه سوف يفلح أرضه الشاسعة وهو فى مقابل ذلك سوف يجنى أجرا سخيا ·· الكنه حين كان يعبر الطريق اليه ، كان ينصت الى تلك الهواجس الغامضة التى ظلت تراوده حتى تم لقاؤه بالحاج شعبان ويبدو أن الكاتب يرمز الى تلك الهواجس بصوت ماكينة الطحين الذى راح يدق باستمرار فى أذن عواد ·· لقد طحنت الحاجة عواد تمتما كما طحن الماكينة القمح ليصبح دقيقا ، فقد انصاع لأمر الحاج شعبان الذى حتم عليه أن يقتلع قطن «السيدة أم كمال» التى تؤثره دائما بأفضالها ·· انه الآن يتألم ويخرج من بيته هائما على وجهه ويجد نفسه فجأة أمام تلك الشجيرات المخلوعة ·· انها تبدو أمامه كالجثث التى تحدق فيه لقد أحس أن كل شىء يحدق فيه وانه لم يعد متأثرا بأثوابه فهو يحاول أن يلملم مزق جلبابه لكن دون جدوى ··

فوق ذلك نجد عز الدين نجيب يقوم دائما بالتركيز على ملامح الشخصية وكأنه يقول : اننا حين نفتقد هذه الملامح لايمكن أن يحقق لنا ادراك جوهر الشخصية ، فهى لاتعدو أن تكون شخصية بلا صورة فالصورة هى التى تحدد طبيعتها وتسمها بسمة التشيؤ ، وبالتالى تبدو الشخصية هنا وكأنها فوضى من الهيولى التى لاتخضع للرؤية أو الادراك ٠٠ وهكذا يحاول عز الدين أن يسجل لنا هذا المعنى من خلال قصة «القطار» ٠٠ فالبطلة هنا تعانى من عدم فهمها لشخصية البطل الذى ينوى الزواج منها ومن ثم فهى ترفض هذه العجلة وتطلب منه أن يمهلها رويدا ٠٠ وعندما تقترب من هذه الملامح تجدها تتشبث بها وتمعن النظر فيها ٠٠ فقد أدركت الآن كل شىء فيه ، حتى أصابعه وهى تتقلص وتنفرج على الكوب الزجاجى ٠٠ وعند ذاك أحست بارتياح شديد ٠٠ لقد عرفته الآن ولا يسعها الا أن ترفضه ٠ وفى قصته «المستنقع» نجد «درية» تعانى من نفس الاحساس فهى تعمل رسامة عند «فكرى» صاحب «مكتب تصميمات النسيج» لقد أرادت أن تكشف النقاب عن شخصيته لكنها لم تفلح ذلك لانه «كان دائما ينكفىء فى الركن المظلم على لوحته فى صمت لعدة أيام فقد حاولت أن تحفظ ملامحه لكن دون جدوى» حتى سقطت فى النهاية ضحية غموضه وخداعه ٠٠

أما قصة «أم شوقى» فقد استطاع الكاتب أن يقدم الوحتها على النحو التالى :

« لقد أطبقت على الشمس الصغيرة قبضة هائلة من السحب ، وظلت تخنقها حتى انطفأ آخر شعاع ترسله الى الأرض ٠٠ رفعت «هانم» وجهها الى السماء ، مستطلعا ، فبانت العينان محمرتين ٠٠ وعلى الخدين أثار الدموع ٠٠ ظلت العينان تنبشان بين كتل السحاب على أثر الشمس دون جدوى» ٠

ان رمز السحب التى تغلف الشمس هنا انما يوحى بحالة القلق والحيرة التى تنتاب «هانم» فهى عاجزة أن تجد مخرجا من هذا المأزق الذى وقعت فيه ٠٠

فقد أخبرت زوجها الفلاح الأجير بما يحدث من شجار بينها وبين شقيقتها « نظيرة » التى رفضت بعض النقود لكى تشترى « لحم الموسم » الأمر الذى جعلها تلجأ الى احدى الجارات لكى تحقق ذلك ٠٠ لقد أنكرت على زوجها تصرفها الأخير ، وما كانت تعلم انه سوف ينفجر فيها غاضبا مهددا بالقاء اللحم الى الكلاب فى الشارع ٠

وهنا تتكاثف السحب ويظلم المكان فلا تقوى « هانم » على الابصار

.. لقد كانت تبحث عن بصيص من ضوء يذيب تلك الظلمة الحالكة الضارية عليها .. وأخيرا ينصاع الزوج للأمر الواقع حين يلح ابنه الصغير فى السؤال عن لحم الموسم .

أما « قصة قمر الليلة السابعة » فلعل العنوان ينبئنا بأن ثمة شىء لم تكتمل صورته فى ثنايا القصة .. ان هذا الشىء هو الطائر الصامت الذى ينطلق وسط الظلام حيث يطلق نداء غامضا يستغلق على ذهن البطلة .. ويرمز الكاتب بهذا الطائر الى ذلك الفنان الذى ينتقل من بلدة الى أخرى بلا متاع اللهم الا حقيبته المكدسة بالكتب التى يستلهم منها أعماله المسرحية التى يجرى وراء عرضها فى الأقاليم .. والكاتب هنا يرسم صورتين : صورة الزوج الذى لا يهمه سوى اشباع دوافعه الغريزية ، وصورة الفنان « شكرى » الذى يتردد على منزل « أم بديعة » حيث يشغل حجرتها بين حين وآخر وتنجذب « بديعة » الى شخصية شكرى رغم زواجها من « عبده » وانجابها طفلا .. كانت تعجب بصمته وزهده ووفائه لفنه لكن « شكرى » لم يكترث بها فقد كان مشغولا بفنه وكان مثل الطائر يحلق دائما ولا يهبط الى الأرض الا نادرا .. وفجأة تستيقظ « بديعة » من هذا الخدر الذى يستولى عليها على أثر مرض طفلها الذى كاد أن يموت .

فى ضوء مما سبق يتبين لنا أن « عز الدين نجيب » انما يبدع فنه عن طريق التفكير بالصور التى توحى رموزها بالأجواء الغامضة التى تحول ـ فى بعض الأحيان ـ دون رؤية البطل لملامح الأشياء ، الأمر الذى يجعله يتعثر ويتخبط ويسقط فى النهاية سقطته التراجيدية .. وهذا ما توعز به قصة « الكنز » حيث نجد « حسنى » ينهال بالفأس على جدار بيته بحثا عن الثروة التى أخفاها والده فى مكان مجهول قبل موته .. وقد ظل يضرب بفأسه بلا وعى بطريقة عشوائية حتى أصيب بالهوس والخبل حين ضل الطريق وعجز عن ابصار الهدف ..

وفى قصته « صمت النخيل » نجد « رشدى » يلقى بنفسه الى التهلكة حتى يسطو على « حجة البيت » التى كانت فى حوزة الحاج شعبان ، فقد باع والده اليه البيت فى مقابل مبلغ يشترى به جهازا لابنته سعدية .. لقد أراد رشدى أن يثأر لوالده الذى أصيب بالشلل فى اعقاب بيع البيت ، فداهم الحاج شعبان وسدد اليه طعنة بمطواه ثم ولى الأدبار حاملا « الحجة » الى أبيه .. لكن سرعان ما يصدم رشدى حيث يجد أباه يعرض عنه ويرشد العمدة الى مخبئه ، وواضح أن الكاتب هنا يريد أن يؤكد مصير الذى تردى فيه البطل كان نتيجة اختلال رؤيته وعدم تقديره لطبيعة الموقف .. كذلك يمكن أن تنسحب هذه الدلالة على

قصص « السقوط والمستنقع » و « قمر الليلة السابعة » حيث نجد الشخوص هنا تتعرض لعمليات التدمير بسبب ما تعانيه من طمس الحواس وعدم تميز الأشياء ·· لكن الكاتب ـ الى جانب ذلك ـ يسوق الينا بعض القصص التى تشع بالضوء والنصوع فهو هنا لا يتردد فى انصاف شخوصه طالما كان فى مقدورها أن تعى واقعها ، وتبصر ملامح الأشياء فى عالمها الخاص ·· وهذا يمكن أن ينطبق على قصص « المثلث الفيروزى والقطار » و « أم شوقى » ورغم هذه المزايا التى تتسم بها مجموعة : « المثلث الفيروزى » ، فانه لا يفوتنا أن نشير الى بعض الهنات التى نأخذها على الكاتب ·· فقد لاحظنا أنه ينزع ـ أحيانا الى التحقيق فى جو رومانسى ينأى به عن الصدق ويبعده عن منطلق الاقناع ، ويمكن أن نتمثل ذلك فى موقف بديعة وشكرى من ناحية ، وموقف الأم من ناحية أخرى ·

فى قصة « قمر الليلة السابعة » رأينا (بديعة) تحلم بشخصية ذلك الفنان الذى لا يحس بوجودها والذى كان دائما على سفر ، وهى تغالى فى أحلامها وتهويماتها الى درجة التهافت والاسفاف ···· ومن عجب أن الأم تدفعها الى ذلك وتهيىء لها الفرصة للقاء بشكرى ، بل نجدها تخلى الحجرة طول غيابه وترفض أن يشغلها غيره . رغم ضيق ذات اليد كذلك لم يستطع عز الدين أن يقنعنا فى قصة (صمت النخيل) بموقف الأب الذى يرشده العمدة الى مخبأ ابنه ـ دون أدنى تردد رغم أنه ضحى بنفسه من أجله ·· ونجد نفس العيب فى قصة (القطار) ··

فالبطلة نحب البطل ثم فجأة ترفضه لأسباب واهية ·· وينطبق ذلك على قصة (المستنقع) التى تنطق بروح الافتعال فنجد (درية) تقع فى نفس المصير الذى لقيته زميلتها « نجلاء » رغم تحذير الأخيرة لها من شخصية مراد ···

والحق أن هذه العيوب كان أثرها واضحا فى طبيعة التشكيل عند كاتبنا ·· فهذا اللوحات التى ساقها الينا فى ثنايا قصصه هى أبعد ما تكون عن اللوحات الفذة الفريدة التى ترسخ فى الأذهان··فنحن سرعان ما نغفلها بمجرد أن ننتهى من الاطلاع عليها ·· ان تأثيرها فيزول بزوال المؤثر ·· لكنها مع ذلك ، لا تخلو من الجمال ·· الجمال الذى برق وميضه ثم يختفى فجأة · ومهما يكن من أمر فلا يسعنا فى النهاية الا أن نسجل تقديرنا لموهبة عز الدين نجيب فى عالم القصة ·

وحين ننتقل الى كاتب « فوستوك يصل الى القمر » للكاتب مجيد طوبيا لكى أتناوله بالبحث والدرس والتقييم ، سرعان ما تثير انتباهى

تلك الطريقة الفذة التى يعالج بها الكاتب مادته الفنية ٠٠ فمن الحقيقة والوهم ، ومن الواقع والحلم ، ومن الشعور واللا شعور ، ومن خلال هذه التكوينـات الثنائية المتناقضـة ، تنثال المادة الفنيـة ، وتأخذ تشكيلها وصياغتها التى تعبر عن عالم « مجيد طوبيا » الذى يشع بالصور والألوان والأفكار ٠٠ ولعل أبرز ما يميز هذا العالم هو ذلك الخيال الذى يلوذ به الانسان حين يضيق ذرعا بالحياة ، وحين تصطدم آماله ورغباته بصلابة الواقع ، فلا يقوى على مواجهة صدوده وعوائقه ، حينئذ لا يجد عزاء الا فى التحليق والارتفاع فوق المحسوس ، ومن ثم نجد البطل يعانى دائما من الصراع بين ما ينبغى أن يكون وبين ما هو كائن ٠٠ ومن خلال الصراع الذى ينشـب بين المثال والواقع يتولد الاحسـاس الدرامى عند مجيد طوبيا ٠٠ فالبطل ينقسم على نفسه ، وينشطر الى شطرين منفصـلين ، وبذلك تزدوج الشـخصية وتتشـعب حركتها فى ضوء خطين متوازيين يناقض كل منها الآخر ٠٠ ويكاد هذا التصور أن يطغى على أغلب قصص المجموعة ٠ فهذا السائق يتخذ من سيارة النقل التى يقودها ، وسيلة للفرار من عالمه الملىء بالصخب والضوضاء ٠٠ انه ينظر اليها على أنها « فوستوك » ٠

الذى سوف يقوم بنقله الى القمر حيث السكون والهدوء ٠٠ فهو يعانى من ذلك الصراخ ذلك الذى يتسـلط عليه فى كل مكان ٠٠ فهو بمثابة الوحش الذى كان يطارده أينما كان ٠٠ ففى الطريق يصطدم بهذا الوحش الذى يملأ الدنيا صياحا وضجيجا ٠٠ وفى البيت يجده ماثلا فى أصوات المطارق التى تنبعث من ورشة الحديد ، وعجلات القطارات التى لا تتوقف ، وأبنائه وزوجته الذين يعلون بأصواتهم حتى يسمع كل منهم الآخر ويسرح « السائق » بخياله فى عالمه البعيد الذى ينشده ، ويختلط حلمه بالواقع وعنـد ذاك تهتـز الأشياء أمامه ، وترتبك رؤيته فيختل توازنه وينقلب بالسيارة ٠٠ وحين ساد الهدوء المكان ، خيل اليه أنه قد حقق حلمه وأنه يعيش فوق القمر ، ولم يكن يعلم أنه قد أصيب وأنه موجود بالمستشفى ، وفى قصة « الوجه الآخر » نجد البطل أمام المرآه مسـددا ناظريه الى وجهه الذى يفصح عما يدور فى واقعه من أحداث وفواجع ٠٠

فهناك أنباء تتواتر اليه عن احتمال نشوب حرب ذرية عالمية ، وهناك اعصار يجتاح استراليا ، وهناك تفجير قنبلة ذرية تحت الأرض ٠ وحين لم يستطع أن يهدىء من روعه ، رأيناه يلجأ الى المرآه لكى يستنبط من خلالها الوجه الآخر لعالمه الواقعى ٠٠

وجه الأنبياء الذى ترتسـم على صفحته امارات الطمأنينة والأمن

والسلام ٠٠ وينبثق ذلك الوجه السماوى من خلال سطح المرآة اللامع ، ويتحرك متجها الى الطريق ، ملتقيا بأفراده من الناس ، مبشرا بالحب والخير والوئام ٠٠ ويتأثر خطوه جمع غفير لكن هذا الجمع يتقاعس فى منتصف الطريق فلا يقوى على السير خلفه حتى النهاية فقد أحس بالارهاق والجوع والضياع ٠٠

وحين ينتهى ذلك النبى من جولته فى ربوع الأرض يعود أدراجه الى حيث بدأ فيبتلعه ذلك السطح اللامع وفى ذلك الوقت يستيقظ البطل من غفلته حيث تصطدم حواسه من جديد ، بضجيج الحياة الذى لا ينتهى وعلى هذا نجد أن الكاتب يريد أن يؤكد لنا أن الحلم انما يمثل ضرورة نفسية ومعنوية نحتاج اليها حين نحس بذالك التصدع الذى ينتاب عالمنا بين حين وآخر فمن يفقد أحلامه يفقد خصوبته وحيويته يصبح عقيما مجدبا ٠

وتعتبر قصة « الرصيد » أصدق تعبير عن هذه الدلالة حيث نجد البطل هنا قد استحال الى كتلة من جماد ، فهو لا يحس ولا ينفعل ، ومن ثم نجد رصيده فى البنك يتناقص يوما بعد يوم ٠٠٠ رغم انه أشد ما يكون حرصا على أمواله فهو لا يركب الاتوبيس خشية أن يتعرض للسرقة وهو يعزف عن أصدقائه لانهم يريدون أن يشاركهم الاحتفال بليلة الميلاد ، الأمر الذى جعله ينتهى الى الافلاس والى سخرية الأخرين منه ٠

أما قصة « أشجار الدخان » فهى تنبئنا بشخصية (ماتسودا) الفلاح اليابانى الذى لا يعيش الا على ذلك الحلم الذى يود أن يحققه ٠٠ فهو يحلم بأن يسود العالم السلام والطمأنينة ، وهو يحب الأرض والانسان والطيور ٠٠ ويحب على الأخص الحمام ويكره العقارب ٠٠ كما يكره فى الناس من يصيد الحمام ٠٠ لكن حلمه سرعان ما يتبدد حين ينبئه الواقع بالطائرة الأمريكية التى تضرب « هاواى » بقنابل النابالم ، وبالغواصة الذرية الأمريكية التى تزور موانىء اليابان ٠٠ الآن لا يستطيع أن يطفىء شجرة الدخان التى تلح صورتها على ذهنه دائما ٠

انها تلك الشجرة التى تمثل حرق ربع مليون انسان في «هيروشيما» ٠٠ ويصطدم الماضى بالحاضر فى نفس « ماتسودا » الماضى وما يحمله من صور مفجعة والحاضر وما ينذر به من تهديد وتدمير وعندئذ يجاهد « ماتسودا » من أجل الأطفال شجرة الدخان ومن ثم لم يجد بدا من أن يزرع ثمن « جهاز » ابنته الى جريدة أمريكية كى تذيع على العالم تحذيره الشديد من ذلك الشر الذى يحدق بالبشرية وكاد أن يودى بها ٠

فوق ذلك نجد « طوبيا » يسلط الأضواء على تلك القوة الخفية التى تسيطر علينا ، وتجبرنا فى أغلب الأحيـان ـ على أن نكون مسيرين فيما نأتيه من افعال وتصرفات انها القوة اللاشعورية التى يحاول الكاتب تكثيفها وابراز تأثيرها من خلال بعض القصص ٠٠

ففى قصة « الزمان والمكان » نجد ان البطلة وهى تعمل مدرسة تقف أمام التلميذات وهى فى حال من الشرود والسرحان ٠٠ فقد كانت غائبة عن وعيها تماما ، ذلك لانها لم تستطع أن تفلت من تلك الصورة التى تسلط عليها دائما ٠٠ انها صورة طفلها الذى تركته فى البيت وهو يئن من المرض ٠٠ القد تضخمت صورة الطفل أمام عينيها حتى جعلها لاترى شيئا سواها لكنها تستيقظ فجأة من تلك الحالة اللاشـعورية التى تعـانيها ، حتى تستدعيها الناظرة وتوبخها عن تأخيرهـا « كشف درجـات الفترة » ٠٠ وتبرز هذه الدلالة ايضا فى قصة « زفاف » فنجد « المعلم » يحتفل بذلك « الثور » الذى ينوى ان يذبحه ، فيجوب به الشوارع وقد استولى عليه الذهول ، فقد كان يفكر فى زوجته التى هربت من منزاله دون ادنى سبب فهو يذكر انه كان يغدق عليها العطاء وانه كان لا يرفض لها طلبا ، وحين اعياه التفكير راح يسقط احاسيسه على « النـور » حتى خيـل اليه انه الزوجة التى يجب أن يقتص منها ، وفجأة ينهال عليه ضربا وصفعا ٠٠ وتنم « قصة » الفأر الذى لم يمت عن مدى الاختلال الذى يصيب شخصية البطل حين يصبح مغلوبا على أمره ، كاظما غيظه أمام المدير الذى أهانه على الملأ ٠٠ فهو الآن يستعيد الموقف بجميع حذافيره ، محـاولا اعـادة صياغته وفقا لما ترتضيه نفسه ٠٠

لقد أراد أن يثأر لكرامته ولو عن طريق الوهم ٠٠ وبذلك أمكنه أن يحقق شيئا من التوازن بين عالمه الداخلى وعالمه الواقعى ٠

وتعبر قصة « فاتح الكوبرى » عن ذلك الضعف الذى يعترينا أحيانا فيقعدنا عن التمييز بين الصواب والخطأ ، الأمـر الذى يجعلنا نرتكب أخطاءنا رغم عنا ودون ارادتنا ٠٠ فقد انصاع عباس لأمر الضابط وفتح الكوبرى على الطلبة المتظاهرين فأغرق سبعة وخمسين طالبا ٠ لقد اهتز عباس لذلك الحادث المفجع الذى ظل يطفو فى منامه كل ليلة فقد كان يحلم بالشيخ رضوان وهو يتقمص شخصية القاضى ويحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص ٠٠ ويهب عباس من نومه مفزوعا صائحا بأنه كان «عبد المأمور » فقد أطاع الضابط حتى لا يتعرض للفصل ٠٠ لقد كانت عيون الاهالى تسدد اليه دائما وتكاد تنهشه نهشا ٠٠ وينطلق الى ذلك المقهى الذى تحتشده فيه الناس ويقف فوق مقعد صـارخا بأنه برىء ويظـل

يصرخ ويصرخ لكن دون جدوى فقد انفض الناس من حوله وصار وحيدا لا يسمع الا صدى حتى جن جنونه .

وفي قصة «اللحظة الطويلة» نلاحظ أن العنوان ينطبق تماما على المضمون .. فقد استطاع الكاتب أن يمط تلك اللحظة ويستخرج من جوفها السنين الطويلة التى قضتها خديجة مع زوجها «حسين» .. فقد ضاقت الدنيا بها ولم تجد عزاء الا فى صورة زوجها المعلقة على الجدار التى استحالت أمامها الى سيال من الذكريات يحمل اليها صور الماضى وأيام الصبا حيث كان زوجها يشملها بالحب والحنان لكن هذه اللحظة التى تفيض بالنشوة والأنس والامتاع لم تستمر طويلا فسرعان ما تذكرت موت زوجها فراحت تجهش بالبكاء .

واضح أن « مجيد طوبيا » يستعين فى تعبيره الفنى بأحدث الأساليب .. وكأنه بذلك يريد أن يقنعنا بأن الفن لابد أن يتميز بلغة خاصة ، تنأى عن الهبوط الى مستوى لغتنا الدارجة فهى لغة رامزة تقوم على التلميح والايحاء وتستهجن الاخبار عن الواقع بطريقة مباشرة وهذا ماتنطق به القصص المجموعة بحق .. فمن الضرورى أن نذكر أن كاتبنا قد يروق له فى بعض الأحيان أن يعبر عن قصصه بالطريقة السريالية .. لهذا نجده لايرتبط بمنطق الواقع وانما يحطم تلك العلاقات المنطقية لكى يبتكر شكلا جديدا .. فهو مثلا ، يخلق ازدواجا فى الشخصية الواحدة حتى تبدو أمامنا وكأنها قد انقسمت الى شخصيتين متناقضتين .. تلتصق احداها بالواقع وتلتزم بحرفية قوانينه ، وترتفع الأخرى الى ما فوق الواقع محلقة على جناح من الخيال وكأنها تنتمى الى عالم المثال الذى نفتقده فى حياتنا .. وتعتبر «فوستوك يصل الى القمر » ، و «الوجه الآخر» و «أشهر رسائل الحب» و «اللحظة الطويلة» أصدق تعبير عن ذلك .. وقد يميل مجيد طوبيا الى التحرير الذهنى فى بعض قصصه حتى تبدو وكأنها ترجمة دقيقة لما يجول فى ذهنه من أفكار ملحة لايجد منها مخلصا .. فالقصة هنا لاتخرج عن كونها فكرة مجردة قد نسج الكاتب خيوطها حتى صارت شكلا فنيا .. ويهمنا أن نذكر أن أفكار مجيد طوبيا غالبا ماتطغى على جميع مقوماته الفنية .. فلا غرابة اذا رأينا هذه النزعة الذهنية تسود أغلب أعماله .. بل تبدو وكأنها السمة الرئيسية التى تتميز بها هذه الأعمال وقد يلوح لى أن كاتبنا انما يقف من عالمه الفنى موقف العالم .. الذى يلقى فروضه على الطبيعة لكى يختبر مدى صدقها .. فقد ينجح أحد الفروض فى تفسير بعض الظواهر وعند ذاك نصل الى النتيجة التى يصبو اليها وقد نتعرض لذلك نتيجة اعتمادنا على فرض خاطىء قد عجز عن التنبؤ

بحقيقة الواقع وقد يجانبنا الصواب حين ننحرف فى عملية تطبيق الفروض على الواقع ٠٠

وذلك ما حدث تماما بالنسبة لبعض أعمال مجيد طوبيا ٠٠ فقد افترض باديء ذى بدء أن ثمة علاقة تربط ما بين الواقع والخيال ، وما بين الوهم والحقيقة ٠٠ لكنه لم يلتزم بحرفيةهذا الافتراض حين أراد تطبيقه على عالمه الفنى ، فواضح أنه قد أخفق فى السيطرة على ذلك الرباط الذى يؤلف بين النقيضين ويوحد شملهما فى كل محكم متماسك ٠

فقد سار الخيال والواقع أمامنا فى خطين متوازيين لايلتقيان ، فهما لايختلطان ، ولا يتفاعلان ذلك لانهما قد تحررا من أية علاقة تجمع بينهما ٠ ذلك نلمسه بوضوح فى قصة «الوجه الآخر» حيث نجد الشخصية تنقسم أمامنا الى شخصيتين منفصلتين ٠٠ احداهما تمثل الواقع على طول الخط ، والأخرى تمثل الخيال على نمط واحد ٠٠ ولاشك أن هذا العيب الفنى قد انعكست آثاره بوضوح على مجرى سياق القصة، ونلمس ذلك فيما ندركه من تخلخل ، وتقطيع ، وبطء ، ورتابة ٠٠ وينسحب ذلك على قصة «الرصيف» فقد قدم الينا نمطا انسانيا لا يمكن أن يتحقق فى عالم الفن ، فقد تعمد هنا أن يجرد الشخصية من الحلم والخيال والانفعال حتى بدت متحجرة وكأنها قطعة من جماد ٠٠ فهى لاتهتز أمام الأحداث الخارجية فلاتصدر عنها ردود أو استجابات دائما فى حالة سلب مستمر ٠٠ والحق أن شخصية على هذا النحو لايمكن أن توجد فى عالمنا ٠٠ فالانسان دائما ينفعل بالأشياء ويؤثر فيها ويتأثر بها ٠ ومهمة الكاتب هنا تتمثل فى قدرته على أن يلقف من مجرى الواقع تلك المؤثرات التى يقوم بتكثيفها وتشكيلها تشكيلا فنيا ٠

وبعد فقد منحنا «مجيد طوبيا» من خلال كتاب «فوستوك يصل الى القمر» رؤية جديدة ننفذ بها الى جوهر الأشياء فنكشف فى ضوئها عما يدور فى جوف الواقع من أسرار وظواهر وأحداث ٠٠



عالم محمد كمال محمد

٠٠ فى القصة القصيرة

ربما كان من الضرورى لكى نفهم أديبنا محمد كمال محمد ونفهم عالمه الأدبى الذى يقدمه لنا من خلال كتابه « الاصبع والزناد » أن نركز الضوء على طبيعة جدله الدرامى الذى يتألف من عدة عناصر ـ منها عنصر المرأة ، وعنصر الاحســاس بالطفولة وأخيرا عنصر الاحســاس بالاهانة والانهاك الشديد ٠

فمن خلال هذه العناصر تتولد عمليات البناء والتشكيل فى دنيا القصة عند محمد كمال محمد ٠

وجدير بالذكر أنه ينحت شخوصه من صميم واقع يمتاز بالخشونة والحدة والحساسية ٠٠ ذلك الواقع الذى يجعله ـ بحاسته الفنية ـ الى خيوط متشابكة معقدة لا تخلو من نفحات رومانسية حالمة ، تثلج الصدور المقروحة ، وتروح عن النفوس المكدودة ٠٠ ففى عالمه قد نحس قيظ الحياة وسعيرها ، وقد تلفحنا هبوة عليلة نستروح نسماتها ٠٠ فمثلا حين ننظر الى قصة « الاصبع والزناد » ـ وهى أولى قصص الكتاب الذى يحمل هذا العنوان ـ نستطيع أن نفطن الى طبيعة الأنثى عند الكاتب ٠٠ وكيف تتشكل بأشكال مختلفة ومن ثم فهو هنا يعرض شخصية «فكرية» زوجة توفيق ويكشف النقاب عن دورها المأساوى فى حياة توفيق وكيف أنها أس نكبته ، فقد كانت قادرة على تحويله الى انسان أشبه بالآلة الصماء ـ فهو يطيعهـا ولا يعصى لها أمرا ويخضع لأوامرها بطـريقة لا واعية ، فمثلا أرادت المصلحة التى يعمل بها ترقيته ونقله الى القاهرة ٠٠ فما كان منها الا أن وقفت أمام ترقيته ونقله بكل عناد وصلف ـ لقد فرضت عليه أن يتجمد ويتحجر فى بلدتها دمياط فلا يتزحزح عنها

ويظل متسمرا فى مكانه ·· ولم تقتنع بتقوقعه وانكماشه ، بل راحت تحرضه على تقديم استقالته حتى استجاب لها واستحال فى نظر الجميع الى انسان عاطل فاشل ضعيف ظل يتقلص ويتآكل شيئا فشيئا حتى تلاشى تمــاما ·· وقد راعنى أن ألاحظ محــاولة الكاتب فى تجســيده لأحاسيس الخيانة والكراهية والاحتقار··فرأينا كيف ضرب معاون المباحث « توفيق » من أجل فكرية ، وكيف تخيل ضيف توفيق ــ ذات ليلة ــ شخصية فكرية وهى قابضة على البندقية ذات الفوهة الواسعى وهى تتخفى وراء ثوبها المعلق لتصوبها الى رأس صديقه النائم وقد زحفت بأصبعها ذى الظفر العنابى نحو الزناد ·

لئن كان الكاتب قد صور شخصــية فكرية على هذا النحو فانه لا يريد أن يقول كل شيء عن المرأة فى هذا الشأن وانما كانت فكرية تمثل نصف الحقيقة ، أما النصف الآخر فهو الجانب المضىء من المرأة الممثل فى قصة « بلا هزيمة » فهنا نجد البطل يغرق فى حبه ويتحدى بالحب الكل والأهل والخلان ·· لقد أراد أن يسعد بحبه حتى لو كان منبوذا من أهله ·· كل جريرته انه أحب امرأة فقيرة كانت تأكل بجسدها فأنكروا عليه هذا الحب وأنكروا عليه الزواج منها ·· انظر الى حديثه لابن شقيقته الصبى الذى جاء الى خاله الصديق يريد أن يكتشف حقيقة هذه المرأة التى عشقها خاله ·· جاءه زائرا رغم معارضة أمه ووالده : « ان حبها أمدنى بطاقة كبيرة من القوة وحب النضال لأواجه الفقر الذى صنعوه لى بعدها قطعوا عنى كل عــون ·· صفحة ٨٢ » ·· ومن ثم فهذه المرأة جديرة بالحب ·· لأنها جعلته لا يشكو من ضيق ولا يشعر بحاجة الى الغير رغم راتبه الصغير ونفقات معيشته ·· وينتقل الكاتب الى تصوير جانب آخر من جوانب طبيعة المرأة فى قصة « ضوء الحياة » فهنا يحكى عن تجربة حب بين فتى يدعى « خليل » المثقف صاحب دكان البقالة وفتاة تسمى « بركسان » فلننظر ماذا حدث بينهما ·· لقد رفضت هذه الفتاة حب خليل الذى طال أمده ·· بمجرد أن رأت هــذا الشاب موظف البنك وحيد أمه وأبيه ·· أى بمجــرد ما التقت بشــاب واقعى يؤمن بقوانين الأشياء المحسوسة الملموسة المباشرة ·· ان واقعية الفتاة هنا انما تنسحب على جميع أفراد جنسها ·· ذلك ما يقصده الكاتب بالضبط ·· فجدير بالذكر أنه وضع شخصية المرأة فى موقف حرج للغاية ·· أى حين جعلها تختار شريك حياتها وتختار نوعية الحياة التى أرادتها مع شريكها ·· وهنا تبدو المرأة منسلخة عن كل المساحيق التى تخفى طبيعتها ·· تبدو عارية فتكشــف عن حقيقتهــا ، بلا رتوش أو زيف أو افتعال ومن ثم فلا غرابة اذا رأيتها تأخذ قرارا واقعيــا صرفا بعيــدا عن أية عواطف

أو خيالات ـ لقد اختارته الشاب الذى يعمل بعلم الحساب ، وينظر الى الأشياء نظرة أرقام وأعداد ٠٠ وهى فى ذلك لا تراعى الشخص الذى أحبها حبا جما ٠٠ الشخص المثقف الرهيف الحساسية الذى يتخيلها فى ذهنه ووجدانه كالملاك كالشعاع كالروح الطائر ٠٠ انها هنا تقيس حياتها قياسا نفعيا براجماتيا خلوا من أية عاطفة أو رومانسية فلا تخلط بين قوانين الواقع وشطحات الخيال ، وعلى هذا فهذه القصة أصدق تعبير عن واقعية المرأة وميلها لكل ما هو صرفى ونفعى ومباشر ٠٠ كما تكشف القصة عن رومانسية الرجل الذى كان يقطع الجبن بالسكين فى نفس الوقت الذى يقطع بنفس السكين ، صفحات كتاب أدبى يقرأه ٠٠ ويحلم فى حبه ويظل يحلم حتى بعد فشله فى ذلك الحب ٠

أما النصف الثالث من النساء فيتمثل عند أديبنا فى المرأة القابلة للتآكل والانسحاق ، فهى تتلقى ضربات الزمن القاسية دون مقاومة أو شكوى ٠٠ بل تجدها صاغرة مستسلمة ، لا تعصى أوامر القدر ٠٠ والعل قصة « بسيمة والمطر » أصدق مثال على ذلك ، فلنقرأ صفحة حياتها التى تنطق بما تعانيه بسيمة من آلام وأحزان ، فهى الآن تتحايل على المعايش بحرفة جديدة ٠٠ ففى البدء كانت تحمل القواديم والمناجل التى يصنعها زوجها الحداد فى مقطف على رأسها لتبيعها فى الأسواق المحيطة بالسنبلاوين بلدتها ٠٠ أما ابنها الذى أصبح يتكسب من الحلاقة للعيانين فى المستشفى ، فهو يتنكر لأمه ولا يعينها بشىء ، فحسبه أن « يلبس الغالى ويجرى وراء الممرضات بالحلوى والهدايا » ٠

وهى الآن جاءت الى مولد أبى المعاطى فى دمياط حاملة معها هذه اللوحة ـ الوحة الرماية المنصوبة وقد التف حولها جمع من الناس ٠٠ لكن على غير توقع بدأت الأمطار تسقط بغزارة لتغرق سكان المدينة وتغرق سوق المولد ٠٠ فلم يكن لبسيمة من حديث الا عن حظها العاثر وما كانت تأمل من كسب يعينها على الوفاء بدين أهل جارتها الذى استنفده ثمن البندقية واللوحة ونفقات الرحلة الى دمياط ٠٠ ان سقوط المطر قد زاد من كثافة الاحساس الدرامى فلم تكن تتوقع أن هطول المطر وانفضاض الناس من حولها سيضاعف من وحدتها وعزلتها وأحزانها ٠٠ ولم تكن تتوقع انها ستقع فريسة ينهشها ذلك العملاق صاحب الشارب الغليظ وحافظته المتخمة المتورمة بالنقود ٠٠ ومن ثم استطاع الكاتب أن يصور لنا امرأة ضائعة محبطة ، دون حول أو قوة ٠

أما العنصر الثانى فى تأليف الجدل الدرامى فيتمثل فى الاحساس بالطفولة ٠٠ فعالم الطفولة عند محمد كمال محمد هو عالم البراءة

والسماحة والعفوية ٠٠ ولعل قصة « شيء صغير » تحكى عن الحياة التلقائية السمحة التى تمارسها بطلة القصة وسيمة ٠٠ فهى صبية تعمل شغالة ٠٠ وتتمنى أن تهدى شقيقتها العقد الأحمر ذى المشبك المعدنى الذى اشترته لها وحفظته فى صرة ملابسها ٠٠ ان وسيمة تعد نفسها للسفر الى القاهرة بعد أن قضت مع مخدوميها أسبوعين برأس البر ٠٠ وما زالت تنهمك فى اعداد الحقائب حتى داعب النوم جفونها وراحت تحلم بما يجرى فى عالمها الواقعى من صور وأحداث ، فرأت فى المنام الصبية « انشاد » فجرى بينهما الحوار التالى حول الهدية وقيمتها ٠٠ تقول وسيمة لانشاد :

ـ اشتريت لأختى عقدا بعشرة قروش ٠٠ لكن انشاد تتعالى عليها قائلة :

ـ أنا اشتريت « النادر » أخى فى عيد ميلاده هدية بجنيهين ٠

وتتألم وسيمة لمدى الفارق بينهما ٠٠ وسرعان ما تعود الى يقظتها وتنهمك فى اعداد حقائب السفر ٠٠ وتتحرك العربة وفى أثناء الطريق تتوقف فجأة فقد سقطت حقيبة كبيرة تناثرت محتوياتها على الجانبين ٠٠ وانتفضت وسيمة مذعورة فقد اكتشفت ضياع « الصرة » التى تحمل فى جوفها العقد الأحمر ، ومن ثم انطلقت تفتش عنها فى عرض الطريق ، بعد أن استعاد مخدوماها أشياءهما وحقيبتهما ، الأمر الذى أغضب الجميع فراحوا يقذفونها ـ حتى السائق ـ بأقذع الشتائم والسباب ٠٠ وكان لضياع العقد وقع الصدمة على الصبية وسيمة ٠٠ فهى لم تعد تحلم ولن تعود الى عالمها الملىء بالخيالات والأمانى والأفراح مرة ثانية ٠٠ انها الآن تجهش بالبكاء حزنا على ضياع العقد الأحمر ٠٠ أى حزنا على ضياع أحلامها ودنياها ٠

أما العنصر الثالث فى الجدل الدرامى ٠٠ فهو يتمثل فى الاحساس بالهوان ٠٠ ولعل قصة « الاصبع والزناد » تجسد هذا المعنى ٠٠ فعلاقة فكرية بزوجها توفيق علاقة هدم واذلال ٠٠ فهى لم تكتف بأن تجعله لا يتزحزح ـ شأن بنات بلدتها دمياط ـ عن المدينة لكى لا تنتقل الى مكان آخر فجعلته فى حال من الجمود والتحجر ، بل دفعته الى منزالق الهوان والضياع فصار عاطلا فاشلا لضيق مجالات العمل الوظيفى بالمدينة ، وصار ينتظر قوت يومه بالوقوف أمام مصنع النسيج ـ لقبول أى عمل فيه ـ بلا فائدة ٠ وكم كان يعتصر اهانة واذلالا حين أعربت عن احتقارها له بأن أخذت تدوس بقدميها ملابسه المتسخة وتركلها بعيدا

لتخفيها عن عينيها دون أن تعمل على غسلها له ·· لقد كانت حتى تكره رائحة عرقه فى تلك الثياب !

وبعـد ·· فقد كنت أسأل نفسى مرارا : ما السر فى ضعف النتاج القصصي عندنا ؟ ولماذا يتخلف ولا يصعد الى مستوى النتاج الأوربى ؟ وكنت أتذرع بأسباب منطقية أحيانا وأسباب غير منطقية أحيانا أخرى ·· فأقول ربما كان السبب فى افتقار الأدباء الى الالمام بالتراث الأدبى الذى هو أضخم وأعظم تراث عرفته الأمم ·· وربما أوعز الضعف الى جهلهم بلغة أجنبية تتيح لهم الاطلاع على الآداب العالمية ·

والحق أنهم ضـعفاء لجهلهم بالتراث وجهلهم بالخبـرة الانسـانية العميقة ·

لكن أسعدنى أن أستثنى فى ذلك حفنة قليلة جـدا فهى أقل من القليل ·· من هذه الحفنة محمد كمال محمد الذى أثار فضولى بكتاباته ·· ودفعنى الى أن أسأله عن سر اختياره للنمـاذج البشرية التى تدور قصصه حولها ·· وعن فهمه للتراث واستيعابه لدقائق الألفاظ وسيطرته على أداة التعبير ·· ومنه عرفت أنه عاش منذ طفولته حياة حافلة بالتجارب الانسانية والأحداث التى كونته وشكلته ·· وانه كان لا يغادر « مكتبة البلدية » فى موطنه المنصورة طوال الاجازة الصيفية ·· ومنهـا كان يغترف ما أفاده فى عمليات التعبير والخلق ·

نقد قصص حرب أكتوبر

كلمات فى ضوء القصص الفائزة

تعتبر القصة القصيرة ، لونا من ألوان الفن الذى يمتاز بتكثيف جزئية من الجزئيات ، تنطوى على شحنة شعورية شديدة التركيز ٠٠ وواضح ان « الكاتب » يمهد من خلال سياقه لانفجار هذه « الشحنة الشعورية » ، وذلك حين يسقط البطل « سقطته التراجيدية » ، أى سقطته المأساوية دفعة واحدة ٠٠ ان الكاتب يفرز افرازاته الذهنية فيضفى على سياق القصة ، الشكل الفنى المحكم ، المتماسك فى وحدتيه الفنية والعضوية ٠

ومن هنا كانت « القصة القصيرة » أشبه بالقصيدة من ناحية التركيز ، والشحنة الانفعالية ٠

والكاتب أحمد أحمد ماضى قد فعل ذلك تماما فى قصته : «مأمورية»، فهو يلقف من « تجربة القتال مع اسرائيل » ، جزئية يتصاعد بها شعوريا ، حتى تصل الى حد « الانفجار الشعورى » ، حين يسقط البطل سقطته التراجيدية ، فيقتل ويصبح شهيدا عند ربه ٠

ففى قصة « مأمورية » للكاتب أحمد ماضى ، نلاحظ أن الضابط ابراهيم يصطحب الجندى بحراوى الذى يحمل معه « لفافة » وصندوقا خشبيا يحتوى جميع مهمات الضابط « هاشم » ، ليخبر أسرته بنبأ استشهاده ٠ وكان الشهيد « هاشم » له علاقة وثيقة بالضابط ابراهيم والجندى بحراوى : الأمر الذى جعلهما فى حال من الحزن والألم لفراقه الأبدى ، ورغم استغراق « بحراوى » فى حزنه الشديد ، الا أن ذهنه كان يطفو فوق السطح بين حين وآخر . مشغولا بشئون دنياه فهو مثلا يجد فى هذه المهمة فرصة لزيارة أهله قبل قيامه بمهمة « اختراق دفاعات

العدو من خلال الثغرة » وهو أيضا يحمل معه نقود الضابط الشهيد الذى دفعها له رغبة فى شراء بعض اللوحات التى تزين جدران غرفة الجلوس فى منزله ٠٠ ان الجندى « بحراوى » يرتقب من هذا الموقف العصيب ٠٠ فلولا حرصه على أن يوصل نقود الشهيد لأهله ، لرفض بلباقة مهمة توصيل بقايا وآثار الضابط الشهيد صديقه « هاشم » ٠٠ فقد أخذ يفكر فى المغزى الذى دفع هاشم الى زواجه منذ ثلاثة أشهر ، قبل أن يتهيأ مسكنه الخاص لاستقباله وكأنه تنبأ بالغيب ، وكم كان ذهوله حين قرأ خطابا مرسلا الى الضابط الشهيد يفيد بأن زوجته حامل ٠٠ الأمر الذى أثار دموع الجميع ٠

أما قصة رحلة الصقر للأديب الشاب محمد حسن الشرقاوى فقد كان فيها البطل الضابط الشهيد أحمد ٠٠ أكثر تلوينا وتنويعا من الوجهة الشعورية والانسانية ٠٠ فانظر اليه وهو يعاتب شقيقه الأصغر ، فيلف نفسه بالبطانية ، ويدهن وجهه من قاع الحلة النحاسية حتى يصبح فى شكل الأسد ، الأمر الذى يجعل شقيقه يهرع الى أمه مستغينا ٠٠ كان يتقمص أشكال العفاريت حتى يستنجد بأمه ٠٠ كل ذلك لكى يزيح من طريقه شقيقه حتى ينطلق الى الميدان « لقد أراد المقدم الضابط أحمد الشهيد أن ينتشل « محطة الرادار » التى سقطت فى حفرة ، فعندما كان يحاول جرها بمدرعة ، أصابته دانة مباشرة ، فاستقرت الشظية فى كبده ٠

وتأتى القصة الثالثة للكاتب عبد العزيز الشناوى وهى « الراية البيضاء » ، وقد حازت على الجائزة ، الثالثة ٠٠ انها لقطة مكثفة ، أمكن للأديب عبد العزيز الشناوى أن يلقفها من تجـربة الحرب مع اسرائيل ويستنبط من هذه اللقطة كل التخريجات البطولية والانسانية ٠٠ وقد استطاع « من هذه اللقطة » أن يستقطر منها كل القطرات الدرامية التى جمعها داخل شكل محكم متماسك ٠

أنها قصة الملازم الشاب وجنوده البواسل ٠٠ الجنود ذوى الصدور المقروحة من الغيظ والكبت ٠٠ انهم يريدون أن يدمروا « الموقع » بكل من فيه من جنود الأعداء ، لكن الملازم الشاب لا يريد أن يقتل أعداءه وانما يريد أن ينفذ التعليمات بأن يأسرهم جميعا أحياء ٠

وهنـا يكشف الجنود فى همسـاتهم عن قبح الاسرائيليين ، ومدى ما يتميزون به من جبن وخساسة ٠ فيقول الجندى صلاح : « حشرونا فى حجرات ضـيقة مظلمة ٠٠ افتـرس العطش والاختنـاق الكثير من جنودنا ٠٠ » ويردد قائلا : « ذات يوم صـحبنى (الجلاد) الى احـدى

المدارس .. التف الأطفال حوله .. كما يفعلون عند زيارتهم لحديقة الحيوان .. هتف (الجلاد) : ها هو العربى الذى قام ليحاربكم .. يقتلكم .. ابتسم (الجلاد) ومد يده بعلبة السجائر نحوى .. وعندما امتدت يدى نحوه صفعنى على وجهى .. صلصلت ضحكات الاطفال ، الأمر الذى جعل « صلاح » يتميز غيظا .. ثم وجه كلامه للملازم الشاب : « لماذا لا نطلق النار عليهم ؟ » .. قال الملازم الشاب : « لقد استسلموا .. ألم تر الراية البيضاء .. » قال الجندى حمدى فى غيظ وحسرة : « ان شقيقى ظل يطلق قذائف مدفعه حتى نفذت ذخيرته ثم استسلم ، أراد أن يكون أسيرا ، لكنهم أطلقوا عليه الرصاص .. كانوا يقتلون الأطفال فى (بحر البقر) ، والعمال فى أبى زعبل .. يطلقون النار على الطائرات المدنية .. « يختطفون زعماء المقاومة الفلسطينية .. أين يدهم الطولى .. ؟ » .

ذلك هو الوجه القبيح الذميم للعدو .. ان هذا الوجه القبيح يناقضه الوجه الانسانى الذى يعبر عن حسن معاملة الجنود الاسرائيليين .. فانظر الى الملازم الشاب وهو يصر على أخذ هؤلاء المهزومين كأسرى أحياء ، وانظر الى أحد الجنود المقهورة وهو يركع وقبل قدمى الجندى المصرى فتدفعه انسانيته الى أن يناوله « زمزميته ليشفى غليله ويرتوى من شدة العطش » .

وتأتى قصة « قرن فلفل » للأديب (مفيد جمعة) وهى تصور طبيعة الحياة السمحة الكريمة لأسرتين مصريتين .. فها هما مصريان صميمان أحدهما مصرى مسلم ويسمى « ضو » ، والآخر مصرى يهودى اسمه « ليون » .. يعيشان معا فى بيت واحد ، لهما أبوان متنافران فى الطبع والمزاج والعمل .. ولهما والدتان مختلفتان فى طبائعهما وتكوينهما ، لكن كل هذا التنافر ، وكل هذا الاختلاف لا يحول دون صداقتهم ومودتهم ، واحتساء القهوة معا أثناء حديثهم الحلو الشجى .

لقد ولد « ضو » فى اليوم الذى ولد فيه « ليون » يتحلب من ثدى « تريزه » وقت الرضاعة ، وكان « ليون » يتحلب من ثدى « نفوسة » حين يشعر بالجوع ، وكان الخواجة « شحاتة » الذى يعمل محصلا لشركة النور يصطحب فى أغلب الليالى صديقه « العلاف » الذى يرتدى الجلباب الصعيدى ، فيسهران سويا ، اما فى خمارة أو فى مشاهدة فيلم سينمائى، الأمر الذى أغضب زوجة العلاف ، فتصب جام غضبها على « تريزة » متهمة زوجها بأنه يفسد رجلها ويبدد أمواله فى الخمر والسهر والعربدة .

أما الشابان « ضـو » و « ليـون » فكانا أشبه بصديقين حبيبين حميمين ، وقد توطدت علاقتهما ، وزادت توثقا ورسوخا مع مرور الأيام ، وخصوصا أيام المراهقة ٠

وجاءت حرب ١٩٤٨ ، ودب الغضب فى نفوس المصريين حين بقر اليهود بطون النساء العرب فى فلسطين ٠ وجاءت حرب ١٩٥٦ حين تعرض المصريون للعدوان الثلاثى الذى نهش أسطول طيرانهم وشتت جيوشهم : مما جعل اليهود المصريين يتعرضون للحرج الشديد وكان « ليون » يتحاشى مقابلة صديقه « ضو » : ويتجنب الحديث معه حتى بلغت العلاقة المشدودة بينهما الى حد القطيعة لكنـه أدرك فى النهاية ، أنه مخطىء فى ظنـونه وتصوراته ، وان صديقه « ضو » ما زال يحمل له كل حب ومودة : فعاد له واطمأن اليه ، وراح يتأبط ذراعه فى ذهابه وايابه محتميا به من أولاد البلد الذين كانوا يتحرشون باليهود فى ذلك الوقت ٠٠ وذات يوم أراد « ليون » أن يسرى عن صديق طفولته فاقترح عليه أن يتنزها معا فى صحبة فتاتين يهوديتين جميلتين ٠٠ ودفعتهما الرغبة المشبوبة للقاء ٠٠ وكانا يحسبان الأيام وهما على أحر من الجمر ٠٠ لكن « ليون » أخبـر صديقه بأنه يلزمهما خمسة جنيهات للصرف على هذه النزهة ٠٠ وقال انه يملك جنيهين ونصفا ، وان على صديقه أن يدبر مثلهما هو الآخر حتى يتكامل المبلغ المطلوب ٠٠ فراح « ضو » يعصر تفكيره ، ويبحث عن حيلة للحصول على هذا المبلغ ، وما زال يشغل نفسه بذلك حتى اهتدى الى سرقة السلسلة الذهبية التى يتدلى منها قرن فلفل أحمر من العقيق ، كانت والدته لا تكترث بها ، لانها كانت ملكا لضرتها المطلقة ٠٠ وذهبا معا الى ذلك الرجل اليهودى العجوز ، صاحب محل الرهونات وقدما له السلسلة الذهبية بقرنها الأحمر ٠٠ فمنحهما المبلغ شريطة أن يسدداه فى موعد محدد ٠٠ انطلق الصديقان يمرحان ويلهوان وبصحبتهما الفتاتان اليهوديتان الجميلتان ٠٠ وقضيا معهما وقتا ممتعا فى مريوط ٠

لكن « ضو » حاول جاهدا أن يسدد ما عليه : لكن كل محاولاته كانت عبثا ، فاقترح عليه « ليون » أن يحصل على السلسلة فى مقابل أن يعطيه المبلغ على دفعات ٠

وجاءت حرب ١٩٦٧ ، وأعقب ذلك ، ترحيل اليهود عن مصر ، ورأى « ضو » صديقه « ليون » وأسرته تضمهم عربة البوليس للتحقيق معهم وترحيلهم عن مصر ٠٠ وعاشت مصر سنين عجافا فى ظل الهزيمة ، ثم دق ناقوس الحرب ، فكان « ضو » أحد المقاتلين فى حرب العبور ، القد

قذف بصاروخ أصاب الدبابة التى انفجرت ، وهرع أحد أفرادها يلتمس النجاة ، شاهرا سلاحه فى وجه « ضو » ضاغطا على زناد مدفعه لكنه لم ينطلق ، الأمر الذى جعل المقاتل المصرى يقذف الصاروخ ويلطمه به على وجهه ، فتنفجر منه الدماء ويتمايل كالسكران وأراد أن يجهز عليه تماما ، وفجأة تقلصت أصابعه • فقد لمح حول رقبته سلسلة من الذهب ، معلقا بها قرن فلفل أحمر من العقيق ، وأخذ يتمتم كالفحيح : «ضو••ضو••!»•

وهنا وقف المقاتل المصرى كالتمثال ، مشدوها الهول الصدفة ، وانثالت فى ذهنه الذكريات ، ملاحظا نظرات الاستجداء التى تنطلق فى عينى « ليون » ، بألا ينفذ فيه قانون الحرب : « اقتل قبل أن تقتل » •

وبعد فقد استطاع الأديب « مفيد جمعة » هنا أن يتصاعد بهذه الجزئية الى أقصى أبعاد الانسانية •• استطاع أن يستقطر منها قطرات وجدانية ، وانسانية ، وحضارية ، فضلا عن الحس الدرامى المتمثل فى هذه الشحنة الشعورية المركزة التى انفجرت من خلال هذا الموقف المفاجىء غير المتوقع •

ولئن كانت هذه القصة قد انتهت بهذه « الفرقعة » التى أضاءت على القارىء عملية تحديد الاحساس الدرامى الذى يفسح للتلقى صورا درامية جديدة ، والتى كان فى مقدور « أديبنا » أن يستوحيها من صميم تجربة الحرب ، الا انه آثر أن تختزل ، ويقتضب فى أسلوبه فى النهاية وهو أشبه بالانفجار المباغت • أسلوب أشبه بالصدمة التى تنبعث من انفجار لغم •

وعلى أى حال فهى قصة رائعة تنتزع منا كل تقدير •

فى ضوء ما سبق ، يتبين لنا ان أغلب القصص التى عرضنا لها ، وخصوصا القصتان اللتان فازتا بالجائزة الأولى والجائزة الثانية ، سقط البطل فيهما ، « السقطة التراجيدية » •• صحيح أن الشهداء « عند ربهم يرزقون » ، وصحيح أن البذل والتضحية بحياة البطل ، ومدى احتماله لسعير الحرب : ومكابدة الصعاب والمشاق من أجل بلوغ الهدف : لو أنه استطاع أن يستلهم « معنى كثافة وجود البطل » •• بمعنى أن وجوده لابد أن يستمد من هذا « الكوجيتو » : (أنا أفعل اذن أنا موجود » أقصد هنا أفعالا بطولية ــ فيسجل كيف قهر المقاتل المصرى « المانع المائى » وذلك بعبور القناة فى وقت وجيز جدا هو ومعداته الثقيلة وكيف حطم « الساتر الترابى » بمدافعه المائية (التى اخترعها لأول مرة فى تاريخ الحروب) وكيف التحم مع عدوه بالسلاح الأبيض ، وجها لوجه ، وكيف

حطم أسطورة اسرائيل الوهمية التى مؤداها : « بأن الجيش الاسرائيلى لا يقهر » لو انه استلهم من ذلك كله قصة لكان ابداعه فذا فريدا عظيما ٠

لكننى ألاحظ ان كتاباته هنا ، خلو من هذه الصور الكثيفة ، ذلك لانه آثر أن يستعين فى تعبيره بأسلوب الاختزال والايجاز ، والاقتضاب ، الضغط الشديد الى درجة التخلص من البطل عن طريق الاستشهاد ٠

فن النحت المعاصر

موسيقية التصوير

عبد الحميد حمدى

مصطفى عبد المعطى

فى النحت المصرى المعاصر
عند عبد الحميد حمدى

يحضرنى قول مارسيل بروست ، اذ يقول « أنه ينبغى أن ندين بالفضل لآثار الفن ٠٠ فعن طريق هذه الآثار تتجدد الحياة ، وتزداد حيوية ، فبدلا من أن نرى عالما واحدا هو عالمنا الحاضر ٠٠ نرى ذلك العالم يتضاعف ويتكاثر بحيث يصبح مجموعة من العوالم تتساوى ومجموع الفنانين ذوى الأصالة والروعة ٠٠ هؤلاء الذين يرسلون شعاعهم الخاص يوما بعد يوم » ٠ ولئن كان فى مقدور الفنان أن يهبنا عالما جديدا فريدا بين حين وآخر ، الا انه مع هذا ، لا يستطيع أن ينسلخ عن عالمه الذى يعيش فيه ، والذى يفرض عليه بعض الضروريات اللازمة له فى الحياة ٠٠

ومن هنا نرى أنه فى حال من التوزيع والتشتيت بين دوافع الفن من ناحية ، ودوافع الحياة من ناحية أخرى ٠ فلا غرابة أن يقول « أوسكار وايلد » فى هذا الشأن : « ان كل ما يريحنا من أجل الحياة ، نفقده من أجل الفن » ، ويقول « أندريه جيد » : « ما دام الانسان مشغولا بالحياة ، فانه لا يجد وقتا للكتابة والابداع ٠٠ » والمثال عبد الحميد حمدى تنطبق عليه هـذه المقدمة التى عرضنا لها ٠٠ فهو مشغول برسالة الفن التى يعتبرها رسالة وطنية مقدسة ، ومن ثم ، نراه يعتصر من قلبه الرحيق ، وينحت بيده روح بلاده ، وهو فوق ذلك ، مشغول بأسباب الحياة ، فهو مسئول عن الهيئة العامة للفنون والآداب التى يرأس ادارتها ، وهو أستاذ غير متفرغ فى كلية الفنون الجميلة ٠٠ ومع هذا ، نراه يتفوق على نفسه ويطفو فوق كل هذه الظروف حين يتبين لنا مدى اصراره وعناده على مواصلة الطريق ، وتأدية رسالته فى دنيا الفن والنحت ٠

فهو يوظف ابداعه فى عملية تجسيد الرجل العادى ، وتكثيف ملامح

الفلاحة المصرية ، والشيخ المعمر الذى ينطق وجهه بآثار الزمن ، وبورتريه الفتاة الافريقية ، والشخصية السياسية ، والقائد الشهير ، والفيلسوف العربى ، وأمير الشعراء ، ورءوس الفتيان التى توحى بالحب والبراءة والصفاء ، وبكل النصر والعبور ، وبورتريه سيدة مصر الأولى ، وغيرها من شخصيات مصرية وافريقية ، ويابانية ، وتشيكية ، قد بلغت نحو ثلاثين تمثالا ، قد صيغت ونسقت فى نظام جميل ، فى قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك ·

ويمكن أن نستخلص من هذا النسق الممتع رؤية متنوعة متجانسة ، متكاملة ، تضم آثارا من التراث العربى والافريقى ، وآثارا مصرية صميمة تومىء الى أصحابها الذين لعبوا دورا فى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ·

ويمكن القول بأن الدافع الحقيقى الذى يكمن وراء هذا المعرض ، هو ايمان المثال البارع عبد الحميد حمدى بأنه ينبغى أن ينطق صخور مصر بما أفاضته عليها من روح ماضيها العريق ، وحاضرها المأمول ·

تبدأ رحلة عبد الحميد حمدى مع الفن حين وضع أول تمثال له منذ عام ١٩٦٣ ، وأقام أول مرسم له عام ١٩٣٨ ثم تبعه لمرسمه الثانى عام ١٩٤١ ·

وما أن ينتهى من دراسته فى كلية الفنون فى بعثة فنية متخصصا فى النحت ·· ويلتحق باستوديو الفنان الشهير بول لاندوفسكى ، ويحوز على ميدالية صالون الفنانين الفرنسيين بعد أن يضع تمثاله البرونزى : (مصر المستقلة) ·

يهمنا الآن أن نلقى مزيدا من الضوء على طبيعة الآثار الفنية التى يضمها معرض المثال الكبير عبد الحميد حمدى فنحاول أن نكشف عن الخصائص الفريدة للتماثيل التى تبلغ ثلاثين قطعة فنية ·· كما نحاول أن نستبطن ما يكمن فى جوفها من أسرار وخفايا ·

واضح أن المثال عبد الحميد حمدى يتخذ من تجسيد المنظور محورا لفنه ، وبمعنى أخص نجده يهتم بفن « البورتريه » بالدرجة الأولى · فمن المؤكد أنه ينظر الى التمثال الشخصى ، أو فن التشخيص على أنه الموضوع المحورى فى عالمه الفنى ·· وهنا تمتاز حاسته الفنية بقرة فائقة على فهم اللغة التشكيلية لطبيعة الوجه البشرى وهو فوق ذلك ، فى مقدوره أن يضفى على مادته روح التوازن والنظام والحيوية ·· أى أنه يبث فيها من روحه فيجعلها تنطق بروعة التشكيل ·· أى يجعلها تنطبع بطابع الوحدة البنائية المعمارية ·

وهنا يقف المثال العظيم موقف المكتشف لخصائص الوجه البشرى .. يقف متأملا مبناه ، مفسرا ملامحه الحقيقية · ولعل ذلك ما يحتم علينا أن نرى الوجه البشرى من خلال عيونه وحواسه قط · ومن أجل هذا ، كان من الضرورى أن نذكر أن النحت عند عبد الحميد حمدى لا يعدو أن يكون قوة تشكيلية ، قبل أن يكون قوة جمالية بل هو قوة تشكيلية فطرية ، تجعل رجل الغابة المتوحش يعيد تشكيل ملامح وجهه ، وجسمه بلمسات غريبة وأشكال غير مألوفة وألوان جافية ·

ذلك هو فن التشخيص عند مثالنا ·· أنه فى نظره الفن الوحيد ، فهو الكتلة وهو الحى ، سواء جاء من الوحشية ، أو من ذلك الفنـان المثقف المتحضر ·

وفى ضوء ما سبق ، يمكن أن نلاحظ ان فن التشخيص عند مثالنا الموهوب لم يكن نقلا ، أو محاكاة للواقع ، وانما هو نقل لحياتنا الداخلية، ولمشاعرنا ، وعواطفنا ·· انه فن معبر ·· ولا يستطيع أن يكون معبر الا اذا كان تشكيليا ، ومن ثم ، يقول ليوناردو دافنشى : « ان الفنان والمثال هما العالمان العظيمان فى دنيا المنظور » · ومن الملحوظ ، أن المثال عبد الحميد حمدى يعقد دائمـا علاقة شعورية وطيـدة بينه وبين مادته التشكيلية ·· وهو لا يسمح بأية شائبة تشوب هذه العلاقة الوثيقة ·· لا يسمح بالتزاويق والبهرجة فى عالمه النحتى ·· ذلك لأنه يؤمن بأن الزخرفة انمـا هى نوع من الزيف والكذب تنأى به عن حقيقـة مادته التشكيلية ·· وواضح أنه يأخذ بفكرة البناء المعمارى فى تماثيله ·· تلك الفكرة التى تمثل جوهر تركيبه وتشكيله النحتى ·· وكأنه يهتدى فى هذا الصدد بقول « جيته » فى مقال له بعنوان : (فى العمارة الألمانية) اذ يقول : « لا تدع سوء الفهم يحول بيننا ·· لا تدع ذلك المبدأ المائع الذى وضعه تجار الجمال المحدثون يجعلك أرق من أن تستطيع الاستمتاع بالخشونة المميزة ، ولا تجعل مشاعرك فى النهاية تتحمل فقط النعومة السخيفة ·· انهم يريدون أن تؤمن بأن الفنون الجميلة جاءت فى ضوء رغبتنا المحمومة التى تحثنا على تجميل العالم من حولنا ·· هذا باطل » ·

وهناك ركيزة أخرى من ركائز التكوين النحتى عند المثال عبد الحميد حمدى وهى الممثلة فى النحت الفرعونى القديم · فهو يستلهم منه أساليبه التى يعالج بها مادته ، وكم رأيناه يوجه طلبته ويلفت نظرهم الى هـذا التراث الشامخ ، ويوصيهم بأن يمعنوا النظر فى أصول ذلك الفن وقواعده الأصيلة ·· ومعروف أن أهم ما يمتاز به الفن الفرعونى انما هو البناء المعمارى ·

فلا غرابة ، أن تتميز تماثيل عبد الحميد حمدى بالبناء المعمارى ، فضلا عن أنه يعتصر الروح المصرية فى تشكيل تماثيله ٠

واذا كان الله قد حبا مصر بهبة كبرى ، اذ خصها بالمقومات الثلاثة اللازمة لابداع نحت عظيم ألا وهى : الروح والأحجار ، والضوء ، فان المثال عبد الحميد حمدى أمكنه أن يصور ويصوغ من المعادن والحجر تحفا وصورا رائعة ٠ فقد جمع فى رؤية منسجمة ، متجانسة ، مكتملة بين التراث ، والحداثة ، والمعاصرة ٠٠ فهو هنا يعلن عن فرحته وهو يقهر المادة ليبدع شكلا جديدا نابضا بأحاسيسه وانفعالاته ، ناطقا بلسانه ، معبرا عن آماله ، وآمال أمته العربية ومن ثم نراه يحول الايقاع اللحظى الى ايقاع دائم وذلك بتنظيمه تنظيما معماريا موسيقيا متوافقا ، وكأنما يقول للمتلقى المشـــاهد : « أنظر الى تماثيلى ٠٠ انك تلمس فيها قوة التعبير ، وفلسفة المســاحة والكتلة ٠٠ ان هــذه التماثيل أبلغ تعبير عن حضارتنا المصرية ، وحضارتنا العربية » وكأنما يقول أيضا : « أنا أعرف هؤلاء الناس ، وأعـرف عطـاءهم ، واللغة التى خاطبوا بها مصر والعالم جميعا ٠٠ » ٠

والحق أن هذا المعرض أروع رسالة نبعثها الى العالم ، تعبيرا عن وعينا بما نملك من تراث ، وتأكيدا القدرتنا فى الحفاظ عليه ٠

أنظر الى التمثال النصفى لابن سينا ٠٠ انك تحس هنا بلمسات أصابع الفنان مطبوعة عليه ٠٠ تحس بضربات أزميله ، ابقاء على المظهر الحيوى للتشكيل ٠٠ وها هو تمثال نصفى لرائد الاقتصاد المصرى طلعت حرب ٠٠ انه يمتاز بقوة التعبير ، فهو بناء متماسك بدون زخرف ٠٠ أما بورتريه الفتاة الريفية فهو يتسم بالملامح المصرية الشديدة الحســاسية وهذا البورتريه لا يخلو من خاصـــية تشـــتهر بها الأنثى المصرية ، فهى تتميز بضفيرتها المألوفة التى تبرزها يد المثال البصير ٠

أما تمثال المثال عبد الحميد حمدى فهو يتميز بحسن البناء وقوة التعبير ٠٠ ويأتى تمثال الفلاحة المصرية ذات الملامح الريفية الشديدة الحساسية وكأنها تخاطبنى بقولها : (أنا الفلاحة المصرية منــاحة للخير والخصـب والنماء حارسة الأرض ، أم الأبطال ٠٠ وتبدو بصمات المثال بوضوح فى التمثال النصفى لسيدة الغناء العربى أم كلثوم وكذا أمير الشعراء أحمد شوقى ٠٠ ولقد وضع تمثال عبد الله النديم فى تشكيل من النحت البارز ٠٠ أما بورتريه فتاة من الجنوب ٠٠ فهو يعبر عن ملامحها الافريقية ، الفريدة حيث غلظة الشفاة والأنف والأفطس والشعر الأشعث المجعد ٠ وهناك بورتريه للفتى حازم حمدى وبورتريه للفتاة نهال حمدى ، وهما يعبران عن مدى البراءة والشفافية ٠

كذلك لاحظت رأس ذلك الشيخ المعمر الذى أكل منه الدهر حيث تبـدو آثار الزمن على وجهه فى شـكل حفر وخطوط · ويضم المعرض بورتريه لفتاة يابانية وآخر لفتاة تشيكية ·· أما التمثال النصفى للقائد الشهير صـلاح الدين الأيوبى فهو ينطق بقوة الشكيمة ويعبر عن سر عظمته فى حروبه مع الصليبيين ·

ويتصدر القاعة تمثال نصفى لبطل العبور محمد أنور السادات ، وبورتريه لجيهان السادات ·

وبعد ، فان هذا المعرض يعد أصدق تعبير عن حب المثال الكبير عبد الحميـد حمدى لفنه ووطنه ، وتراثه الحضـارى ، وكأنه هنا يأخذ بوصية رائد النحت المصرى محمود مختار اذ يقول فى وصيته : « ان سر الفن فى الحب ، ومن لا يهب حياته لفنه ، يجب أن يتخلى عن رسالة بعث الحياة فى الحجر » ·

موسيقية التصوير

عند مصطفى عبد المعطى (١)

زرت معرض الدكتور مصطفى عبد المعطى ، فى قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك .. ولاحظت أن لوحات المعرض تتميز ـ بادىء ذى بدء ـ بالطابع التجريدى ، فعملية التصوير الفنى هنا لا تعنى نقل الهدف نقلا مباشرا جامدا ، بل معناها نقل التناسق بين مختلف العلاقات ورفعها الى اللوحة على شكل سلم أنغام فى ذاته ، عن طريق تنمية هذه العلاقات تبعا لمنطق جديد أصيل ... ان عمل لوحة هنا معناه تشكيلها ، فهو هنا يريد أن يدلل على أن الفن الصحيح لا يمكن تحقيقه الا من خلال عمليات التنظيم والترتيب والاختصار بين مختلف عناصر المنظر التجريدى اللا تصويرى .

كذلك لاحظت أنه يستوحى صور المعرض من صميم البيئة المصرية ، أى من خلاصة مؤثرات الحضارة المصرية الفرعونية ، والحضارة الاسلامية ومن ثم ، فمصطفى عبد المعطى انما هو ابن البيئة المصرية انه فى عمليات ابداعه يستبطن ذاته ، ويتملى أعماقه ، فعن طريق تجاربه الذاتية وثقافاته الخاصة يلقف مدده ويستولد شحناته الفنية والجمالية ويستلهم طاقاته الابداعية التى يعمل على تكثيفها وصبها فى تلك الصور .. فانظر مثلا الى اللون الأسود الذى يسود أغلب لوحاته.. انه لون فرعونى قديم يكشف عن العمق الدرامى للانسان المصرى ، واللون الأسود له بعد ميتافيزيقى ، وله احساس بالمجهول ، مع اتسامه بالغموض .

كذلك اللون الأحمر هنا يتميز بمعناه الكلى المطلق ، واللون الأحمر الطوبى انما هو لون مصرى فرعونى قديم منحوت من البيئة المصرية

(١) مجلة الثقافة عام ١٩٨٢ .

القديمة وكأن هذا الفنان قد صنعت وجدانياته ومداركه من حصيلة مؤثرات عالمه المصرى التى لا تنفصم عن طاقاته الا بداعية وبالتالى فهو يبدع من خلالها رؤاه المعاصرة · واضح أن فى هذه اللوحات كلا من المثلث والمستطيل والخط المستقيم ، وان التشكيل الرياضى فى اللوحات يدعو الى الدهشة والذهول ·

وواضح أن الألوان متزنة فى كل لوحة ، وأن أى خلل فى الألوان سيخل باللوحة بالتأكيد ، وان هناك توافقا وتنافسا وهرمونية بين العناصر ، بين المثلث ، والدائرة والخط المستقيم الفرعونى ، وأن هناك لوحة تثير فينا احساس بالزحمة وأن أخرى تبعث فينا احساس بالراحة ·

وأخيرا ، فالصور عند مصطفى عبد المعطى لا تعدو أن تكون (سطح مسطح تغطيه الألوان بنظام معين) انه يقنعنا هنا بأنه فى مقدوره أن يستغنى عن تصوير الأشياء بشرط أن يكون ترتيب لا نجد فيه أثرا لشىء ينتمى الى العالم الخارجى ، وهذا ما يسمى بالفن التجريدى · مع الملاحظة ان الفن التجريدى ظهر منذ نصف قرن وهو انعكاس لموقف وقفه الفنانون المصورون أزاء فن التصوير وكان أولهم (ديلاكروا) الذى كان نهاية من نهايات هذه الثورة التى جاءت بحركات الانطباعية،والوحشية والتكعيبية والسريالية ، والانشائية ألخ ··· وكانت الواقعية فى القرن التاسع عشر قد وصلت الى أكبر درجة من السوء ، والمسخ ، وكان لابد من ظهور رد فعل ما ، وكان الفن التجريدى تعبير عن ردود الفعل هذه ··· حتى جاء الفنان مصطفى عبد المعطى ·· فكان معرضه أشد المحاولات جرأة لاعادة فن التصوير الى نفسه وتنقيته من كل شائبة ، ومن كل ثرثرة · هكذا فعل هذا الفنان الفذ فى معرضه الذى شاهدته فى هذه الأيام ·

لقد استخدم هرمونية الألوان ، واستخدم الخط المستقيم الفرعونى والمثلث ، والاسطوانة ، والدائرة وذلك كله غير موجود فى الطبيعة ومن ثم ، فهو لا يعنى الا ذات نفسه ·· نفسه التى تنطق بمؤثرات الحضارة المصرية القديمة ومؤثرات الحضارة الاسلامية ومؤثرات الحضارة المعاصرة ·

من كل هذه الحضارات استطاع أن يستلهم آثاره المصرية ونتاجه الابداعى الذى يضمه هذا المعرض ·

أخذت بدورى أسأل الدكتور مصطفى عبد المعطى وكأنى أتقمص شخصية سقراط ومنهجه فى التهكم والتوليد ·

ماذا تعنى اذن أى لوحة موجودة فى المعرض ؟ فأجاب :

انها لوحة ·· وهى عبارة عن قطعة تصويرية فحسب ·

قلت متسائلا : لكنها لا تعبر عن موضوع ما ؟ فأجاب :

اذا كأن الأمر كذلك فانها تصبح فى ذاتها موضوعا ، قيمته فى بنائه الداخلى ، وفى تنظيم عناصره وتماسك أجزائه ·· وهى تشبه فى هذا قطعة موسيقية ·

سألته : اذا كانت لوحتك قطعة موسيقية ـ فلابد أن تعنى شيئا !!!

أجاب : انها قطعة موسيقية ، اليست فى حاجة لكى تبرر وجودها الى أن تعنى شيئا ···

ان هذا الفن انما هو نوع من موسيقية التصوير ·

سألته : هل تستطيع أن تدلل على وجهة نظرك بشىء من الأدب ؟

أجاب : انظـر مثلا الى نوع من الشعر الحديث ·· انه يرمى الى استخدام الكلمات لمجرد الرنين الذى يصدر عنهـا ، وبصرف النظر عن معناها فهى شعر تجريدى ·· لقد أوضح (المصور) (التان) هـذا التقابل فقال : (أعتقـد أن المصور غير التصويرى هو ذلك الذى يقبل استخدام الأشـكال والألوان والأضـواء دون أن يبدأ من موضوع سبق تحديده تماما كما كان الشاعر (مالارميه) ينصح الشعراء بترك معنوية الكلمـــات ·

سألته بجرأة : هل تتفق معى أن هـذه اللوحات أشبه بالمعـادلات الرياضية التى تتميز بالتجريد والتى تخلو من نبض الحرارة والعاطفة ؟

أجاب : بالعكس فان هذه الصور واللوحات لا تنقصها العاطفة ، فالعالم الداخلى الذى أشعر به وأصوره فى ألوان وأضواء متوافقة متناسقة حتى أكشف عن عالمى الداخلى حتى أستطيع أن أعبر عنه عن طريق قدرة الألوان والأشكال ومن أجل هذا أوضح تماما بالطرق التشكيلية المعترف بها ، المعادلات الروحية للعالم الخارجى والعالم الداخلى ، وأن أجعل هذه التقابلات مفهومة عن طريق النقل على اللوحة وهكذا يتحقق الاكتشافات الخاصة بالتناسق المطلق ·

وأخيرا قلت : دعنى أعترف ان هذه اللوحات التى يضمها المعرض انما هى تبيان لمدى وعمق خبرتك واتساع فهمك فى التصوير والتشكيل والادراك الفنى الواسع ·

أجاب : لقد رأيت أن تتوافر لدى روح تشكيلية وثقافة وعلم ، فى التصوير حتى أستطيع أن أجعل المتلقى يستمتع بشىء ٠٠ فانظر كيف يجهدنى فن التصوير ويعاملنى بكل قسوة وكيف أدفع الثمن باهظا عن طيب خاطر . حتى أعطى شيئا جيدا للمتلقى ٠

قلت حقا لقد كنت صادقا مع فن التصوير غير التصويرى ، وكانت تجربتك تدعو للحماسة وهى تجربة ، أطلق عليها فاليرى ، ومن قبل جوته انها : (الفن العظيم) لانها تطلب من الانسان أن يستخدم جميع ملكاته حتى يبدع عمله الفنى على نحو مكتمل ٠

وبعد . فالجمال هو نبض الحياة ، ذلك لأن الحياة بدون جمال تعتبر مملة ، مقفرة ٠٠ فاذا تصـورنا أن الأرض لا تنتج عشـبا أخضرا ، وأن السماء رمادية اللون ، وأن كل الوجوه الانسـانية صورة واحدة مكررة بدون تغير وان كل المبانى لونا كلون الطين بدون تناسق وان الموسـيقى انعدمت ، أى لو تحطمت كل مباهج الحياة ، فينبغى أن نعذر الانسان فى هذه الحالة اذا لجأ الى ادمان الخمر أو الانغماس فى ارتكاب الجريمة ٠

فلا جدال أن الجمال فى طبيعة الانسان وأنه يجرى فى دمه ، فهو يسوغه ويتذوقه أراد ذلك أم كره ٠

الدكتور مصطفى عبد المعطى فى كلمات

- ولد عام ١٩٣٨ بالاسكندرية .
- تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية .
- أستاذ مساعد بقسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية .
- عضو مؤسس لجماعة التجريبيين التى تكونت عام ١٩٥٨ من الفنانين : محمود عبد الله العدوى ومصطفى عبد المعطى .
- حصل على منحة تفرغ من الحكومة المصرية لدراسة شمال الدلتا وتقديم معرض عن المنظر فى دنيا دلتا مصر عام ١٩٦٨ .
- حصل على درجة الأستاذية فى الفنون من آكاديمية سان فرناندر جامعة مدريد والمعادلة لدرجة الدكتوراة التى منحتها الجامعات المصرية عام ١٩٧٧ .
- وكيل وزارة الثقافة ومدير المركز القومى للفنون والآداب .
- منذ نهاية الخمسينات اشترك فى معظم المعارض التى أقيمت فى ذلك الحين وحتى الآن .

— معارض خاصة بمصر :

- قاعة قصر ثقافة الحرية بالاسكندرية سنة ١٩٦٥ .
- قاعة قصر الثقافة بكفر الشيخ سنة ١٩٦٨ .
- قاعة قصر ثقافة الأنفوشى بالاسكندرية سنة ١٩٧٠ .
- قاعة النادى السورى بالاسكندرية سنة ١٩٧٠ .

— قاعة باب اللوق للفنون الجميلة سنة ١٩٧٣ ٠

— قاعة المركز الثقافى السوفيتى بالقاهرة سنة ١٩٧٣ ٠

— قاعة المركز الثقــافى الألمانى (جوته) بالاسكندرية ســنة ١٩٨٧ ٠

— **معارض خاصــة فى اسبانيا :**

— جاليرى تيبس سنة ١٩٧٤ تصوير ورسم مدريد ٠

— جاليرى فاونس سنة ١٩٧٦ تصوير ورسم مدريد ٠

— جاليرى ماسترى مانيــو سنة ١٩٧٧ تصــــوير — رســـم لاكورونيا ٠

— **بعض المعارض الجماعية فى اسبانيا :**

— معرض الفن المصرى المعاصر بقاعة معهد الدراسات الاسلامية مدريد سنة ١٩٧٤ ٠

— معرض فنانى جاليرى فاونس مدريد سنة ١٩٧٥ ٠

— **بعض المعارض الدولية :**

— معرض الفن المصرى المعاصر فى باريس سنة ١٩٦٨ ٠

— معرض الفنانين السكندرى فى يوسلافيا سنة ١٩٧١ ٠

فهـــرس

مقـــدمة ٥

القسم الأول : ابداع الشيوخ

عبقرية محمد عبده ٧

قراءة فى فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق ١٥

رشيد رضا الصحفى الاسلامى الثائر ٢٥

عبقرية العقـــاد ٣٣

عبقرية محمـــد ٣٩

محمد كامل حسين الأديب المفكر ٤٤

أحمد أمين الأديب وصاحب النظر الصـــوفى ٦٧

الجواتية عند عثمان أمين ٧٥

الرؤية النقدية عند أنور المعداوى ٨٣

أحمد شوقى الشاعر ٩٣

ابراهيم عبد القادر المازنى وروح السخرية ٩٩

الدكتور محمد حسين هيكل : ماذا يبقى « زينب » وثورة الأدب . ١٠٥

الدكتور هيكل روائيا ومفكرا سياسيا ١١٣

ما وراء أدب يحيى حقى ١٢٣

قصة نفس للدكتور زكى نجيب محمود ١٣٧

القسم الثانى : ابداع الشبان

ياسين رفاعية « العصـــافير » ١٤٣

صفحة

زهير الشايب « المصيدة » ١٥٣
عباس الأسوانى : الأسوار العالية بين المقاومة والاستسلام . . ١٦١
عز الدين نجيب : المثلث الفيروزى ١٧١
عالم محمد كامل محمد .. فى القصة القصـــيرة ١٨٣

القسم الثالث : نقد قصص حرب أكتوبر

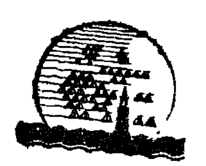
كلمات فى ضوء القصص الفائزة ١٨٩

القسم الرابع : الفنون التشكيلية

فن النحت المعـــاصر ـ موســـيقية التصـــوير : دكتور مصطفى
عبد المعطى ١٩٥
فن النحت المصرى المعاصر عند عبد الحميد حمدى ١٩٧
موسيقية التصوير عند مصطفى عبد المعطى ٢٠٣
الدكتور مصطفى عبد المعطى فى كلمـات ٢٠٧



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٤٨٣١

ISBN ٩٧٧ — ٠١ — ١٤٥٣ — ٧